السلطان عبد الحميد الثاني

وأثره في نشر الدعوة الإسلامية

السلطان عبد الحميد الثاني

وأثره في نشر الدعوة الإسلامية

إعداد

الأستاذ محمد قربان نياز ملا

نشر وتوزيع

مكتبة المنارة

مكة المكرمة - العزيزية - مدخل جامعة أم القرى

هاتف ٥٥٦٦٣٧٥ ص ب ٢٦٥٣

الطبعة الأولى

١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

قامت بطباعته وإخراجه دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - ص.ب : ٥٩٥٥ - ١٤

المقدمـــة

الحمد لله مالك الملك، يؤتي الملك من يشاء، وينزعه ممن يشاء، والصلاة والسلام على سيد الدعاة، وإمام المصلحين خاتم النبيين والمرسلين، محمد وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين، وبعد:

فلا بد أن يكون لكل عمل يقدم عليه الإنسان دوافع تدفعه للمضيّ قدماً فيما يؤمن به من أهداف، ولا شك أن إيمانه نابع من أن ما يقدم عليه ذو فائدة له أولاً في معرفة الحقيقة، ثم لنشر ما توصل إليه من معارف من غير تحيز ولا تحامل، وحيث أن السلطان عبدالحميد الثاني قد واجه هجوماً وغمطاً من أغلب من تناولوه بالدرس والبحث أمثال المستشرق بروكلمان، وماري ملزباتريك، والدكتور أحمد محمود الساداتي وغيرهم ممن ابتعدوا عن الحقيقة كل البعد، وأخذوا يرددون ما شاع بين العامة من أوصافٍ لا ينبغي ذكرها بتلك المبالغات التي خرجت عن المألوف.

تجاه هذا الموقف وجدتُ أقلية من الكتاب ممن أفرد صفحات يذكر فيها مناقب السلطان عبدالحميد ويمحو ما علق في الأذهان عنه، ولعل أحسن ما قرأته كتابات الأستاذ أنور الجندي الذي أخذ على عاتقه تصحيح كل ما ألصق بتاريخ الإسلام وقادته المسلمين، ثم كان هناك دافع آخر جعلني أتحرك لمعرفة الحقيقة وهو ما أثارته في نفسي الوثيقة التي نشرتها مجلة العربي الكويتية واطلعت عليها وهي بعنوان: (سبب خلع السلطان عبدالحميد وثيقة بتوقيعه، فريدة مجهولة تصرح بالسبب).



وقد وجدت في المعهد العالي للدعوة الإسلامية بالمدينة المنورة خير معين لكي أحقق رغبتي في معرفة حقيقة هذا السلطان، وكان من حسن حظي أن من ضمن البحوث التي طرحها المعهد بحثاً يدور عن جهود السلطان عبدالحميد الثاني في نشر الدعوة الإسلامية، فأسرعت إلى تسجيل هذا البحث باسمي ليكون لهذا السلطان نصيب وافر من رسالتي، وأردت بذلك أن أنير طريق معرفتي للحقيقة التي كنت أجهلها كما يجهلها جيلنا الحاضر الذي علق في ذهنه عن عبدالحميد في كونه سلطان تركيا الذي تتجمع فيه كل صفات الاستبداد من غير معرفة حقيقته ومعرفة الخدمات التي قام بها في مجال الدعوة الإسلامية، وأن أنصفوه ذكروه ضمن من وقف في وجه الهجرات اليهودية إلى فلسطين، ومنعهم من إقامة وطن قومي لهم، لا أقل ولا أكثر، وينسون أو يتناسون الأعمال التي قام بها في المجالين، الداخلي: الذي أعطاه من وقته الكثير، والخارجي: حيث استطاع أن يحفظ امبراطوريته خلال حكمه الذي قدر بنحو ثلث قرن من الضياع، أما ما عدا ذلك فقد أهمل تاريخ السلطان.

والحقيقة أن الداعية في هذا العصر ينبغي أن يكون بصيراً بما يحيط بعالمه خبيراً بوقائع عصره والأسباب التي تسير به ليعرف كيف ترد الأمور إلى منطلقها الأول وحكمها الصحيح.

ولا أبالغ إذا قلت أن الصعوبات التي واجهتني كثيرة استطعت بفضل الله التغلب عليها ولعل أصعبها هي الحصول على المراجع التي تعينني على معرفة الحقيقة، وأن وجدتها فهي من القلة التي لا تفي بإعطاء الموضوع الذي سأكتب فيه كما حدث بالنسبة للمبحث الثالث من الفصل الأول: (أثره في نشر الدعوة خارجياً)، حيث إن المراجع لم تسعفني في تغطية هذا المبحث كما هو مطلوب، فتحدثت عن جانب منه فقط ولم يكن ليفي بالمطلوب الذي وضع العنوان أساساً له، وهذا عائد إلى قلة من كتب عن تاريخ العثمانيين، ومن كتب لم يكن ملماً بالجوانب المختلفة للدولة العثمانية، وبعضهم من تجاهل أو تناسى عمداً مقتضيات الأمانة العلمية والأنصاف كما هو ظاهر من الكتاب غير المسلمين.

وبعد: فلا يفوتني في هذه المقدمة إلا أن أتقدَّم بالشكر الجزيل للأستاذ الدكتور أحمد الخراط الذي أعطاني من وقته الكثير، وكان مثالاً للمشرف المرشد الذي نقلني خطوة خطوة في هذا البحث حتى نهايته فجزاه الله خير الجزاء، والله لا يضيع أجر المحسنين، وأشكر أمين مكتبة الحرم المكي الشريف ورفاقه الكرام الذين كانوا خير معين في تسهيل مهمتي للحصول على تلك المراجع القيمة التي احتوتها مكتبة الحرم، كما وأشكر موظفي مكتبة جامعة أم القرى الذين أسهموا معي في الحصول على المراجع بتسهيلهم لمهمتي، كما وأشكر كل من ساهم في تقديم العون لي من قريب أو بعيد.

هذا، وقد قمت بتقسيم البحث إلى ثلاثة فصول:

أما في الفصل الأول: فقد تحدثت عن عصر السلطان وحياته، عرضت فيه لأحوال العالم الإسلامي في أواخر العهد العثماني، وأبرز الأحداث في عهد السلطان وحياته وسيرته.

أما في الفصل الثاني: فقد تحدثت عن أثره في نشر الدعـوة داخلياً وخارجياً، وناقشت في الفصل الثالث الشبهات التي أثيرت حوله، وأشرت إلى مصادرها ودوافعها وعرضت لها وناقشتها ثم جاءت الخاتمة لتسجل نتائج البحث والتوصيات التي رأيت أن أعرض لها.

وأخيراً: فهذا جهد متواضع أقدمه لكل متصفح منصف متلمساً العذر في كل تقصير وقعت فيه او خطأ سهوت في ذكره، فالإنسان غير معصوم من الخطأ والنسيان والكمال لله جلّ جلاله.

والله أسأل التوفيق والسداد إنه قريب مجيب، والحمد لله رب العالمين.

* * *

التمهيد في
أثر الدولة المسلمة في نشر الدعوة إلى الله

لا شك أن حضارة الأمم منذ الأزل كانت تقاس بما يقدمه أفرادها من تقدم فكري ومادي ملموس شاهد للعيان، والحضارة الإسلامية التي قدّمت ولا زالت تقدم كان لها جانب آخر لا يقل أهمية عن التقدم الفكري والمادي. تمثل في نشر دعوة الله وتبليغها إلى الناس كافة، لا فرق بين عربي ولا أعجمي إلا بالتقوى، وقد ابتدأها أشرف الخلق والمرسلين من مكة المكرمة سراً وجهراً، وفي المدينة المنورة جهراً بتكوين نواة للدولة الإسلامية رفعت مشاعل النور لكل البقاع.

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن: كيف استطاع الرسول صلى الله عليه وسلم تكوين الدولة في المدينة التي اعتبرت بداية لقيام حضارة إسلامية عظيمة بقيام دول إسلامية كان لها أكبر الأثر في نشر الدعوة الإسلامية منذ ذلك الوقت إلى يومنا، حيث تنعم بنعمة الإسلام.

قبل الإجابة عن هذا التساؤل ينبغي أن نوضح كيف كان حال العرب قبل أن أنعم الله عليهم بنعمة الإسلام؟.

كان العرب حين ظهور الإسلام يعيشون في بيئة اتسمت بالتفكك والاضطراب بسبب الحياة القبلية التي كانوا يحيونها، تلك الحياة التي تسيرها عقلية معينة وتغذيها روح وثنية جافة، ماذا كانت النتيجة في النهاية؟ فسدت الحياة بشتى صورها الاجتماعية والخلقية والسياسية فانعدمت معها القيم الفكرية لدى الأفراد.

تلك هي حال العرب، فما دور الرسول صلى الله عليه وسلم في تكوين الدولة الإسلامية التي قامت على أسس وقواعد متينة؟ ولا نريد أن نشرح الهجرة والتي اعتبرت بحق بدء مرحلة العطاء المبارك للدولة الإسلامية، وإنما نريد استخلاص الأسس والقواعد من أعماله صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة والتي اتضحت ـ بلا شك ـ في كلمتين (التضامن والوحدة)، وهي الكلمات المحببة إلى النفوس لأنهما تدلان على التكامل والترابط، والتراحم بين الأفراد والجماعات، وقد سما الإسلام بهاتين الكلمتين، فجعلهما رمزاً للتعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان، بعد أن كانت في الجاهلية تخضعان للروابط العنصرية، وللنزعات القبلية، ولقد أقام النبي صلى الله عليه وسلم أول دولة إسلامية على التضامن والوحدة عن طريق التوجيهات القرآنية والإرشادات النبوية، وذلك لأن القرآن الكريم هو الكتاب الذي أنزله الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم لكي يخرج به من الظلمات إلى النور، أما السنة فمن أهم وظائفها تفصيل ما جاء في هذا القرآن من إجمال وتأكيد ما أمر به أو نهى عنه.

وعلى هذا الأساس قام المسلمون بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم في المضي قدماً في بناء دولة إسلامية تحمل الحق والنور وتطبق ما جاء في القرآن الكريم والسنة المطهرة، سالكين هذه التوجيهات لا يخافون في الله لومة لائم في إقامة دولة إسلامية، ومعلوم أن هدف هذه الدولة هو نشر دعوة الإسلام عالية خفاقة ونشر هذه الدعوة لا يمكن أن ينال حظه من الانتشار بدون سلطة، والسلطة لا تأتي إلا بوجود دولة تحمل مشعل النور إلى الخلائق وتحمي حامليها.

وقد خرس كل من ظن أن الشريعة الإسلامية دعوة دينية قاصرة تعني بالأخلاق وتنظيم علاقة الإنسان بربه، ولا شأن لها بما وراء ذلك من شؤون الحياة ومنها شؤون الدولة والحكم.. وهذا رأي مردود تنكره الشريعة وتأباه، لأن من خصائص الشريعة الإسلامية الشمول، فما من شيء في الحياة إلا وللشريعة حكم فيه، ولهذا نجد في نصوصها أحكام العبادات والأخلاق والعقائد، والمعاملات بمعناها الواسع الذي يشمل تنظيم علاقات الأفراد

فيما بينهم، سواء أكانوا أفراداً أم جماعات، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ما فرَّطنا في الكتاب من شيء﴾ (الأنعام: ٣٨).

وما دامت الشريعة بهذا الشمول فمن البديهي أن نجد في أحكامها وقواعدها ما يتعلق بالدولة ونظام الحكم فيها، كمبدأ الشورى، ومسؤولية الحكام، ووجوب طاعتهم في المعروف، وأحكام الحرب والسلم والمعاهدات، إلى غير ذلك من الأحكام المتعلقة بالدولة وشؤونها، وفي السنة النبوية تتكرر ألفاظ «الأمير»، و«الإمام»، و«السلطان»، وهذه ألفاظ عني من بيدهم السلطة والحكم، أي الحكومة، والحكومة عنصر مهم من عناصر الدولة، وهذه النصوص يلزم تطبيقها، لأنها ما نزل الوحي بها لتقرأ وتترك، وإنما نزلت لتقرأ وتنفذ، وتنفيذها يعني إقامة دولة حسب المفاهيم التي جاءت بها الشريعة.

وكان أهم أهداف الدولة المسلمة نشر دعوة الإسلام عالية، وما الغزوات التي خاضها الرسول الكريم وصحبه الكرام، والفتوحات التي خاضتها دول إسلامية متعاقبة إلا لتحقيق الغرض من إقامة هذه الدولة ألا وهو نشر الدعوة الإسلامية.

ومن هنا نخرج إلى دين الله والدعوة إليه وانتظام أمر هذه الدعوة، كل أولئك لا يكون بغير دولة ذات أرض وسيادة وقائد، وإن أية محاولة يتصور فيها بعضهم هذا الدين مجرداً من الدولة، إنما هي محاولة لا تمتّ إلى حقيقة هذا الدين بأي سبب وصلة.

* * *

الفصل الأول

عصـــر السلطان عبدالحميد وحيـــاته

المبحث الأول : عرض مجمل لأحوال العالم الإسلامي في أواخر العهد العثماني.

المبحث الثاني : أبرز الأحداث في عهده.

المبحث الثالث : حياته وسيرته.

المبحث الأول

عرض مجمل لأحوال العالم الإسلامي في أواخـــر العهـــد العثمـــاني

متى بدأ ضعف المسلمين؟

من الصعب جداً تحديد الفترة التي اعترى الضعف فيها جسم الدولة الإسلامية العثمانية، وإن أجمع المؤرخون على أن مرحلة الضعف قد بدأت بهزيمة الدولة العثمانية عند أسوار فيينا عام ١٦٨٣ حين فشل الحصار للمرة الثانية، ومن هذه النقطة بدأ الصراع بين الغرب وعالم الإسلام يتحول لصالح الغربيين، والواقع أن هذه العلامة على التدهور لم تكن هي نهاية المعارك بين الغرب والعثمانيين، بل كانت علامة الضعف الذي أصاب المسلمين في مواجهة التصاعد في القوى الغربية، فقد توالت من بعد ذلك الهزائم وبخاصة في الحرب الروسية التركية (١٧٦٨ ــ ١٧٧٤)[1].

غير أن هناك اتجاهاً لدى بعض المؤرخين، إذ يرون أن علامات التدهور بدأت قبل ذلك حين تجمعت أساطيل الدول المتحدة لمواجهة الأسطول العثماني في موقعه (اليبالت) عام ١٥٧١، بَيْدَ أنه لا بد من ربط الموقف المتصل بالمواجهة العثمانية الإسلامية بالخطوات الواسعة التي خطاها الغرب منذ أزال الأندلس وأعاد إسبانيا إلى عالم الغرب وصفًّاها من القوى الإسلامية وسيطر على جامعاتها وأرضها وتراثها وحضارتها وبدأ في نقلها إلى لغاته، وما تبع ذلك في خط واحد من حركات الكشف والسيطرة على البحار، حين اندفعت البرتغال وإسبانيا في

(١) انظر: تاريخ الإسلام، أنور الجندي ٢/٢٣٢.

حركة رد فعل عنيف للانتقام من أطراف عالم الإسلام ومن شواطىء المغرب وأفريقيا بالذات، وهو ما وصفه المؤرخون وفي مقدمتهم أرنولد توينبي بحركة «تطويق عالم الإسلام» هذه الخطة التي بدأها العالم الغربي بتطويق البلاد الإسلامية بدلاً من مقابلتها وجهاً لوجه، كما فعل خلال الحروب الصليبية[١].

إلا إن علامات الضعف قد أخذت في وضوح شديد إذا تصورنا بوضوح واقع الدولة العثمانية والعالم كله خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر، وقد بلغت الدولة العثمانية أشد مراحل الضعف وقد تجمعت الدول الغربية على وضع الخطط للقضاء عليها وتمزيقها وإذلالها، وقد كانت روسيا وبريطانيا وألمانيا وفرنسا جميعاً بالإضافة إلى البابوية تشترك في رسم هذه الخطط وفي انتزاع الأجزاء الأوروبية من الدولة واسترجاعها والاستعداد لتقسيم الأجزاء العربية في الدولة وهي الشام والعراق والجزيرة العربية[٢].

تطويق عالم الإسلام:

قلنا إن المؤرخين الأوروبيين قد وصفوا انتزاع أطراف العالم الإسلامي وفي مقدمتهم أرنولد توينبي بحركة «تطويق عالم الإسلام» وذكرنا أن الدولتين اللتين قامتا على أنقاض الأندلس: إسبانيا والبرتغال تزعمتا هذه الحركة بَدْءاً بالشواطىء القريبة من الأندلس ثم الذهاب إلى أبعد من ذلك، لكن متى بدأت هذه المرحلة؟.

يقول أنور الجندي أن (مرحلة تطويق عالم الإسلام قد بدأت عام ١٦٠٠ وامتدت إلى ١٧٩٨ أي حوالي قرنين كاملين، وقد بدأت هذه الحركة من نفس نقطة تصفية الأندلس)[٣].

---

(١) المصدر نفسه ٢/٢٣٣.

(٢) انظر: تصحيح أكبر خطأ في تاريخ الإسلام، أنور الجندي١١.

(٣) انظر: اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار، أنور الجندي ٢٣ ـ ٢٥.

لكن كيف بدأت هذه الحركة وعلى أي صورة كانت وأي أشكال التطويق اتخذت؟.

بدأ هذا التطويق بتمهيد تَمَثَّل في الكشوف الجغرافية التي ادعاها الغرب تمهيداً لتطويق العالم الإسلامي ثم استعماره عسكرياً.

أما خطة التطويق فقد بدأها «هنري الملاح» حيث سارت في طريقها بعد دورانهم عام ١٤٤٥ حول الرأس الأخضر وبلوغهم خط الاستواء عام ١٤٧١ إلى كاليكوت على الساحل الغربي للهند وسيطرتهم عام ١٥١١ على بوغاز ملقا واندفاعهم في غربي المحيط الهادي ليرفعوا علمهم في كانتون عام ١٥١٦ وعلى شاطىء اليابان عام ١٥٤٢)[١].

ولم يكن هدف التطويق لمجرد الاستيلاء على أطراف عالم الإسلام إنما كان هدفاً في أول الأمر مقاتلة المسلمين بالتجارة عن طريق الطواف حول رأس الرجاء الصالح في محاولة لفرض الحصار الاقتصادي حول عالم الإسلام، حتى إذا بدأت الدولة العثمانية تضعف، كانت الخطة تحرير أجزائها الأوروبية والسيطرة على أجزائها العربية، واتصل بهذا المخطط إنشاء قناة السويس في مصر قلب العالم العربي، وسيلةً لربط العالم الإسلامي بالعالم الغربي والسيطرة على مقدراته[٢].

وثمة هدف لا يقل خطورة في محاربة المسلمين عن طريق التجارة ألا وهو الوصول إلى القدس عن طريق الهند يتحقق من تطويق العالم الإسلامي بعد مواجهة العالم الإسلامي عسكرياً إذا اقتضى الأمر ذلك، ومعلوم أن الدولة العثمانية كانت قد سيطرت سيطرة كاملة على شرقي البحر المتوسط ومن هنا فقد كانت السيطرة عليها هي آخر المراحل في هذه المعركة المريرة التي امتدت نيفاً وأربعة قرون[٣].

---

(١) انظر: اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار، أنور الجندي ٢٣ ـ ٢٥.

(٢) و (٣) انظر: تاريخ الإسلام ٢/٢٣٥ ـ ٦١٤.

حالة البلاد العربية قبل الحكم العثماني وبعده:

إزاء هذا التطويق الخطير لعالم الإسلام لم تقف الدولة العثمانية في موقف سلبي تجاه الخطر الصليبي، بل اتخذت مواقف مشرفة خلال حكمها للعالم الإسلامي وتبرز هذه المواقف لو نظرنا إلى حال البلاد الإسلامية قبل الحكم العثماني الإسلامي بدءاً بالعالم العربي، فيذكر الأستاذ محمد جميل بيهم في كتابه «العرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب»: (إن حالة البلاد العربية قبيل الفتح العثماني كانت قد وصلت إلى أشد درجات السوء، وإن العالم الإسلامي كان يتطلع إلى منقذ ينقذه من الهاوية التي سقط فيها، فلما خرج آل عثمان إلى ميدان الكفاح وظهرت بوادر نجاحهم في حروبهم ضد الامبراطورية البيزنطية، علق المسلمون عليهم الآمال واتجهوا بقلوبهم إليهم، فالعالم الإسلامي الذي كان قد استولى عليه اليأس من جرّاء الكوارث التي حاقت به في الشرق والغرب شعر أثر هذه الانتصارات التي أحرزها العثمانيون سواء في البر أو البحر، بحياة جديدة، ردت إليهم الآمال ورفعت رؤوسهم مرة أخرى)[1].

فأخلد السكان في الولايات العربية إلى السلبية والخضوع للعثمانيين، فقد كان العثمانيون مسلمين مثلهم، وكانوا يعتنقون المذهب السني مثلهم، ويحرصون على تطبيق مبادىء الشريعة الإسلامية، ويحافظون على الشعائر الدينية مثل الاحتفال برؤية هلال رمضان واحترام صيامه وغير ذلك، وتنظيم قافلة الحج وحراستها وهي في طريقها إلى الحجاز، وما إلى ذلك من أعمال استهوت أفئدة جماهير كانت تعيش في مجتمعات دينية إسلامية محافظة[2].

لم يجر العثمانيون تغييرات في حياة العرب ولا في أنظمة حكمهم الذي تعودوه وألفوه فيما بينهم إذا علمنا أن الدولة العثمانية في ظل قرون القوة التي عاشتها تمتعت بأنظمة ممتازة من حكومة مركزية، إلى مجلس وزراء يرأسه الصدر

(١) انظر: جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك، زياد أبو غنيمة ١١٥ ــ ١١٦.

(٢) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، د. عبدالعزيز محمد الشناوي ٢/٩٦١.

الأعظم، إلى ديوان سلطاني مكون من الوزراء وكبار الموظفين، إلى القضاء الذي يرأسه شيخ الإسلام، إلى نواب عن الجيش، أما في الولايات فكان يتولى أمر كل ولاية والي (الباشا) الذي يعين من قبل الخليفة، ويعاونه في أعمال إدارة الولاية (الديوان) أما القضاء فكان يتولاه قاضي القضاة «قاضي العسكر» وقد قسمت الولايات إدارياً إلى سناجق، عين كل منها حاكم سمي بالسنجق، مهمته الإشراف على شؤون الأقاليم والحفاظ على الأمن وجمع الضرائب، وفي كل ولاية كان هناك حاكم عسكري، وحامية عسكرية تساعد الباشا على حفظ النظام والأمن...[1].

تلك هي خلاصة التنظيمات التي طبقتها الدولة العثمانية إبان قوتها وعزتها على اختلاف ولاياتها وشعوبها، كما يقول السلطان عبدالحميد في مذكراته: (إن الامبراطورية العثمانية دولة احتوت عدداً كبيراً من الأمم والشعوب، وتشكلت من الأتراك والعرب والأكراد والأرناؤوط والبلغار واليونان والزنوج، حيث جمعتهم الرابطة الإيمانية وجعلتهم أفراداً في عائلة واحدة...)[2].

وعلى الرغم من احتواء الدولة على هذا العدد الضخم من مختلف الشعوب والأجناس إلا أنها استطاعت بفضل سياسة الحكم الإسلامي أن تضبط الأمور وذلك أيام قوتها، وكذلك بفضل سياسة التسامح وترك الشعوب وحرية الأديان، ويظهر ذلك جلياً في البلاد العربية فيما يتعلق بحكمها، فقد كان (الحكم العثماني حكماً غير مباشر، ولم تضيق السلطات العثمانية الخناق على الجماهير، بل تركتهم لشيوخ طوائفهم التي ينتمون إليها، ولم تتدخل السلطات العثمانية إلا في نطاق ضيق ومحدود للغاية لم يتجاوز مجالات معينة هي توفير الأمن وجمع الضرائب والإشراف على القضاء، وتركت للجماهير شؤون التعليم والصحة والمواصلات وغير ذلك من المرافق...

(١) انظر: دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية، د. عبدالحليم عويس ١٨٤.

(٢) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، مذكراتي السياسية ١٧٧.

وقد ظلت معاهد التعليم ومراكز الثقافة العليا، الدينية والعربية ـ سواء في العراق أو الحجاز أو اليمن أو الشام أو مصر أو شمالي أفريقيـة ـ تمارس نشاطها على النحو الذي كان سائداً قبل دخول الولايات العربية تحت السيادة العثمانية، وكان كبار العلماء ـ إلى جانب نشاطهم العلمي المتعدد الجوانب ـ يمارسون زعامة شعبية على الجماهير لم تحاول السلطات العثمانية أن تنال منها، بل كانت توقرها وتخشاها وتعمل على الإفادة منها عند وقوع انتفاضة شعبية أو أزمة طارئة)[1].

يفهم من هذا أن الدولة العثمانية تركت البلاد العربية على ما كانت عليه من حيث التنظيمات التي وجدت على مر الأيام فلم تتدخل في شؤونهم بل قدمت يد المساعدة لهم، وليس معنى ذلك أنها تركت الأمور التي تمس البلاد العربية من ناحية تربص الأعداء بالبلاد العربية بل أنها كانت أداة لوحدتهم فقد (أعادوا لحمة الوحدة إليها تحت الراية الإسلامية، بعد أن رزحت طويلاً في مستنقعات التشرذم والخلافات التي كانت تحتدم بين الزعامات الهزيلة)[2].

ويستطيع الباحث أن يقول: إن الدولة العثمانية قد فرضت شبه عزلة على البلاد العربية، إنَّ تلك العزلة التي فرضوها استطاعوا من خلالها (أن يدفعوا عن الشرق العربي غائلة الاستعمار العسكري الأوروبي حتى أواخر القرن الثامن عشر مما أضفى عليه نوعاً من الهدوء، كما أفادت البلاد العربية ـ باستثناء الجزائر ـ من السياسة التي اتبعتها الدول الأوروبية الكبرى حتى السبعينات من القرن التاسع عشر، وهي سياسة المحافظة على كيان الدولة العثمانية وتماسك ممتلكاتها، كما أن الحكم العثماني غير المباشر كان قليل التأثير في حياة المجتمعات العربية في الشرق، فقد احتفظ العثمانيون بالبناء الاجتماعي والاقتصادي الذي كان سائداً في المنطقة قبل دخولها في حوزتهم، ولم يفرضوا عليها القـوانين والأنظمة العثمانية الصرفة لئلا يخلّوا بتنظيمات هذه البلاد الاقتصادية، مكتفين

(١) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ٢/٩٦١ ـ ٩٦٢.
(٢) انظر: جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ٩٣.

بفرض سيطرتهم السياسية والعسكرية تاركين لشعوب هذه البلاد ومؤسساتهم السابقة حرية الاحتفاظ بلغتهم وعاداتهم وتقاليدهم، ومن ذلك إبقاؤهم على الطوائف التي كان ينقسم إليها أصحاب الحرف، وكانت الطائفة بمثابة منظمة اجتماعية واقتصادية لها دستورها غير المكتوب من العادات والتقاليد الموروثة، ولها شيخ يتولى شؤونها وتنظيم علاقاتها بالحكومة فيما يختص بالضرائب وحفظ النظام داخل الطائفة ورعاية مصالحها، وقد رغبت الدولة العثمانية في الإبقاء على هذا الوضع لكي يساعدها على حفظ النظام بين السكان والاتصال بالأهالي عن طريق شيوخهم، وقد ساعد هذا الوضع على احتفاظ العرب في ظل الحكم العثماني بمقوماتهم الأساسية من لغة وثقافة وعادات وتقاليد. . .)[1].

ويرى بعض المؤرخين والباحثين أن الحكم العثماني في البلاد العربية إنما هو امتداداً للحكم الذي سبق الحكم العثماني. ففي مصر والشام كان امتداداً لحكم دولة المماليـك، أما في العـراق فقد اقتـرن الحكم العثماني بـالهدوء والاستقرار وهدوء الصراع المذهبي بين الشيعة والسنيين فيما عدا الحروب التي كانت تنشب بين الدولة العثمانية وفارس، ولكن لم تتعرض الجماهير العراقية لمذابح أو عمليات تخريبية، أما في الحجاز فقد أبقى العثمانيون عـلى حكم الأشراف الذين ينتسبون إلى الدوحة النبوية الكريمة، وأبقوا على الامتيازات الخاصة بأهل الحجاز مثل الإعفاء من التجنيد والجزية، وكانت الدولة تحرص حرصاً شديداً على إرسال حصيلة الأوقاف والاعتمادات المالية المرصودة على الأشراف وفقراء الأماكن المقدسة وإصلاح الحرمين الشريفين كما كانت تتدخل لإصلاح ذات البين بين الأشراف، أما في اليمن فلم يكن الحكم العثماني مستقراً لفترات طويلة بسبب اختلاف المذهب الديني، فقد كان أهل اليمن شديدي التمسك بأن يكون حكامهم من أتباع مذهب الزيدية، وانتهى الأمر باتفاق على تعيين حاكم منهم يعترف بالسيادة العثمانية على اليمن وما تستتبعه هذه السيادة من التزامات، وفي منطقة الخليج العربي كان الحكم العثماني واهناً

(١) حركة اليقظة العربية في الشرق الآسيوي، د. محمود صالح منسي ٣٣.

شاحباً حيث تركت الدولة سكان المناطق التي امتد إليها الحكم العثماني يزاولون نشاطهم التقليدي دون تدخل منها، وكان فيهم السنيون وفيهم الشيعة.

أما في النيابات الثلاث في شمال أفريقية فكانت السيادة العثمانية عليها سيادة اسمية، وكان الدايات والبايات والولاة يرسلون الجزية إلى الباب العالي حيناً ويمنعونها أحياناً أخرى، ولكن كان الجهاد الديني البحري الإسلامي الذي مارسه سكان شمالي أفريقية مع حكامهم ضد القوى المسيحية الأوروبية يشدهم شداً إلى الدولة العثمانية بصفتها أكبر دولة إسلامية وأن سلطانها هو خليفة المسلمين[1].

تلكم هي حال البلاد العربية في ظل الحكم العثماني الإسلامي أبان قوتها وعظمتها، فقد رحب العرب بالوحدة الإسلامية العثمانية ولم يعارضوها، حيث وجدوا في العثمانيين إخوانهم في العقيدة والدين، وذلك يؤلف قوة ودفعاً كبيرين، وقد أكد الباحثون والمؤرخون أن هذا الالتقاء بالعرب في ظل الدولة العثمانية قد حمى العالم الإسلامي أكثر من أربعمئة عام من الغزو الصليبي الذي لم يلبث أن جاء بعد ضعف الدولة العثمانية[2].

لقد اتبع سلاطين الدولة العثمانية سياسة الحكمة والمحافظة على كيان البلاد العربية لعلمهم بأهمية هذه البلاد، فقد كان السلطان عبدالحميد على رأس هؤلاء يقدر أهمية البلاد العربية ويدرك أن اليوم الذي ينفصل فيه العرب عن سلطنته ـ وعددهم يقارب عشرة الملايين ـ سيكون نذيراً بانهيار الامبراطورية، لأنهم يشكلون أساس دعامتها ذلك أن بلادهم من أغنى المناطق العثمانية، فهي تمد خزينة الدولة بالقسط الأوفر من المواد أو ما يقدر بثلثي واردات الميزانية، كما تمدها بالعدد الأكبر من الرجال لجيشها، وفيها من أملاك

---

(١) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ٢/٩٦٢.

(٢) انظر: تصحيح أكبر خطأ في تاريخ الإسلام الحديث ٢٤.

الأوقاف أكثر من أي مكان آخر، ومعظم أملاك السلطان الخاصة هي في الولايات العربية[1].

المسألة الشرقية:

إن الحديث عن المسألة الشرقية قد يطول بعض الشيء، فالمسألة الشرقية مرت بمراحل تزعمها الغرب، فقد نجح الأوروبيون في نهاية القرن السادس عشر في السيطرة على معظم البحار الإسلامية واستطاعوا أن يطوقوا البلاد الإسلامية، ولكن الغرب لم يخاطر في شد الحبل إلا في القرن التاسع عشر فيما بعد، وحتى ذلك التاريخ كانت فكرة بسالة المسلمين العسكرية تفرض الحذر على الغربيين وتشدد عزائم المسلمين أنفسهم لتجعلهم واثقين من أنفسهم، هذه الثقة المتينة قضى عليها شيئاً فشيئاً على أثر الفشل المتوالي الذي منيت به الامبراطورية العثمانية وباقي الدول الإسلامية[2].

لكن متى بدأت المسألة الشرقية؟

يقول الدكتور عبدالحليم عويس: أنه (في خلال القرن الثامن عشر، كانت أوروبا تكتل أحقادها للانقضاض على الخلافة العثمانية واقتسام أملاك «الرجل المريض» تركيا، وأطلقت على هذه النزعة اسم (المسألة الشرقية)، حيث أن تركيا هي العقبة الشرقية الوحيدة التي تؤلف خطراً على الصليبية الدولية وحماية حقيقية لبلاد الإسلام المتناثرة.

ولم يكد ينتهي هذا القرن حتى كانت القوى الصليبية الكبرى في ذلك الوقت (بريطانيا وفرنسا وروسيا) تحاول الوصول إلى صيغة ملائمة للانقضاض واقتسام الغنائم ولا سيما أنهم اكتشفوا ضعف الجانب التركي في معركة (سان

---

(١) انظر: العرب والترك في العهد الدستوري العثماني ١٩٠٨ ـ ١٩١٤ توفيق علي برو، ٣٣.

(٢) انظر: تاريخ الإسلام ٢/٢٣٣.

جونار) وعلى أبواب (فيينا) عموماً. . عندما ظهر تخلف العسكرية العثمانية[١].

لكن الذي أراه ـ والله أعلم ـ أن المسألة الشرقية قد بدأت بحركة «تطويق عالم الإسلام» وهي الحركة التي تزعمتها اسبانيا والبرتغال في بدء الأمر واتخذت صورة حركة الكشوف الجغرافية للسيطرة على البحار الإسلامية، ثم الانقضاض على البلاد الإسلامية وقد مهدت الطريق إلى هذا الاستعمار، إذ تحولت الدولة العثمانية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر إلى مادة الاستعمار الغربي الذي يقتطع من جسدها، ويتصارع على اقتسامها، لذلك حرصت الدعاية الاستعمارية على تشويه صورة الحكم العثماني والتاريخ العثماني والإنسان العثماني، لكي تبرر عملية تطويق وتمزيق واقتسام الدولة العثمانية[٢].

وقد كان لليهود دور كبير في إضعاف القوى الإسلامية واستغل الغرب اليهود أسوأ استغلال لبث أفكارهم وتشويه صورة الحكم العثماني، فقد أخذت الدعاية الإعلامية اليهودية على عاتقها الترويج للأفكار القومية التي أوعزت الصليبية لبعض نصارى العرب بالمناداة بها، ومن عجب أن تفتح الدعاية اليهودية الإعلامية من خلال صحفها ومحافلها الماسونية المجال لسدنة القومية العربية للترويج لهذه الفكرة لتخفي على كثير من العرب الذين انخدعوا بها[٣].

لقد نجح اليهود في إثارة البلبلة ونشر الأفكار المنحرفة داخل البلاد الإسلامية كما نجح الغرب المستعمر في تطويق العالم الإسلامي عن طريق حركة الكشوف الجغرافية التي تُعدُّ عاملاً هاماً في إضعاف الوحدة الإسلامية العثمانية وتحطيمها من الخارج.

كما تزعم الغرب خطة لإضعاف الدولة العثمانية من الداخل وتمزيق

(١) دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية ١٨٦
(٢) انظر: حوار في أنقرة، محمد جلال كشك ٢١.
(٣) انظر: جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ٥٤ ـ ٥٥.

وحدتها عن طريق فرض الامتيازات على الدولة العثمانية مستغلة فترة الضعف ومتخذة من حماية المسيحيين في داخل الدولة وسيلة لفرض نفوذها، وكان هذا النفوذ في أكبر خطره وأهم أمره داخل العالم الإسلامي متمثلاً في إتاحة الفرصة للإرساليات التبشيرية التي بدأت تسيطر على الثقافة داخل العالم الإسلامي والعربي بوجه خاص، وكانت هذه الامتيازات من عوامل التمزق وإثارة الفتن من بعد[١].

لقد نجح الغرب في تطويق العالم الإسلامي من الخارج والداخل، ولكنه نجاح في فترة ضعف في تاريخ العالم الإسلامي، وهي مرحلة لا تزيد عن قرن ونصف قرن من الناحية السياسية وذلك خلال ضعف الدولة العثمانية. . .[٢].

في خلال تلك الفترة استطاع الاستعمار أن يضرب بأنيابه الدولة العثمانية المتهالكة الأطراف التي أنهكتها الاضطرابات وأثقلت كاهلها الديون وأصبحت ـ كما يقول عباس محمود العقاد ـ فيما ينقل عنه محمد جلال كشك (هي التركة التي يتحدث عن اقتسامها علناً أعداؤها المتربصون بها في القارة الأوروبية بلا اختلاف بين قادر منهم وعاجز وبين مستعمر منهم ومبتدىء في صناعة الاستعمار، كل يطالب بنصيبه من ذلك الملك المباح كان اسم «التركة» أو «الرجل المريض» عنواناً على البلاد العثمانية. . أياً كان ساكنوها من مسلمين أو غير مسلمين ومن ترك أو عرب)[٣].

استطاع المستعمر الغربي أن يمهد الطريق لنفسه بعد أن أحسن في اختيار الأرض الجيدة والبذرة الصالحة استعداداً لمرحلة الاستعمار والغزو العسكري وهي المرحلة الحاسمة التي قضت على دولة المسلمين وخلافتهم الإسلامية.

(١) انظر: تاريخ الإسلام ٢/٢٣٣ ـ ٢٣٤.
(٢) انظر: شبهات في الفكر الإسلامي، أنور الجندي ٤٩.
(٣) حوار في أنقرة ٣٦.

مرحلة الاستعمار والغزو العسكري للعالم الإسلامي:

لقد بلغ الاستخفاف بأعداء الدولة العثمانية الإسلامية أن اتفقوا على رسم خارطة الدولة العثمانية حسب أهوائهم وإطلاق ألسنتهم على الدولة بعدة أسماء لا تليق بعظمة الخلافة الإسلامية، ولعل عبارة «رجل أوروبا المريض» وأمثالها كانت قد صدرت من أعداء الدولة الذين أرادوا اقتسام تركة هذا الرجل المريض قبل وفاته على حد زعمهم، وكان قيصر روسيا نيقولا الأول (١٨٢٥ ـ ١٨٥٥) الذي كان على صداقة حميمة مع رئيس وزراء بريطانيا أبردين هو أول من أطلق عبارة «رجل أوروبا المريض» وأمثالها، وقد اتفق القيصر مع بريطانيا على اقتسام ميراث رجل أوروبا المريض على الأسس الآتية:

أولاً: تحتل روسيا الآستانة، ولكن لا تضمها إليها.

ثانياً: ترابط القوات الروسية في البوسفور، وترابط القوات النمساوية في الدردنيل.

ثالثاً: تستقل ولايتا الدانوب، وهما الأفلاق والبغدان، وكذلك الصرب وبلغاريا ولكن تكون هذه الدول تحت حماية روسيا، أي يكون استقلالها استقلالاً مزيفاً.

رابعاً: تحتل بريطانيا مصر، ولها إذا شاءت أن تستولي على جزيرة كريت[١].

إن مجرد تآمر الأعداء ضد الدولة العثمانية والتفكير في تقسيم ممتلكاتها ليدل دلالة واضحة على الحالة التي وصلت إليها الدولة العثمانية من الضعف لتصبح لقمة سائغة لأعداء الإسلام وهو بلا شك تحدٍّ خطير.

لكن الذي ينبغي أن نوضحه أن الدولة العثمانية لم تقف موقف المتفرج، لقد هَبَّت في فترات عزتها وعظمتها لإنقاذ البلاد العربية وبخاصة من أخطار

---

(١) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ٢/٨٣١.

الأطماع الصليبية التي كانت توشك أن تنقض عليها والتي وصلت جيوشها البرتغالية إلى البصرة بعد أن سيطرت على عُمان ومسقط ومضيق هرمز، بينما هددت الأساطيل الاسبانية شمال أفريقيا العربي المسلم[١].

إن حركة الاستعمار والغزو العسكري بدأت بعد حركة تطويق عالم الإسلام وتمثلت في الشركات التجارية التي أنشأها الأعداء كالهولندية على «أندونيسيا» وبريطانية على «الهند»، ثم لم تلبث الشركتان أن تحولتا إلى استعمار سافر واحتلال عسكري للملايو والهند جميعاً، وفي نفس الوقت بدأت حركة سيطرة واسعة على أفريقيا الشرقية والغربية والجنوبية بين الدول الأوروبية[٢].

ولا شك أن الدولتين اللتين قامتا على أنقاض دولة الأندلس الإسلامية كانتا هما المتزعمتان لحركة الاستعمار والغزو في بادىء الأمر، ولما تحوَّل ميزان القوى داخل الدول الأوروبية الأخرى تزعمت مرحلة الاستعمار في أواخر عهد الدولة العثمانية بريطانيا وفرنسا وغيرهما من الدول الأوروبية.

وقد استطاع العثمانيون رد كيد المستعمر الأول على أعقابه وهم البرتغاليون وقدموا أعظم خدمة للإسلام عندما وقفت قواتهم في وجه المستعمر البرتغالي الذي حاول الزحف نحو البحر الأحمر والأماكن المقدسة الإسلامية في أوائل القرن السادس عشر الميلادي، فعلى الرغم من أن الدولة قد أخفقت في طرد الاستعمار البرتغالي من مراكزه في المحيط الهندي ومنطقة الخليج العربي، إلا أنها نجحت في منع تغلغله إلى الحجاز حيث كان البرتغاليون يعتزمون تنفيذ مخطط صليبي مسرف في وحشيته، وهو دخول البحر الأحمر واجتياح إقليم الحجاز باحتلال ميناء جدة، ثم الزحف على مكة المكرمة واقتحام المسجد الحرام وهدم الكعبة المشرفة، ثم موالاة الزحف منها على المدينة المنورة لنبش قبر الرسول صلوات الله وسلامه عليه، ثم استئناف الزحف على تبوك ومنها إلى بيت المقدس والاستيلاء على المسجد الأقصى[٣]، وبذلك تقع هذه المساجد الثلاثة في

---

(١) انظر: جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ٩٣.

(٢) انظر: اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار ٢٩.

(٣) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ٢/٨٦٢.

جونار) وعلى أبواب (فيينا) عموماً . . عندما ظهر تخلف العسكرية العثمانية[1].

لكن الذي أراه ــ والله أعلم ــ أن المسألة الشرقية قد بدأت بحركة «تطويق عالم الإسلام» وهي الحركة التي تزعمتها اسبانيا والبرتغال في بدء الأمر واتخذت صورة حركة الكشوف الجغرافية للسيطرة على البحار الإسلامية، ثم الانقضاض على البلاد الإسلامية وقد مهدت الطريق إلى هذا الاستعمار، إذ تحولت الدولة العثمانية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر إلى مادة الاستعمار الغربـي الذي يقتطع من جسدها، ويتصارع على اقتسامها، لذلك حرصت الدعاية الاستعمارية على تشويه صورة الحكم العثماني والتاريخ العثماني والإنسان العثماني، لكي تبرر عملية تطويق وتمزيق واقتسام الدولة العثمانية[2].

وقد كان لليهود دور كبير في إضعاف القوى الإسلامية واستغل الغرب اليهود أسوأ استغلال لبث أفكارهم وتشويه صورة الحكم العثماني، فقد أخذت الدعاية الإعلامية اليهودية على عاتقها الترويج للأفكار القومية التي أوعزت الصليبية لبعض نصارى العرب بالمناداة بها، ومن عجب أن تفتح الدعاية اليهودية الإعلامية من خلال صحفها ومحافلها الماسونية المجال لسدنة القومية العربية للترويج لهذه الفكرة لتخفي على كثير من العرب الذين انخدعوا بها[3].

لقد نجح اليهود في إثارة البلبلة ونشر الأفكار المنحرفة داخل البلاد الإسلامية كما نجح الغرب المستعمر في تطويق العالم الإسلامي عن طريق حركة الكشوف الجغرافية التي تُعدُّ عاملاً هاماً في إضعاف الوحدة الإسلامية العثمانية وتحطيمها من الخارج.

كما تزعم الغرب خطة لإضعاف الدولة العثمانية من الداخل وتمزيق

(١) دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية ١٨٦.
(٢) انظر: حوار في أنقرة، محمد جلال كشك ٢١.
(٣) انظر: جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ٥٤ ــ ٥٥.

وحدتها عن طريق فرض الامتيازات على الدولة العثمانية مستغلة فترة الضعف ومتخذة من حماية المسيحيين في داخل الدولة وسيلة لفرض نفوذها، وكان هذا النفوذ في أكبر خطره وأهم أمره داخل العالم الإسلامي متمثلاً في إتاحة الفرصة للإرساليات التبشيرية التي بدأت تسيطر على الثقافة داخل العالم الإسلامي والعربـي بوجه خاص، وكانت هذه الامتيازات من عوامل التمزق وإثارة الفتن من بعد[1].

لقد نجح الغرب في تطويق العالم الإسلامي من الخارج والداخل، ولكنه نجاح في فترة ضعف في تاريخ العالم الإسلامي، وهي مرحلة لا تزيد عن قرن ونصف قرن من الناحية السياسية وذلك خلال ضعف الدولة العثمانية . . .[2].

في خلال تلك الفترة استطاع الاستعمار أن يضرب بأنيابه الدولة العثمانية المتهالكة الأطراف التي أنهكتها الاضطرابات وأثقلت كاهلها الديون وأصبحت ــ كما يقول عباس محمود العقاد ــ فيما ينقل عنه محمد جلال كشك (هي التركة التي يتحدث عن اقتسامها علناً أعداؤها المتربصون بها في القارة الأوروبية بلا اختلاف بين قادر منهم وعاجز وبين مستعمر منهم ومبتدىء في صناعة الاستعمار، كل يطالب بنصيبه من ذلك الملك المباح كان اسم «التركة» أو «الرجل المريض» عنواناً على البلاد العثمانية . . أياً كان ساكنوها من مسلمين أو غير مسلمين ومن ترك أو عرب)[3].

استطاع المستعمر الغربـي أن يمهد الطريق لنفسه بعد أن أحسن في اختيار الأرض الجيدة والبذرة الصالحة استعداداً لمرحلة الاستعمار والغزو العسكري وهي المرحلة الحاسمة التي قضت على دولة المسلمين وخلافتهم الإسلامية.

(١) انظر: تاريخ الإسلام ٢/٢٣٣ ــ ٢٣٤.
(٢) انظر: شبهات في الفكر الإسلامي، أنور الجندي ٤٩.
(٣) حوار في أنقرة ٣٦.

مرحلة الاستعمار والغزو العسكري للعالم الإسلامي:

لقد بلغ الاستخفاف بأعداء الدولة العثمانية الإسلامية أن اتفقوا على رسم خارطة الدولة العثمانية حسب أهوائهم وإطلاق ألسنتهم على الدولة بعدة أسماء لا تليق بعظمة الخلافة الإسلامية، ولعل عبارة «رجل أوروبا المريض» وأمثالها كانت قد صدرت من أعداء الدولة الذين أرادوا اقتسام تركة هذا الرجل المريض قبل وفاته على حد زعمهم، وكان قيصر روسيا نيقولا الأول (١٨٢٥ ـ ١٨٥٥) الذي كان على صداقة حميمة مع رئيس وزراء بريطانيا أبردين هو أول من أطلق عبارة «رجل أوروبا المريض» وأمثالها، وقد اتفق القيصر مع بريطانيا على اقتسام ميراث رجل أوروبا المريض على الأسس الآتية:

أولاً: تحتل روسيا الآستانة، ولكن لا تضمها إليها.

ثانياً: ترابط القوات الروسية في البوسفور، وترابط القوات النمساوية في الدردنيل.

ثالثاً: تستقل ولايتا الدانوب، وهما الأفلاق والبغدان، وكذلك الصرب وبلغاريا ولكن تكون هذه الدول تحت حماية روسيا، أي يكون استقلالها استقلالاً مزيفاً.

رابعاً: تحتل بريطانيا مصر، ولها إذا شاءت أن تستولي على جزيرة كريت[1].

إن مجرد تآمر الأعداء ضد الدولة العثمانية والتفكير في تقسيم ممتلكاتها ليدل دلالة واضحة على الحالة التي وصلت إليها الدولة العثمانية من الضعف لتصبح لقمة سائغة لأعداء الإسلام وهو بلا شك تحدٍّ خطير.

لكن الذي ينبغي أن نوضحه أن الدولة العثمانية لم تقف موقف المتفرج، لقد هَبَّت في فترات عزتها وعظمتها لإنقاذ البلاد العربية وبخاصة من أخطار

---

(١) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ٢/٨٣١.

الأطماع الصليبية التي كانت توشك أن تنقض عليها والتي وصلت جيوشها البرتغالية إلى البصرة بعد أن سيطرت على عُمان ومسقط ومضيق هرمز، بينما هددت الأساطيل الاسبانية شمال أفريقيا العربي المسلم[1].

إن حركة الاستعمار والغزو العسكري بدأت بعد حركة تطويق عالم الإسلام وتمثلت في الشركات التجارية التي أنشأها الأعداء كالهولندية على «أندونيسيا» وبريطانية على «الهند»، ثم لم تلبث الشركتان أن تحولتا إلى استعمار سافر واحتلال عسكري للملايو والهند جميعاً، وفي نفس الوقت بدأت حركة سيطرة واسعة على أفريقيا الشرقية والغربية والجنوبية بين الدول الأوروبية[2].

ولا شك أن الدولتين اللتين قامتا على أنقاض دولة الأندلس الإسلامية كانتا هما المتزعمتان لحركة الاستعمار والغزو في بادىء الأمر، ولما تحوَّل ميزان القوى داخل الدول الأوروبية الأخرى تزعمت مرحلة الاستعمار في أواخر عهد الدولة العثمانية بريطانيا وفرنسا وغيرهما من الدول الأوروبية.

وقد استطاع العثمانيون رد كيد المستعمر الأول على أعقابه وهم البرتغاليون وقدموا أعظم خدمة للإسلام عندما وقفت قواتهم في وجه المستعمر البرتغالي الذي حاول الزحف نحو البحر الأحمر والأماكن المقدسة الإسلامية في أوائل القرن السادس عشر الميلادي، فعلى الرغم من أن الدولة قد أخفقت في طرد الاستعمار البرتغالي من مراكزه في المحيط الهندي ومنطقة الخليج العربي، إلا أنها نجحت في منع تغلغله إلى الحجاز حيث كان البرتغاليون يعتزمون تنفيذ مخطط صليبي مسرف في وحشيته، وهو دخول البحر الأحمر واجتياح إقليم الحجاز باحتلال ميناء جدة، ثم الزحف على مكة المكرمة واقتحام المسجد الحرام وهدم الكعبة المشرفة، ثم موالاة الزحف منها على المدينة المنورة لنبش قبر الرسول صلوات الله وسلامه عليه، ثم استئناف الزحف على تبوك ومنها إلى بيت المقدس والاستيلاء على المسجد الأقصى[3]، وبذلك تقع هذه المساجد الثلاثة في

---

(١) انظر: جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ٩٣.

(٢) انظر: اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار ٢٩.

(٣) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ٢/٨٦٢.

أيدي البرتغاليين، وكان الأسطول البرتغالي قد نجح في دخول البحر الأحمر وقام بمحاولتين لاحتلال ميناء جدة، كانت الأولى في عام ١٥١٧ والثانية في سنة ١٥٢٠، ولكنه أخفق في محاولتيه فأرسل البرتغاليون حملة كبرى إلى ميناء السويس باعتبارها قاعدة الأسطول العثماني في البحر الأحمر واستهدفوا تدمير هذه القاعدة، ولما بلغوا الطور علموا أن الأسطول العثماني يقف في حالة تأهب وارتدوا على أعقابهم دون أن يلتحموا به[١].

وطبيعي أن البرتغاليين لم يسكتوا على هذا الوضع وقاموا بعدة محاولات أخرى إلا أنها باءت بالفشل أمام قوة الدولة الإسلامية، وبقي الوضع على هذا المنوال إلى أن برزت دول أوروبية أخرى سحبت الزعامة من البرتغاليين، وكان الاستعمار في هذه المرحلة أكثر يقظة وأحسن تنظيماً، إذ لم يقدموا على أي مغامرة عسكرية دون معرفة نتائج هذه المغامرة، فقد حرصت الدول الأوروبية على معرفة الأحوال الداخلية للدولة العثمانية من جميع النواحي استعداداً لمعرفة نقاط الضعف في الدولة، وبالتالي السير قدماً على تقسيم تركة «الرجل المريض»، (ومن أجل ذلك أخذت القنصليات والسفارات الأوروبية تهتم بإرسال التقارير إلى حكوماتها مفصلة أوضاع الدولة العثمانية وكان القناصل أكثر ما يهتمون بالنواحي العسكرية، وفي مقدمتهم «ديكسون» القنصل البريطاني في القدس الذي أرسل تقارير عديدة خلال سنوات توليه الوظيفة ففي عام ١٩٠٥ أرسل تقريراً عن التحركات العسكرية التركية إلى ميناء الحديدة، وأرسل «زلانكا» نائب القنصل البريطاني في يافا تقريراً مماثلاً، فذكر فيه استدعاء ١٦٠٠ رجل من نابلس إلى يافا لإرسالهم إلى اليمن عن طريق البحر عبر القنال، ومجموعة أخرى لإرسالها إلى بيروت)[٢].

لقد استطاع أعداء الدولة الإسلامية وفي مقدمتهم بريطانيا جمع كل ما يستطيعونه من معلومات تمهيداً لاستخدامها في الوقت المناسب لإنهاك القوى

(١) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ٢/٨٦٢.

(٢) موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، حسان علي حلاق ٢٨٤.

الإسلامية العثمانية، وكثيراً ما وقع الأوروبيون بين القوة الإسلامية واجتروا مرارة الهزيمة مرات عديدة ولكن الغرب الذي لم ييْئس استطاع أن يصل إلى مأربه بعد أن وجد أمامه قوة مفككة متهالكة.

ولعل أول غزو عسكري مسيحي أوروبي لولاية عربية من ولايات الدولة العثمانية في الشرق الإسلامي في التاريخ الحديث هي الحملة الفرنسية على أرض مصر سنة ١٧٩٨ بقيادة نابليون بونابرت[١]، وفي سنة ١٨٠٣ نجح عميل فرنسي في أن يصل إلى الحكم في مصر، ويعلن أكبر محاولة للانفصال عن الدولة العثمانية، وكان هذا العميل الفرنسي «محمد علي باشا» الذي رفع راية القومية باعتبارها السلاح البراق الذي يمكن به ضرب الوحدة الإسلامية والشعور بالمصير الإسلامي الواحد، وامتداداً للخروج الشاذ الذي أعلنه «محمد علي» ظهرت محاولات أخرى للخروج قام بها «بشير الشهابي» في لبنان، وحركات في المغرب العربي، بل وحركات داخل تركيا نفسها ترفع القومية الطورانية.

هذا فضلاً عن حركات الخروج التي سبقت حركة «محمد علي» تحت تأثير ودوافع انفصالية مختلفة، كحركة علي بك الكبير سنة ١٧٧٣م في مصر، وحركة الشيخ ظاهر العمر سنة ١٧٧٥م في فلسطين، وفخرالدين المعني في لبنان قبل سنة ١٦٣٥م.

وهكذا.. كانت الدولة العثمانية تعاني من الداخل أشد المعاناة، وتواجه من الخارج بتحديات صليبية غربية.. ففقدت على الطريق ـ بالتالي ـ أملاكها في أوروبا، هنغاريا، وبلغراد، وألبانيا، واليونان، ورومانيا، وصربية، وبلغاريا[٢]. ثم أخذ الاستعمار يوسع رقعته مستغلاً قوته المنظمة وبأسلحته الغربية المجهزة التي تملك التكتيك والعلم اللذين تقوم عليها الحرب الحديثة[٣]،

(١) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ٩٣٨.

(٢) دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية ١٨٧ ـ ١٨٩.

(٣) تاريخ الإسلام ٢/٢٣٣.

فأخذ المستعمر الفرنسي يوسع رقعة مستعمراته على حساب الدولة، فاحتل الجزائر سنة ١٨٣٠، ودخلت في حروب مع الأمير عبدالقادر الجزائري إلى عام ١٨٣٥ ثم كان احتلال بريطانيا لكابل سنة ١٨٣٩.

وفي منتصف القرن التاسع عشر كانت بريطانيا قد سيطرت على الهند وهولندا على الملايو ثم كان احتلال بريطانيا لمصر والسودان وفرنسا لتونس وإيطاليا لليبيا في أوائل هذا القرن، ثم احتلال فرنسا للمغرب قبل الحرب العالمية الأولى، وكان قد بدأ وصول أول مندوب لشركة الهند الشرقية الإنجليزية إلى الهند عام ١٦٢٠م، ثم انتهى نفوذ البرتغاليين في الهند وبدأ نفوذ البريطانيين.

وأخذت روسيا والنمسا أول الأمر بسياسة التوسع الأقليمي على حساب ممتلكات الدولة العثمانية في وسط أوروبا وفي حوض الدانوب وعلى حدوده، وعلى سواحل البحر الأسود وشبه جزيرة البلقان وتغلغلت روسيا في القرم وأرمينيا، وابتلعت معظم آسيا الوسطى والقوقاز، وأصبحت هاتان الدولتان في حالة حرب لم تكد تنقطع مع الدولة العثمانية حتى استنفذتا قوة الدولة وجيوشها[١]، وسيرد ذكر لهذه الحروب بالتفصيل في الفصول القادمة إن شاء الله.

وقد سارت تلك الدول في اتباع سياسة عدوانية تجاه الدولة استهدفت تمزيقها وتوزيع ممتلكاتها أسلاباً فيما بينها، وفيما بين عامي ١٨٩٠ و١٨٨٢ اقتطع جزءاً آخر له أهميته الكبرى وعزل الدولة العثمانية أقام عليه مرتكزاً خطيراً لتنفيذ المخطط الاستعماري اليهودي كاملاً، ذلك الجزء هو (لبنان)، بعد أن أقام وصاية على المسيحيين فيه على ما سيرد ذكره في الأسطر القادمة[٢].

ولا شك أن وقوع معظم الولايات الإسلامية تحت براثن الاستعمار كان

(١) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ٢/٨٣٣.
(٢) تاريخ الإسلام ٢/٦١٤.

من ورائها أسباب كثيرة، ولعل الخطر الأعظم الذي فتك بإسلام المسلمين وشتت شملهم وفرق كلمتهم وجزأ دولتهم وقوّض بنيانهم وجعلهم قصعة تتداعى الأمم لأكلها، وأضعف من رابطتهم المعنوية.. إنما هو بروز النزعات القومية ضمن الأمة الإسلامية الواحدة، فأخذ كل شعب يدعي أنه أمة ذات وحدة مستقلة، فالقومية (الطورانية) من طرف، والقومية (العربية) من طرف آخر، والقومية (الكردية) من طرف ثالث، وغير ذلك من القوميات التي مزقت جسم الإنسانية الواحدة، والتي ترعرعت في أحضان الاستعمار ونفذت بأفكاره وتمولت بماله وتسلحت بسلاحه[١].

ولما استلم السلطان عبدالحميد الثاني وارتقى العرش سنة ١٨٧٦ في آن شديد عصيب، فقد كانت الدولة على أبواب الحرب العثمانية الروسية، وكانت الحكومة في أيدي عصبة من الساسة يسعون سعي المصلحين في تجديدها على الطراز الحديث، والنهج بها على المناهج السياسية الدستورية الغربية[٢]، فلما أخذ عبدالحميد بأزمة الأمور نقض جميع ذلك نقضاً ثم أوضح سياسته بقوله (إن بلادنا كانت وستبقى قلعة للإيمان وحصناً حصيناً لهذا الدين، فإذا زال المفهوم الديني عن الامبراطورية العثمانية، فقد دالت دولتنا، وأنه لمن دواعي الأسف وقوع بعض الشعوب المسلمة تحت نير استعمار الدول الكبرى، ولم يبق داخل الامبراطورية سوى عشرين مليوناً من المسلمين، ومع هذا فقلوب المسلمين جميعاً مرتبطة باستانبول، وقد نجح أعداؤنا في التغلب على قوانا المادية لكن قوانا المعنوية ستبقى صامدة)[٣].

لكن الأمور قد تفاقمت والدولة قد استنفذت قواها وواجهت الدولة ثورات عنيفة قامت بها الشعوب المسيحية الخاضعة لها، ودأبت روسيا والنمسا

(١) مؤامرة فصل الدين عن الدولة، محمد كاظم حبيب ٧٦.
(٢) انظر: حاضر العالم الإسلامي، المجلد الأول، لوثروب ستودارد الأميركي، تعليق شكيب أرسلان ٣٠٩.
(٣) السلطان عبدالحميد، مذكراتي السياسية ١٧٤.

على تحريك هذه الشعوب ثورياً بدافع الشعور القومي حيناً وبمقولة أنه يجب ألا تخضع هذه الشعوب لسلطان مسلم جاهل متبربر حيناً ثانياً، وادعت روسيا لنفسها حق حماية الرعايا الأرثوذكس في الدولة العثمانية، ورأت فرنسا ضرورة حماية اللاتين ورجال الدين الكاثوليكي في الدولة، ولم يكن أحد من هذين الطرفين مستعداً لقبول المساومة أو التحكيم، ثم بسطت فرنسا حمايتها على الموارنة في لبنان، وبسطت بريطانيا حمايتها على الدروز في الجبل، وهكذا تسابقت أوروبا المسيحية المتحضرة على التهام ولايات دولة إسلامية وعلى إنشاء مناطق نفوذ لها في ولايات أخرى، وفرض معاهدات غير متكافئة على الدولة ونهب ثرواتها[1].

وهناك ثورات قام بها العرب إما بدافع من البحث عن مصلحتهم، وإما أن يكون المستعمر قد دفعهم، وإما أن يكونوا مأجورين لصالح المستعمر بحجة استبداد الدولة وظلمها متناسين أن دخول العثمانيين للبلاد العربية إنما كان استجابة لصرخات واإسلاماه التي انطلقت من أفواه الملايين من مسلمي البلاد العربية في المشرق والمغرب، فتقدموا بجيوشهم لطرد البرتغاليين والإسبان منها، وانبرى الحاقدون ليزعموا أن ذلك كان استعماراً عثمانياً، وسيطرة تركية. ![2].

لم يكن الحكم التركي الإسلامي بالسيء الذي توجه له الاتهامات ويطعن في سلاطينه جملة، بل هي دولة إسلامية رفعت راية الجهاد مرات، وتعتبر هذه الدولة آخر وأقوى دولة شرقية صدت غزو أوروبا، بل ونقلت المعركة إلى أرض أوروبا لأكثر من ثلاثة قرون عاشتها أوروبا في رعب دائم من الخطر «التركي»، ولم تبخل مصادرها الدعائية والتعبوية في كل الاتهامات للأتراك لإثارة روح المقاومة في أوروبا التي كانت تجثوا عاجزة تحت قدم الجيش التركي...[3]،

(١) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ٢/٨٣٣ ـ ٨٣٤.

(٢) انظر: جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ١١١.

(٣) انظر: حوار في أنقرة ٢٠.

لكن الأحداث المتعاقبة قد أثقلت على الدولة وأصبحت عاجزة عن مقاومتها فقد تقطعت أوصالها واستقلت أطرافها.

ولما وليّ عبدالحميد عرش الخلافة العثمانية كانت الظروف في خطورة بالغة لا سيما مؤامرات الدول الأوروبية التي كانت قد انتهت يومئذ من وضع عشرات المشاريع لتحطيم الدولة العثمانية والقضاء عليها وتوزيع أملاكها[1].

وقد شرح السلطان عبدالحميد أوضاع المسلمين وبيّن أحوالهم في مذاكراته كما أوضح أعداد من يرزحون تحت الاستعمار الصليبي الحاقد بقوله: (هناك ٨٥ مليوناً من المسلمين يحكمهم الإنكليز، و٣٠ مليوناً يحكمهم الهولنديون، و١٠ ملايين يحكمهم الروس، ومسلمون في مناطق أخرى من آسيا وأفريقيا، حيث يبلغ المجموع العام ٢٥٠ مليوناً يرجون من الله النصر ويوجهون أنظارهم وآمالهم صوب خليفة المسلمين، فهل يجوز لنا في هذه الحال أن نبقى ضعافاً أمام الدول الكبرى؟)[2].

لا شك أن هناك فترة ضعف في تاريخ العالم الإسلامي ولكنها فترة تزول من حين لآخر متى توحد المسلمون ورغم هذا الضعف الذي كان يعتري جسم الدولة العثمانية والتي تعد الدول الأوروبية الكبرى المسؤولة عن جانب كبير من ذلك الضعف الذي ألمّ بالدولة[3].

لم يكن العالم الإسلامي مطلقاً في فترة انحطاط فكري كما وصفه كثير من الباحثين فقد برز فيها عدد من الموسوعيين الأعلام الذين جمعوا الفكر الإسلامي في موسوعات متعددة فحفظوه بها وحموه من التشتت والضياع، ومهما وجه إلى هذه الموسوعات من نقد لضعف التبويب أو نقص التحليل فإنها عمل ضخم لا يمكن أن يوصف عصره بأنه عصر انحطاط، لقد كانت كلمة الانحطاط من

(١) انظر: جمال الدين الأفغاني المصلح المفترى عليه، د. محسن عبدالحميد ١٣٤.

(٢) السلطان عبدالحميد الثاني، مذكراتي السياسية ١٧٥.

(٣) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ٢/٨٣٣.

كلمات الحقد الغربي والتعصب الموجه إلى الدولة العثمانية التي أرّقت أوروبا أربعمئة عام وحطمت مؤامراتها على العالم الإسلامي وحالت دون استئناف الحملات الصليبية مرة أخرى[1].

ويكفي الأتراك العثمانيين فخراً أنهم روّاد الوحدة العربية الحقيقية حتى وحّدوا البلاد العربية كلها تحت راية الإسلام، فلما أن غابت تلك الراية التي تشرف العثمانيون برفعها، انفرط عقد الوحدة العربية الحقيقية، وتمزقت الراية الواحدة لتصبح بضعاً وعشرين راية...[2].

لقد كانت وحدة ذات طبيعة خاصة والتي قامت بين الولايات العربية إبان الحكم العثماني، تبدو أكثر إشراقاً إذا قورنت بالتفتيت السياسي الذي اصطنعته الدول الأوروبية الاستعمارية عقب استحواذها على معظم هذه الولايات تحت اسم الاحتلال أو الانتداب من قبل عصبة الأمم، أو مناطق النفوذ، وذلك بعد سقوط الدولة العثمانية عقب الحرب العالمية الأولى[3]، تلك الحرب التي دخلها العثمانيون دون أن يكون لهم فيها ناقة ولا جمل في صف الألمان وذلك بتدبير من جمعية الاتحاد والترقي التي تسلمت السلطة بعد السلطان عبدالحميد الثاني[4]، ثم أعقب ذلك أحداث جسام على البلاد الإسلامية كافة لا زلنا نشرب مرارتها إلى يومنا هذا وإن تخلصنا من الاستعمار عن أرضنا.

وكان السلطان عبدالحميد قد تنبه لكل الأحداث وحاول إفهام شعبه، لكن هل من مجيب؟؟، يقول الأستاذ سعيد الأفغاني (يرحم الله عبدالحميد، لم يكن له في مستواه وزراء ولا أعوان ولا شعب، لقد سبق زمنه، وكان في كفايته ودرايته وسياسته وبعد نظره بحيث استطاع وحده بدهائه وتصرفه مع الدول تأجيل

(١) انظر: شبهات في الفكر الإسلامي ٤٩.
(٢) انظر: جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ٩٤.
(٣) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ٢/٩٤٨.
(٤) انظر: تاريخ الإسلام ٢/٤٦٩.

انقراض الدولة ثلث قرن من الزمان، ولو وجد الأعوان الأكفياء والأمة التي تفهم عنه لترك للدولة بناء من الطراز الأول)[1].

تلك هي حال البلاد الإسلامية بعامة والبلاد العربية بخاصة، وقد أسهبت بعض الشيء عن البلاد العربية لأن معظم أملاك الدولة العثمانية ـ كما ذكرت سالفاً ـ كانت في البلاد العربية، إضافة إلى أهمية البلاد العربية من كافة النواحي، كما أن أملاك الدولة العثمانية في غير البلاد العربية كانت تتركز في القسم الأوروبي، وأول ما فقدته الدولة من أملاك كان في هذا القسم لقربها من الأوروبيين الذين تربصوا الفرص واغتنموها، ثم اغتنموا الفرص فكان لهم ما أرادوا في البلاد العربية، ويرى الدكتور إحسان حقي محقق كتاب تاريخ الدولة العلية العثمانية أنه (بعد جهاد وجلاد شاقين في الداخل والخارج، استمر ستة قرون متوالية كانت خاتمة المطاف الحرب العالمية الأولى التي دامت أربع سنوات ونيف، امتدت من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩١٨، وثبت فيها العثمانيون أمام أعدائهم، ثبوت الجبال ودافعوا عن دينهم ووطنهم وكرامتهم دفاع الأبطال، انتهت تلك الحرب بمأساة مفجعة إذ استيقظ المسلمون كلهم على كابوس مزعج انطوى على أعظم فاجعة نزلت بهم، منذ ظهور الإسلام وإلى تلك الساعة، فقصمت ظهورهم وكبلتهم بحبلي الخيبة والخسران إذ رأوا بنيان دولة الخلافة ينهار كما تنهار البيوت الواهنة، لا بل وقد أصبحت هذه الدولة ذات العز الرفيع والشأن الرفيع الشامخ، التي كانت ملء عين الزمان وسمعه، أثراً بعد عين وكأنها لم تغن بالأمس وأصبحت أرضها موطناً لأعدائها وموطئاً لأقدامهم)[2].

* * *

(١) مجلة العربي العدد ١٦٩ سنة ١٩٧٢ مقالة للأستاذ سعيد الأفغاني عن سبب خلع السلطان.. ص ١٥٧.
(٢) تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد بك المحامي ٧٢١.

المبحث الثاني

أبرز الأحداث في عهده

لقد كثرت الأحداث في عهد السلطان عبدالحميد بشكل يلفت النظر، ولو تتبعنا هذه الأحداث لصعب علينا إعطاؤها الصورة الحقيقية والكاملة، والجوانب المختلفة لها، لذا فقد رأيت ـ وبعون الله ـ أن أقوم بتقسيم الأحداث الرئيسية حسب تتبعي لها بإعطاء كل حدث حقه من الشمول كما هو في رأيي الخاص، وقد رأى أنور الجندي في كتابه «تاريخ الإسلام»، أن هذه الأحداث إنما برزت أساساً من أخطار أحاطت بالدولة العثمانية تمثّلت في الآتي:

١ ـ اليهود الدونمة في سالونيك ومحافلهم الماسونية.
٢ ـ الإرساليات التبشيرية في فروعها المختلفة وما تحتويه من الشباب المسلمين والعرب.
٣ ـ جمعية الاتحاد والترقي واحتواء المحافل الماسونية لها.
٤ ـ الأقليات الأجنبية وتعاونها الداخلي والخارجي[١].

تلك العناصر الأربعة اعتبرت بحق خطراً على الدولة ولا سيما في فترة ضعف الدولة، وسأبرز هذه الأخطار وما أحدثته من تغيير جذري في سياسة الدولة الداخلية والخارجية مبتدئاً بـ :

---

(١) انظر: تاريخ الإسلام ٤٤١/٢.

أولاً: اليهود

ليس المقام مقام بحث عن اليهود وكيف نشؤوا وأين استقروا، إنما نريد أن نجيب عن سؤال: ماذا عملوا في ظل الدولة العثمانية الإسلامية من أعمال تنطوي على الحقد الدفين، وكانوا سبباً في تقويض أساس الدولة وانهيارها؟

لقد عاش اليهود متفرقين طوال قرون عديدة مصابين بمشكلة نفسية عصبية قائمة على اعتبار أنفسهم شعب الله المختار، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنهم جبلّة خاصة تمتاز على سائر أمم الأرض، وأن سائر أمم الأرض بالنسبة إليهم بمنزلة البهائم التي ينبغي أن تكون مسخَّرة لهم، لذلك فلا حرج عندهم أن يسلبوا الأمميين[1] أموالهم بأية وسيلة غير مشروعة، ولا حرج عندهم أن يفتكوا بالشعوب ويفسدوا أخلاقها وأوضاعها الاجتماعية، فدماء الأمم مهدرة في نظرهم، وهم يحقدون على سائر الأمم والشعوب، لأنها لا تعترف لهم بهذا الحق الذي يرونه لأنفسهم من دون الناس زوراً وبهتاناً وظلماً وعدواناً، ولأنها لا تمنحهم مقام السيادة المطلقة مع أن الله قد ضرب عليهم الذلّة والمسكنة بذنوبهم الكثيرة وجرائمهم الخطيرة[2].

وكانوا يتحينون الفرص للانقضاض على شعوب الأرض وكان الوطن القومي الذي أرادوه حلماً من أحلام اليهود ولطالما تحدثوا عنه وعن ملكهم الذي سلب، واتفقت معظم آرائهم على أن يكون هذا الوطن في فلسطين، فلماذا؟

إن هدف الصهيونية العالمية أن تضع يدها على أدق نقطة وأخطر موقع في عالم الإسلام كله بحيث تستطيع أن ترث الامبراطوريات الرأسمالية، وأن تكون قادرة بالسيطرة الاستراتيجية والجغرافية على ملتقى القارات الثلاث، وأن يتاح لها السيطرة على مقاليد الأمور فيها وعلى مقدرات هذه المنطقة الغنية بالبترول والمنجنيز والفوسفات وكل أدوات الصناعة حتى يمكن لليهودية التلمودية أن

---

(١) الأمميين: أي غير اليهود من جميع أمم الأرض، انظر: مكائد يهودية عبر التاريخ ١٠.
(٢) انظر: مكايد يهودية عبر التاريخ، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني ١٠ ـ ١١.

تضمن امتلاك مصادر الثروة العالمية جميعاً وأن تقيم امبراطورية الربا والرقيق الأبيض العالمية التي تحتوي كل مواريث الأمم وعقائدها ومعطياتها[1].

ونتيجة للاضطهاد الذي لاقاه اليهود في مختلف أنحاء العالم نتيجة لمواقفهم السلبية من حكومات تلك الأمم فقد تعرضوا لموجة من التضييق والذبح في بعض الأحيان فقد ربط بعض الباحثين معظم الثورات الكبرى في العالم باليهود، فأنَّى عاش اليهود وجدت الإثارة فالثورة، حصل ذلك في الشرق والغرب على السواء، ورأيناه أحياناً يتم باسم الرأسمالية لتضرب الحركات الشيوعية، وباسم الشيوعية لتضرب الاتجاهات الرأسمالية، فهدف اليهود الثورة والتدمير على كل حال، تدمير هذا الاتجاه وذاك الاتجاه[2].

ونتيجة لهذه المواقف فقد لاقوا جزاء أعمالهم الخبيثة، ومن تلك الإجراءات الصارمة ضد اليهود ما حدث ليهود روسيا إذ تعرضوا لموجة من الذبح وغيرها من صور الاضطهادات على أثر اتهامهم بالاشتراك في تدبير مؤامرة اغتيال اسكندر الثاني قيصر روسيا، سنة ١٨٨١، وآثرت أعداد كبيرة منهم الهجرة إلى فلسطين، ويلاحظ أن يهود روسيا كانوا أكثر يهود العالم ميلاً إلى الهجرة إلى فلسطين بالذات وتفضيلها على أي إقليم آخر يستقرون فيه[3]، وقد رفضت الدولة العثمانية طلب يهود روسيا الهجرة إلى فلسطين، وكان هناك يهود قد أتوا للعيش في فلسطين قبل ظهور الفكرة الصهيونية أحد فريقين: متعبدين رغبوا العيش والموت في الأرض المقدسة وأفراداً لاجئين من الاضطهاد الأجنبي وجدوا تسامحاً في ظل الحكم الإسلامي، ولم يكن هؤلاء من نسل العبرانيين القدماء، بل من سلالة الهنود الأوروبيين، الذين اعتنقوا الديانة اليهودية في وقت متأخر مثل يهود بحر الخزر[4].

---

(١) انظر: المخططات التلمودية اليهودية الصهيونية، أنور الجندي ٩٢.
(٢) انظر: اليهودية، د. أحمد شلبي ٣١٩/١.
(٣) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ٩٧٤/٢.
(٤) انظر: العرب والترك، عبدالكريم رافق ٥٤٨.

ولما تولى السلطان عبدالحميد السلطنة قام بدور مؤثر في وقف الهجرة اليهودية إلى الأراضي المقدسة، أتبعها بسلسلة من الفرمانات[1] السلطانية طلب فيها من موظّفي الإدارة العثمانية أن يطبقوها بحذافيرها، في الوقت الذي كان فيه زعماء المنظمة الصهيونية يطلبون في مفاوضاتهم مع السلطان الحصول على وثيقة رسمية تعلن قبول القادمين اليهود دون قيد أو شرط على أن يعلن ذلك السلطان نفسه[2]، ومعلوم أن السلطان عبدالحميد قد رفض كل الإغراءات المادية ونحوها التي قدمها اليهود في سبيل الحصول على إذن بهجرة اليهود إلى فلسطين، وقد علل السلطان عبدالحميد رفضه في هجرة اليهود إلى فلسطين بقوله: (لن يكتفي الصهاينة بممارسة الأعمال الزراعية في فلسطين، بل يريدون أموراً أخرى مثل تشكيل حكومة وانتخاب ممثلين، إنني أدرك أطماعهم جيداً، لكن اليهود سطحيون في ظنهم أنني سأقبل بمحاولاتهم، وكما أنني أقدر في رعايانا من اليهود خدماتهم لدى الباب[3] العالي، فإني أعادي أمانيهم وأطماعهم في فلسطين)[4].

ولا شك أن هناك اعتبارات كثيرة لهجرة اليهود إلى فلسطين غير الاعتبارات الدينية والتاريخية يطول الحديث عنها، والذي ينبغي أن نفهمه أن الدولة العثمانية كما ذكرت آنفاً وقفت ضد هذه الهجرات بكل ما أوتيت من قوة، واتخذت حيال ذلك عدة إجراءات، في أواخر القرن التاسع عشر، للحد من استيطان اليهود في فلسطين كتحديد مدة الإقامة ودفع غرامة على المخالفين،

---

(١) الفرمانات السلطانية: هي المراسيم التي يعدها الصدر الأعظم بعد عرضها على ديوان الخلافة (الهمايوني) ثم يعرضها على السلطان فإذا وافق عليها وضع الصدر الأعظم عليها خاتم السلطان، والفرمانات السلطانية منها ما هو خاص بولاية معينة، ومنها ما يطبق في جميع ولايات الدولة (الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ٢/٩٦٨).

(٢) انظر: موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، حسان علي حلاق ٢٧٧.

(٣) الباب العالي: (دار الحكومة) انظر: أسرار الانقلاب العثماني ١٢.

(٤) السلطان عبدالحميد الثاني، مذكراتي السياسية ٣٥.

والاحتجاج على محاولات السفارات الأجنبية وبخاصة البريطانية، حماية اليهود بموجب نظام الامتيازات ولكنها لم تتجاوز ذلك إلى إجراءات حاسمة في الموضوع، ربما خوفاً من الدخول في منازعات مع الدول الأوروبية، وكانت هذه الدول الرأسمالية، وبخاصة منها بريطانيا الاستعمارية تجد في فكرة الوطن القومي اليهودي سنداً لاستراتيجيتها[1] كما أبرق الباب العالي إلى حاكم القدس عام ١٨٨٢م يأمره بألا يسمح لأي يهودي قادم من روسيا أو رومانيا أو بلغاريا بأن يهبط أرض فلسطين، كما اتخذت إجراءات المنع ذاتها في حيفا وبيروت واللاذقية وغيرها من موانىء الساحل الشامي، وبعد حوالي ستة أشهر أرسل الباب العالي مذكرة رسمية في الحادي والعشرين من شهر يناير ـ كانون ثان ـ عام ١٨٨٣م إلى رؤساء البعثات الدبلوماسية في استانبول بنص قرار مجلس الوزراء العثماني بمنع استيطان اليهود الروس في فلسطين.

وأمام ضغط الدول الأوروبية أصدر الباب العالي سنة ١٨٨٤م تعليمات جديدة بالإذن لليهود في دخول فلسطين من أجل زيارة الأماكن المقدسة بشرط ألا تطول إقامتهم ثلاثين يوماً.

لكن هل رضي اليهود ورضخوا لهذه الشروط؟ الجواب: لا، حيث مارست بعض العواصم الأوروبية المتعاطفة مع اليهود ضغطاً على الباب العالي للتخفيف من هذه الشروط، فرأى الباب العالي في سنة ١٨٨٧م إطالة المدة المسموح بها للحجاج اليهود إلى ثلاثة شهور بدلاً من شهر واحد[2].

ويمكن أن نفهم من إطالة المدة ومن الشروط التي وضعتها الدولة العثمانية حيال اليهود أنها لا زالت مصرة على عدم هجرة اليهود بشكل كبير، وعلى عدم إقامتهم واتخاذ فلسطين وطناً لهم، ورغم هذه الإجراءات المشددة التي اتخذتها الدولة تجاه هذه الهجرات كانت مجموعات كثيرة من اليهود تدخل فلسطين بأساليب غير مشروعة: إما عن طريق رشوة للسلطات المحلية العثمانية وإما هرباً

---

(١) انظر: العرب والعثمانيون ٥٥٠.

(٢) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ٢/٩٧٣.

عن طريق الحدود المتاخمة لفلسطين مثل ولايتي بيروت الجنوبية وسوريا التابعتين للدولة العثمانية في تلك الفترة[1].

ولا شك أن إصرار اليهود على فلسطين ليدل دلالة واضحة على تمسكهم بما ورد في كتبهم القديمة من أحقيتهم بفلسطين، وكذلك أن من الواجبات الدينية عند اليهود التي كانت تشغل قدراً كبيراً من وقتهم ونشاطهم زيارة بيت المقدس، إذ كان يتحتم على كل يهودي ذَكَرٍ رشيد أن يزور بيت المقدس مرتين في العام، وأن يبقى به أسبوعاً كل مرة، ويبدأ الأسبوع يوم الجمعة وتقام خلاله احتفالات يحضرها الوافدون ويقودها الكهنة واللاويون، وقد قُصِد بهذه الزيارة أن تتيح فرصة لليهود أياً كانت مناطقهم أن يتعارفوا ويتّحدوا[2].

ولكن رأي عبدالحميد الثاني يختلف تماماً عن رأي اليهود الذين يصرّون على فلسطين لهجرتهم، وهو يُصِرُّ على عدم هذه الهجرة، فقد رأى بثاقب نظره أن هذه الهجرات ليست في صالح الدولة، فهو يقول: (لكي نعمل على إسكان الأراضي الخالية من امبراطوريتنا يتوجب تنظيم الهجرة بشكل مناسب، لكننا لا يمكننا القول بأن الهجرة اليهودية بشكل مناسب لقد مضى عهد دخول أتباع الأديان الأجنبية إلى مجتمعنا كما تدخل الشوكة في أجسادنا، ليس لنا أن نقبل في أراضينا إلا من كان من أمتنا وإلا من شاركنا في معتقدنا)[3].

سيناء قبل فلسطين:

اتجهت أنظار اليهود في بادىء الأمر نحو الاستيطان في سيناء على أساس أنه يضم الوادي المقدس طوى الذي كلم الله سبحانه وتعالى فيه موسى عليه السلام، تكليماً، إلا أن السلطان سليم الأول أصدر فرماناً بمنع هجرة اليهود إلى سيناء، ولما احتلت بريطانيا مصر سنة ١٨٨٢م وتحولت السيادة العثمانية إلى

(١) انظر: موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ٢٨١.

(٢) انظر: اليهودية، الدكتور أحمد شلبي ١/٣٠١.

(٣) السلطان عبدالحميد الثاني، مذكراتي السياسية ٢٩.

سيادة اسمية واهية إلى أبعد الحدود عاود اليهود أطماعهم في سيناء بعد أن رفض السلطان عبدالحميد فتح أبواب الهجرة أمامهم إلى فلسطين.

وكان ثيودور هرتزل قد أطلق على سيناء اسماً معبِّراً هو فلسطين المصرية بمعناها المتعارف عليه، ورأى هرتزل أن يبدأ أنصاره الصهيونيون باستيطان منطقة العريش أي في شمال سيناء بدلاً من جنوبها على عكس ما فعل اليهود عام ١٥٨١ عندما حاولوا استيطان منطقة الطور ودير سانت كاترين، إلا أن مشروع الاستيطان اصطدم بعدة عقبات، إذ امتنع اللورد كرومر تحويل مياه نهر النيل إلى سيناء، إضافة إلى متاعب الانجليز في حكم مصر، يضاف إلى ذلك أن الرأي العام في مصر كان يعارض المشروع معارضة شديدة، كما اعترض السلطان عبدالحميد الثاني على هذا المشروع وأثار الباب العالي آراء فقهية تقول: إن الفرمانات الصادرة من السلطان إلى ولاة مصر من أسرة محمد علي لا تخوّل لهم الحق في توطين جماعات من السكان الأغراب عن البلاد ومنحهم الحكم الذاتي في المنطقة التي ينزحون إليها ويقيمون فيها[1].

أخذ اليهود يفكرون في كيفية الوصول إلى ما يسمونه أرض الميعاد ويقيمون وطناً لهم يحميهم من التشرد واضطهاد الأمم لهم، فعقد مؤتمر الصهيونية العالمية عام ١٨٩٧م في مدينة (بازل) بسويسرا، واشترك فيه ٢٠٤ من الأعضاء، وبعد مناوشات طويلة توصلوا إلى قرار حول تأمين وطن ليهود العالم، وتقرر في البداية أن يكون هذا الوطن في الأرجنتين أو أوغندة، إلا أن أحد كبار أعضاء المؤتمر وهو (ثيودور هرتزل) أصرّ على أن يكون هذا الوطن في فلسطين، وعرض فكرته على التصويت فكانت الأكثرية لصالحه[2]، فكان بعمله هذا رائداً للصهيونية الحديثة، ونشط هو وكل من اقتنع بفكرته وأطلق اليهود على حركتهم الحركة الصهيونية نسبة إلى جبل صهيون وهو جبل يقع على المشارف الجنوبية لمدينة القدس القديمة تأكيداً لإصرارهم على إنشاء الدولة اليهودية في فلسطين[3].

(١) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ٢/٩٦٦ ـ ٩٧٠ ـ ٩٧٢.

(٢) انظر: أسرار الانقلاب العثماني، مصطفى طوران ٩.

(٣) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ٢/٩٧٣.

فمن هو ثيودور هرتزل؟

هو ثيودور هرتزل الصحفي اليهودي النمسوي، رائد الحركة الصهيونية الحديثة ولد سنة ١٨٦٠م ومات سنة ١٩٠٤م، كان يهودياً عادياً إلى أن حضر محاكمة ضابط يهودي فرنسي (دريفوس) كان متهماً بخيانة الجيش الفرنسي وتسليم أسرار فرنسا إلى الألمان، وبعد إدانته من قبل المحكمة أعيدت محاكمته ثانية وثالثة، من أجل تبرأته، فخرج هرتزل من قاعة المحكمة بضرورة تخليص اليهود من الظلم والاضطهاد فشرع ينادي بضرورة جمع اليهود في مكان ما، ليكون لهم دولة ترعى شؤونهم، وأفرغ هرتزل فكرته في كتاب أصدره باللغة الألمانية أسماه (الدولة اليهودية) سنة ١٨٩٥ واستقبل اليهود مشروع هرتزل بحماسة شديدة وعدّوه فاتحة عهد جديد. . .[١].

ثم بدأ الخطوة التالية سنة ١٨٩٧م بمؤتمر بازل[٢] الذي عقده اليهود بدعوة من هرتزل أعقبه عدة مؤتمرات، تتلخص مقرراته في إيجاد وطن قومي لليهود فوجدت الدعم من جميع الأنحاء فجعل صاحب الفكرة يصرح (إذا ما أردت تلخيص معنى مؤتمر بال وهو ما لن أفعله علناً فإنني أقول: في بال أقيمت الدولة اليهودية وإذا ما قلت هذا القول اليوم بصوت مسموع فسأقابل بالسخرية في العالم، ولكن من المحتمل بعد خمسة أعوام، وبالتأكيد بعد خمسين عاماً سيرى الدولة كل إنسان)[٣].

ومن أجل تحقيق هذه الفكرة والتحول بها من الجانب النظري إلى الواقع العملي أخذ هرتزل يعمل في ميادين ثلاثة في وقت واحداً معاً:

* **الميدان الأول**: ميدان اليهود أنفسهم.
* **الميدان الثاني**: ميدان الدول الكبرى وبخاصة الاستعمارية منها.

---

(١) انظر: جذور البلاء، عبدالله التل ١٤٩.
(٢) نفس المصدر ١٤٩.
(٣) المخططات التلمودية اليهودية الصهيونية ٩٨.

* **الميدان الثالث**: ميدان السلطان عبدالحميد الذي تقع فلسطين تحت سيطرته وتعتبر من ممتلكاته[١].

لقد نجح هرتزل في الميدانيـن الأول والثاني بعد أن استقر رأيه ورفاقه في جعل فلسطين وطن قومي لليهود، متّكلين على عون دول أوروبا المسيحية الماسونية وعلى رأسها بريطانيا[٢].

لكن هل نجح هرتزل في الميدان الثالث مع السلطان عبدالحميد؟، قبل الإجابة عن هذا السؤال ينبغي أن نوضح أن هرتزل قد نجح نجاحاً باهراً في الميدانين الأول والثاني كما أسلفت، وقبـل أن يدخـل في ميـدان السلطان عبدالحميد اتخذ لذلك العمل خطة لدى السلطان تتلخص في التالي:

أولاً: الاستعانة بالمسؤولين الأتراك ومن في حكمهم للتمهيد للأمر عند السلطان وكانت سبيله إلى هؤلاء هي الرشوة.

ثانياً: الاستعانة بأصدقائه من الأجانب الذين يعملون لدى السلطان أو لهم علاقة شخصية بالسلطان ويستطيعون التأثير فيه، وكان ممن قابلهم من الأتراك الصدر الأعظم وابنه جاويد بك، ووزير الحربية وابنه، وبعض السفراء الأتراك في كل من النمسا وألمانيا، وكان الأمر المطروح هو اتخاذ فلسطين وطناً قومياً لليهود[٣].

واستطاعت حاشية السلطان وكل من تواطأ معهم هرتزل بتمهيد الطريق لمقابلة السلطان، وفعلاً تمت المقابلة الأولى مع السلطان في مايو ١٨٩٦م، وقدَّم هرتزل مقترحاته المغرية للسلطان، وذلك مقابل منح اليهود حق استيـطان فلسطين، وإقطاعهم جزءاً من أرضها المهملة، لكنه أخفق في إقناع السلطان وعجز عن الحصول على أي وعد يسهل له مهمته الخادعة، على الرغم من

---

(١) انظر: مجلة العربي العدد ٢٢٣ يونيو ١٩٧٧م.
(٢) انظر: جذور البلاء ١٥١.
(٣) انظر: مجلة العربي، العدد ٢٢٣، يونيو ١٩٧٧م.

المغريات الكبيرة والوساطات العديدة والأموال الكثيرة التي بذلها لحاشية السلطان، واعترف هرتزل أنه قدم الرشوة للوزراء وعجزت جميع دسائسه ومحاولاته عن زحزحة السلطان عبدالحميد[1].

لم ييْأس هرتزل ولا كبار اليهود، بل ساروا قدماً في تنفيذ مخططهم للحصول على وطن قومي لليهود في فلسطين، فبتاريخ ١٨ مايس عام ١٩٠١م تقدّم يهودي مجري اسمه أورمينوس ومبرغ بمبلغ ضخم من المال إلى السلطان عبدالحميد يريد شراء فلسطين لليهود، فما كان من عبدالحميد إلا أن طرده من القصر على الفور[2].

وها هو هرتزل يعاود الكرة مرة ثانية لمقابلة السلطان عبدالحميد وذلك في أغسطس ١٩٠٢م، فأجابه السلطان أن اليهود يقيمون في كل أنحاء الممالك العثمانية، فإن لم يكن لهم مكان للإقامة فبإمكانهم أن يسكنوا في العراق أو سورية أو حتى في بلاد الأناضول، أما فلسطين فليس هناك مجال لطلبها[3]، وقد ذكرت المصادر أن الرشوة التي قدمت للسلطان عبدالحميد قدرت بخمسة ملايين ليرة ذهبية خاصة للسلطان، فكان هذا التصرف من قبل هرتزل سبباً لطرده من القصر على الفور[4].

ما سبب رفض السلطان عبدالحميد للمشروع الصهيوني؟

أرجع بعض المؤرخين سبب رفض السلطان عبدالحميد للمشروع الصهيوني إلى عدة أسباب لعل أهمها: إن المسلمين والعرب يرون في هذه المباحثات امتحاناً عملياً لإخلاص السلطان نحوهم ونحو قدسهم.

ويرى البعض الآخر أن سبب الرفض هو رغبته في تجنب إثارة العرب من جهة، ولتجربته مع الأقليات، ولهذا فهو لا يريد أقلية جديدة تتبعه من جهة ثانية[5].

---

(١) انظر: جذور البلاء ١٥٠.

(٢) انظر: أسرار الانقلاب العثماني، مصطفى طوران ٤٠.

(٣) انظر: أسرار الانقلاب العثماني ٤٠.   (٤) انظر: نفس المصدر ٣٩.

(٥) انظر: موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ٢٧١.

ويرى حسان علي حلاق: إن الأحداث السياسية (أثبتت أن السلطان عبدالحميد الثاني لم يرفضه لتخوفه من وجود أقلية جديدة، فحسب وإنما كانت هناك أسباب عديدة في مقدمتها:

١ ـ ردود الفعل العربية الفلسطينية ضد الهجرة اليهودية بعد أن تزايدت خطورتها على المواطنين.

٢ ـ شعور السلطان العثماني بخطورة الحركة الصهيونية وأطماعها في فلسطين.

٣ ـ دور الجامعة الإسلامية والمشاعر التي انبثقت عنها)[1].

ويمكن القول أن سبب رفض السلطان للمشروع الصهيوني إنما يرجع إلى تزعمه لحركة «الجامعة الإسلامية» التي رفع لواءها، حقيقة كانت فكرة الجامعة الإسلامية تهدف إلى تحقيق مكاسب سياسية، ولكن كيف يستطيع عبدالحميد أن يفسّر للمسلمين وللعرب قبوله توطين اليهود؟؟، وكيف يقنعهم ببيع الأراضي المقدسة لهذه الجماعات؟؟، الواقع أن السلطان عبدالحميد كان يخشى غضب الرأي العام الإسلامي[2].

لقد دفع السلطان عبدالحميد ثمن رفضه لهجرة اليهود إلى فلسطين وإصداره قانوناً بذلك ومنعه إقامة مستعمرات لليهود غالياً، كان هو (قشة البعير)[3] كما يقولون التي قصمت ظهر هذا الخليفة وخلافته التي يتربصون بها الدوائر، وسقطت نظرية اليهود الذين جعلوا المادة هي كل شيء، وبها يمكن أن يحققوا ما حققوه من نشر أفكارهم ومزاعمهم وأباطيلهم في أذهان الساسة وقادة العالم، ولا سيما في دول العالم الغربي، فتغيرت تلك النظرة التي تقوم على النفوذ المالي والتسلط الاقتصادي والفكري[4].

---

(١) انظر: موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ٢٧٢ ـ ٢٧٣.

(٢) انظر: نفس المصدر ٢٧٤.

(٣) انظر: دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية ١٩٢.

(٤) انظر: محاضرة الصهيونية والغزو الفكري، الأستاذ محسن باروم ٤٨.

ثانياً: الدستور

إن إصدار الدستور في عهد السلطان عبدالحميد ليعتبر بحق من الأحداث البارزة في جبين عصر السلطان الذي كان عهده مليئاً بالمفاجآت التي هزّت المقرّبين منه قبل أعداء الدولة، ففي الوقت الذي تبنى فيه سياسته الإسلامية نشاهده يوافق على إصدار دستور مستوحى من الدستور «البلجيكي»[١]، وهو دستور مشتق من دستور لا يتفق مع مبادئنا ولا أصالتنا الإسلامية والخير عندنا في شريعتنا السمحاء كتاب الله وسنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فما هو الدستور؟؟

هو (الحكم النيابي على الطراز الحديث، حيث تحكم الأمة نفسها بنفسها، مع حفظ حقوق الخليفة الأعظم، وتتضافر على إنفاذ مضمون الدستور حرفاً حرفاً)[٢]، وقد سمى الأتراك العثمانيون الدستور باسم «القانون الأساسي»، كما اصطلحوا على تسمية «العهد الدستوري» بـ «عهد المشروطية»[٣].

ولعل الأحداث التي مرت بها الدولة والظروف الصعبة التي أحاطت بها جعلت السلطان يقدم على الموافقة لإصدار هذا الدستور، وقد كشفت الأحداث أن السلطان كان محقاً في رضاه على إصدار هذا القانون وذلك على رأي بعض المؤرخين.

ما الهدف من إصدار الدستور؟؟

لقد وجهت الأحداث السلطان عبدالحميد بأن يعمل على إرضاء الغرب، ولا يتم ذلك إلا بإعلان الدستور الذي يساوي فيه بين العناصر والأقوام، وكان

---

(١) انظر: تاريخ الشعوب الإسلامية، كارل بروكلمان ٥٨٥.

(٢) عبرة وذكرى أو الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده، سليمان البستاني، بقلم المحقق: خالد زيادة ٥٣.

(٣) انظر: البلاد العربية والدولة العثمانية، ساطع الحصري ٩٧.

شعاره: (حرية، أخوة، عدالة، مساواة) أي أنه زاد على الشعار الإفرنسي كلمة العدالة التي هي أساس كل شيء، ولكنه رأى أن غاية الغرب ليست إعلان المساواة بل غايته القضاء على السلطنة، وليست مطالبتها بالمساواة وغيرها إلا ألاعيباً لإنهاكها وتفريق شملها، فلما رأى عبدالحميد هذا أدرك أن لا شيء ينقذ السلطنة إلا القوة، ولكن من أين له القوة، والقوة تحتاج إلى المال والخزينة مفلسة؟؟..[١].

فقد كان قصد السلطان واضحاً لكل متأمل وهو إقناع الدول بعزمه على إجراء جميع الإصلاحات المطلوبة، كما كان يقصد تعطيل المؤتمر الذي أراد مصلحو أوروبا ـ على حد زعمهم ـ إجراءه من إصلاحات داخل الدولة فلا فائدة من هذا المؤتمر إذ أن الأمة تولت إصلاح شؤونها بنفسها[٢]، فيذكر أنه هبط إلى القسطنطينية في شهر ديسمبر من عام ١٨٧٦م عدد كبير من الزائرين الأجانب، وكان من بينهم رهط من قادة الساسة في أوروبا، قدموا من لندن وباريس وروما وفيينا وبرلين وسان بطرسبرج للاشتراك في مؤتمر لبحث وجوه الإصلاح في تركيا، وقبل كل شيء لإقرار الهدوء في البلقان، وقد كان الرد على هذا التصرف الشاذ سريعاً ومدهشاً، ففي يوم ٢٣ ديسمبر عام ١٨٧٦ منح السلطان بلاده دستوراً جديداً وبرلماناً على النسق الأوروبي وبالاختصار فإن عبدالحميد بدهائه أومأ إلى المصلحين بالانصراف إذ ما معنى المطالبة بإصلاحات أقل شأناً بينما هو قد أمر بنظام جديد شامل للدولة؟؟، وهكذا أخذ السياسيون الأوروبيون الغاضبون يجمعون أشياءهم استعداداً للرحيل[٣].

إذن كان إعلان الدستور من قبل السلطان عبدالحميد لأهداف وأحداث حتّمت عليه ذلك، وكان يضمر في نفسه عدم رغبته بهذا الدستور، وهو ما صرح به رفضه من البداية عندما طالبوه بحكم دستوري في البلاد

---

(١) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد بك المحامي ٧٤٦.

(٢) انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان، عزتلو يوسف بك ١٤٠.

(٣) انظر: عبدالحميد ظل الله على الأرض، الدكتورة ألما وتلن ٨٣.

العثمانية فيقول في مذكراته (إن الأتراك الشباب قوم خياليون، فإعلان الدستور وتشكيل حكومة نيابية في بلادنا يعني حدوث الفوضى وانقسام الناس شيعاً وأحزاباً يقاتل بعضهم بعضاً، ويؤدي بالدولة العثمانية إلى الخراب، وتعاطف الإنكليز مع الأتراك الشباب أمر يلفت انتباهنا فهم يشجعون هؤلاء المفترين على المطالبة بإعلان الدستور ويرفضونه لأنفسهم في الهند المستعمرة، مع أن أوضاع الهند تشبه أوضاع بلادنا حيث تعيش فيها عناصر غير متجانسة من المسلمين والنصارى والبوذيين والبراهمة، ومن الصعب جمعهم في مجلس واحد)[١].

لقد اضطرت الظروف السلطان عبدالحميد لإصدار الدستور، وهو لم يكن محباً للحكم الدستوري، وإنما كان معادياً له، ومع هذا وجد نفسه يأتي إلى العرش كأول سلطان دستوري في تاريخ الدولة العثمانية، ولهذا كان ينتظر الظروف التي تمكنه من التخلص من هذا الدستور ومن صاحبه مدحت باشا[٢]، لقد كان ارتقاؤه للعرش في آن شديد عصيب، فقد كانت الدولة على أبواب الحرب العثمانية الروسية، وكانت الحكومة في أيدي عصبة من الساسة يسعون سعي المصلحين في تجديدها على الطراز الحديث والنهج بها على المناهج السياسية الدستورية الغربية[٣].

قبل السلطان عبدالحميد القانون الأساسي وأعلن بالآستانة وقرىء في مجمع حافل في يوم ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٧٦م، اشتمل على مئة وتسع عشرة مادة نشر في جميع أنحاء الدولة وأمر السلطان مباشرة العمل بأحكامه من يوم نشره[٤]، ولم يتم افتتاح الجلسة الأولى حتى دوت المدافع إيذاناً بإعلان القانون الأساسي المتكفل بإعطاء الحقوق و الحرية لجميع الرعايا بدون استثناء..[٥].

---

(١) السلطان عبدالحميد الثاني: مذكراتي السياسية ١٠٥.
(٢) انظر: الشعوب الإسلامية، د. عبدالعزيز نوار ٢٠٠.
(٣) انظر: حاضر العالم الإسلامي، لوثروب ستودارد الأميركي ١/٣٠٩.
(٤) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية ٥٩١.
(٥) انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان ١٤٠.

وانقسم المؤرخون بين مؤيد ومعارض لهذا الدستور، ومن المؤيدين ساطع الحصري الذي يقول: (وقد رأى رجال الإصلاح ـ بعد التجربة ـ أن هذه الأحوال لا يمكن أن تعالج إلا بإصدار «قانون أساسي» يفهم السلطان أن سلطته ليست «مطلقة» بل «مشروطة» بقيود وحدود يعينها ويقررها الدستور)[١]، كأنه يقول: إنه لا خلاص من الأحوال السائدة في الدولة من ضعف وتسلط رجال الحكومة وعلى رأسهم السلطان إلا بإصدار القانون الأساسي فهو بذلك يتهم الدولة بالاستبداد من ناحية ويؤيد هذا القانون الذي كان وبالاً على الدولة كما سنعرفه فيما بعد.

ويذكر «حضرة عزتلو يوسف بك آصاف» في كتابه تاريخ سلاطين آل عثمان أن مدحت باشا قد اشترط على السلطان شروطاً ثلاثة حين تولية السلطنة:

أولاً: إعلان القانون الأساسي.

ثانياً: تعيين ضيا بك وكمال بك كاتبين خصوصيين للمابين وسعدالله بك باشكاتباً لأنهم من الأحرار الحريصين على إجراء أحكام القانون الأساسي[٢].

نستنتج من هذه الرواية التي أوردها المؤلف مدى النفوذ القوي الذي يتمتع به مدحت باشا الأمر الذي جعله يتجرأ بإملاء شروطه على السلطان عبدالحميد، ولا شك أن له هذا النفوذ الواسع، وقد امتد نفوذه إلى أن تزعم حركة الإصلاح في الدولة العثمانية ـ على حد زعمه ـ ويتطاول على سلطة السلطان بل ويوجه خطاباً يوضح غيرته على مصالح الدولة والرعية قال فيه: (إن التبذير في الدولة قد بلغ درجة لا تطاق، إن الدولة قد وقعت في أزمة شديدة لا سبيل إلى الخلاص منها إلا بتبديل الإدارة الحالية وإنما يكون تبديلها

---

(١) البلاد العربية والدولة العثمانية ٩٧.
(٢) انظر: سلاطين آل عثمان ١٤٠.

بإنشاء مجلس نيابي وجعل النظار مسؤولين أمامه وبأن يكون هذا المجلس قومياً فلا يغرق في انتخابه بين المذاهب والعناصر وبأن يوضع الولاة تحت المراقبة الشديدة فلا يعبثون بمصالح الرعية)[1].

من هو مدحت باشا؟؟

لا أحد يشك في الجهد الذي بذله مدحت باشا لإصدار القانون، ولا بالدور الذي قام به لإقناع السلطان عبدالحميد، ولكن؟ ما هو هدف مدحت باشا من وراء إصدار هذا القانون؟ وكيف كان جزاؤه نتيجة الإساءة التي ألصقها بالدولة؟.

في تاريخ تركيا الطويل لم يرو عن شخص ضحّى باستقلال تركيا ونادى بوصايةٍ وانتداب استعماري غربي على الشعب التركي سوى مدحت باشا الذي أسمته صحافة الغرب اليهودية بأبي الحرية[2].

تولى مدحت ولاية بغداد قبل عهد عبدالحميد سنة ١٢٨٥هـ (١٨٧٠م) وقام بإصلاحات عديدة مما جعل عهد ولايته يعتبر استثناء بالنسبة للعهود السابقة واللاحقة، قضى فيها نحو ثلاث سنوات ونصف[3]، ولما استعفى محمد رشيد باشا من منصب الصدارة بسبب تقدمه في السن وضعف قواه عن مزاولة الأعمال في هذه الظروف المهمة وجهت الصدارة[4] إلى أحمد مدحت باشا أو القائلين بهذه الإصلاحات في ٤ ذي الحجة سنة ١٢٩٣هـ (٢١ ديسمبر سنة ١٨٧٦م)[5].

يقول عبدالله التل (إن مدحت باشا من يهود الدونمة، وهو ابن حاخام مجري اشتهر بالمكر والخداع والدهاء فوصل إلى أعلى مناصب الدولة ليكون أقوى

(١) اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار، أنور الجندي ٨٠.
(٢) انظر: الأفعى اليهودية، في معاقل الإسلام، عبدالله التل ٨٤.
(٣) عبرة وذكرى أو الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده ١٣١ ـ ١٣٥.
(٤) الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) أسرار الانقلاب العثماني ١٢.
(٥) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية ٥٩٠.

يهودي يتمكن من بذر الفتن في الدولة العثمانية متظاهراً بالإسلام ومبطناً يهوديته الحاقدة الماكرة)[1]، وأصبح مدحت باشا الوزير الأول في الامبراطورية، و«رجل تركيا العصري» الذي كان محبوباً حتى في بلاد البلقان ذاتها[2]، كما لقب مدحت باشا بـ«أبو الدستور» لأنه كان المفكر في وضع الدستور الذي وافق عليه السلطان عبدالحميد[3]، كما لقب بـ«أبو الأحرار».

ولا شك أن الدعاية اليهودية الإعلامية قد صوّرت مدحت باشا بصورة المكافح من أجل الشعب التركي، وأطلقت عليه أوصافاً براقة وأضفت عليه هالات زائفة من صفات البطولة والرجولة والاستقامة هو ومن معه من الشخصيات التركية التي كانت الصهيونية والماسونية من ورائهم في الوقت نفسه كانت تشوه صورة رجالات الدولة العثمانية المخلصين[4].

لقد امتنع السلطان عبدالحميد عن مجاراة مدحت باشا في استخذائه للغرب المستعمر الطامع في الدولة الإسلامية العظيمة، ولم يطق عبدالحميد أن يرى مدحت باشا يمهد الطريق بدسائسه وخيانته لنجاح ٤٨ نائباً مسيحياً من مجموع ١١٧ نائباً هم أعضاء مجلس المبعوثان (البرلمان)[5]، فأخذ السلطان الحيطة والحذر من كل عمل يقدم عليه رغم إعلان الدستور ووضوح بنوده، فأخذ من مواده ما تقتضيه مصلحة الدولة، وأخذ ينتقد سياسة مدحت باشا الذي أطلق العنان لأعماله مستغلاً نفوذه الواسع حتى ضاق مدحت باشا فاستغل نفوذه وكتب إلى السلطان رأساً ما يأتي: (لم يكن غرضنا من إعلان القانون الأساسي إلا قطع دابر الاستبداد وتعيين ما لجلالتكم من الحقوق وما عليها من الواجبات وتعيين وظائف الوكلاء وتأمين جميع الناس على حريتهم وحقوقهم حتى تنهض

(١) الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام ٧٧.
(٢) انظر: عبدالحميد ظل الله على الأرض ٧٩.
(٣) انظر: البلاد العربية والدولة العثمانية ٩٤.
(٤) انظر: جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك، زياد أبو غنيمة ٥٣.
(٥) انظر: الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام ٨٣.

البلاد إلى معارج الارتقاء وإني أطيع أوامركم إذا لم تكن مخالفة لمنافع الأمة...) ونحو ذلك من هذا القبيل فغضب السلطان من هذه الجرأة[١] فعزله من منصب الصدارة في ٢١ محرم سنة ١٢٩٤هـ (فبراير سنة ١٨٧٧م) بعد تعيينه بأقل من شهرين[٢]، ونفاه خارج البلاد بعد أن ولاه ولاية سوريا سنة ١٨٧٨[٣].

ما هو سبب عزل مدحت باشا؟؟

لعل السبب الذي يمكن أن نستند عليه ونثق فيه أن السلطان عبدالحميد لم يطق أن يرى نفوذ مدحت باشا وطغيانه بعد أن رآه يعزل السلطان عبدالعزيز ويدبر مؤامرة قتله، ويعزل السلطان مراد الخامس بعد ثلاثة شهور من تنصيبه[٤].

كذلك فقد انفضحت علاقته بمخططات الصهيونية والماسونية المتآمرة ضد دولة الخلافة، والدليل على تلك العلاقة أن الدعاية الإعلامية اليهودية، أقامت الدنيا ولم تقعدها احتجاجاً على نفيه، واستغلت الصهيونية هذه الحادثة لتكثيف هجمتها ضد السلطان عبدالحميد باعتباره رمزاً للدولة العثمانية وعنواناً لوحدة المسلمين[٥].

كذلك فإن مندوبي الدول الأوروبية قد احتجوا على حكم الإعدام وبعد أخذ ورد استطاعوا تبديل حكم الإعدام إلى السجن المؤبد وقد أحدث الحكم بالإعدام على مدحت باشا ضجة كبرى في الأندية الأوروبية وتناوله مجلسا الشيوخ والنواب في إنكلترا بالنقد الشديد[٦]، إلا أن السلطان عبدالحميد عدل

---

(١) تاريخ سلاطين آل عثمان ١٤١.
(٢) تاريخ الدولة العلية العثمانية ٥٩٣.
(٣) عبرة وذكرى أو الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده ١٣٥.
(٤) انظر: الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام ٨٣.
(٥) انظر: جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك، زياد أبو غنيمة ٥٢ ــ ٥٣.
(٦) انظر: سلاطين بني عثمان الخمسة ٩١.

عن ذلك كله بأن نفى مدحت باشا إلى مدينة ــ الطائف ــ من أعمال الحجاز وفيها توفي، لكن وفاته أحيطت بالغموض والتشكيك في كيفية موته، فمن قائل أن السلطان لم تغمض عينه حتى قضى على مدحت باشا ونقل رأسه محنطاً إلى عبدالحميد[١]، ومن قائل أن السلطان دبر خنقه[٢].

إن اتهام السلطان بقتل مدحت باشا ليس غريباً على أعداء الدولة والسلطان، وبخاصة إذا كان المقتول من بني جنسهم يدين بديانتهم اليهودية ويسعى لرفع كلمتهم وجمع شتاتهم لتكون لهم شوكة وعزة في ظل الدولة الإسلامية التي قدمت كل ما تستطيعه لرعاياه ليعيشوا في ظل التسامح الإسلامي فاستغلوا ذلك أسوأ استغلال متهمين الدولة بالإهمال تارة والضعف واستبداد الحكام تارة أخرى.

كيف تخلص عبدالحميد من الدستور؟

إذا كانت الظروف التي حتّمت على السلطان عبدالحميد قبول الدستور، فإن هذه الظروف ساعدت السلطان على إلغاء هذا الدستور، فبعد مرور سنتين على إعلان القانون الأساسي وقبل أن يتم «مجلس المبعوثان» دورة انعقاده الثانية، أمر السلطان عبدالحميد بفض المجلس مع نفي وإبعاد البارزين من المبعوثين، ولم يُدْعَ المجلس إلى الاجتماع بعد ذلك[٣].

فمن قائل: إن ثمة فرصة سنحت للسلطان عبدالحميد الثاني ليتخلص من الدستور حيث أسرعت روسيا إلى إعلان الحرب (أبريل ١٨٧٧) على الدولة العثمانية لتقضي على الحركة الدستورية فيها وتعيد القوة إلى الثورة في البلقان ضد السلطان، وأحرزت الجيوش الروسية انتصارات سريعة حتى وصلت إلى

---

(١) انظر: سلاطين بني عثمان الخمسة ٩١.
(٢) عبدالحميد ظل الله على الأرض ١٢١.
(٣) انظر: البلاد العربية والدولة العثمانية ٩٨.

بلغنا[١] فضربت عليها القوات الروسية الحصار ودافعت عنها القوات العثمانية ببسالة عظيمة حتى سقطت في ديسمبر كانون الأول ١٨٧٧م وأصبحت العاصمة الآستانة نفسها مهددة، مما اضطر حكومته إلى عقد هدنة ثم فرض الروس معاهدة سان استيفانو على السلطان العثماني ويرد ذكر تفاصيل هذه الحروب فيما بعد[٢].

والذي يهمنا أن السلطان عبدالحميد قد استغل ظرفاً كهذا فألغى مجلس المبعوثان بحجة انشغال الدولة بما هو أهم من متابعة تطبيق هذا الدستور.

ومن قائل أن السلطان اغتنم وقوع بعض الخلاف بين الدول الأوروبية، واستغنى عن مشورة مجلس المبعوثان فشكل في فبراير سنة ١٨٧٨ مجلساً عالياً من وكلاء الدولة وأعيانها والرؤساء الروحانيين فأصدر إرادته في ١٤ فبراير سنة ١٨٧٨ بتعطيل مجلس المبعوثان لأجل غير مسمى[٣].

نستطيع أن نقول: إن الظروف التي أملت شروطها على السلطان قد انكشفت فكان لا بد من السلطان عبدالحميد أن يستخدم حقه كخليفةٍ يسيّر دولته حسب ما تمليه المصلحة العامة لا كما يمليه أصحاب النفوذ والقانون.

لم يلغ السلطان عبدالحميد الدستور إلغاءً رسمياً، فبقي القانون الأساس يدرج في صدر الحولية الرسمية التي كانت تصدر كل سنة فتسمى سالنامة الدولة العلية العثمانية، ولكن أحكامه بقيت مهملة بصورة فعلية[٤].

وفي أواخر عهد السلطان عبدالحميد تألفت الجمعيات السرية من أعداء الدولة في الداخل والخارج، وتعاضد الأعداء فيما بينهم ضد السلطان الذي

---

(١) بلغنا أو بلغنه: تقع اليوم في شمال بلاد بلغاريا بالغرب من الحدود الرومانية وإلى الشمال الشرقي من صوفيا (تاريخ الدولة العلية العثمانية ٦٢٩).

(٢) انظر: الشعوب الإسلامية ٢٠٢.

(٣) انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان ١٤٥.

(٤) انظر: البلاد العربية والدولة العثمانية ٩٨.

وقف في وجه أطماعهم ونزواتهم، فتكالبوا ضده ووضعوا العراقيل لسياسته الإسلامية ونادوا بالإصلاح على الطريقة الأوروبية واتهموه بالاستبداد والانفراد في إصدار القرارات، ولعل جمعية الاتحاد والترقي الذي سيرد ذكرها كانت السبّاقة للمناداة بإعادة الدستور حيث استغلت الظروف الحرجة التي تمر بها الدولة في ذلك الوقت، فرضخ السلطان عبدالحميد بإعادة القانون الأساسي سنة ١٩٠٨م الموافق ٢ جمادى الثاني سنة ١٣٢٦هـ للمرة الثانية[١]، وعقد مجلس الدولة في يلدز[٢] يوم ٢٣ يوليو حيث اجتمع رؤساء الوزارة السابقون والوزراء والقواد العسكريون تحت رياسة كبير الوزراء حينئذ فريد باشا لإعادة الدستور للمرة الثانية.

وكانت طريقة عبدالحميد في قبول الدستور تكشف عن مواهبه كسياسي بارع، فقد أعلن عن استعداده ليرأس جمعية الاتحاد والترقي ولكنه قنع بقبول العضوية العادية عندما أبانت له اللجنة المركزية للحزب بأن الأعضاء كلهم يتساوون، وأكثر من ذلك أنه خرج عن طريقه الاعتيادي ليثبت أنه أشد الأعضاء إخلاصاً للحزب، فشكر رجال تركيا الفتاة لأنهم «فتحوا عينيه» إلى أن الوقت «قد نضج الآن»، ـ الأمر الذي أخفاه عنه مستشاروه الأغبياء، وزيّن سترته السوداء بالوردة الحريرية شعار الحزب، وأصبحت عبارة «أرض الوطن» التي كانت ممنوعة حتى الآن تتردد على شفتيه بكثرة، كما تبرع بنصف مليون جنيه من جيبه الخاص لصندوق الجمعية، ووهب أحد قصوره ليكون مقر البرلمان القادم، وأمر بمئتي جواد من أفضل ما حوته اصطبلات يلدز لضباط الخيالة[٣].

فاستطاع السلطان عبدالحميد بذكائه أن يحول حماس الجماعة عن مجراها الأصلي إلى أوروبا، واستعمل كل حيلة ودهاء ليؤكد للدستوريين أنه أصبح

---

(١) انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان ١٥١.

(٢) يلدز: تعني كلمة (يلدز) السماء المرصعة بالنجوم، ويلدز باللغة التركية معناها: النجمة.

(٣) انظر: عبدالحميد ظل الله على الأرض ١٨٧ ـ ١٨٨.

دستورياً أكثر منهم، ولكنه رد على إعلان الدستور بأن سعى سراً في تأليف جمعية باسم الجمعية المحمدية مشكلةً من الأشراف والعلماء مرماها بأن الشورى تعم المساواة بالعباد على مبدأ الشريعة المطهرة، فأقبل الناس على الدخول فيها، وفي مدة قليلة تألف لها شعب من عموم الولايات العثمانية، وقامت في أول أعمالها في يوم عيد المولد النبوي بتجمهر أمام الباب العالي مطالبين بالشريعة الإسلامية[1].

لقد استطاع عبدالحميد أن يضرب الدستوريين بالجمعية التي ألفها واتخذ الشورى أساساً لكل عمل ينبغي أن يقوم به الدستوريون.

والسؤال هنا: كيف قبل السلطان عبدالحميد الدستور للمرة الثانية؟

لقد قبل السلطان عبدالحميد الدستور للمرة الثانية سنة ١٩٠٨ رغم عدم وجود فرق بينه وبين دستور سنة ١٨٧٦م[2].

لا شك أن الصعاب والمحن التي مرت بالدولة العثمانية والمرحلة العصيبة التي تولى فيها السلطان حتمت عليه أن يقبل بالأمر الواقع في بداية الأمر، ثم يوجه هذا الواقع حسب ما تقتضيه المصلحة العامة للدولة، لأن دخوله في أخذ ورد مع المطالبين بالإصلاحات وتطبيق القوانين من شأنه أن يضعف كيان الدولة من الداخل، ويعطي الفرصة للأعداء لأن يلتهموا أطراف الدولة في ظل انشغال رجال الدولة في مطالبة السلطان بمطالب وهو قادر على تلبيتها لوقت معلوم يضمن عدم إفلات زمام الأمور من يده، فيكسب هؤلاء في صفه لهدم ما يخططه الأعداء، ثم يتفرغ لهؤلاء المصلحين على حد زعمهم فيصفي أموره معهم، إن الدهاء والذكاء الذي اتصف به السلطان جعلت هؤلاء الذين فشلوا في أحداث أي فرجة ومدخل في سياسة السلطان يكيلون له التهم المغرضة لينالوا من شخصه أولاً ومن ثم زحزحته عن الحكم ليولوا سلطاناً يسايرهم ويتمشى مع هواهم.

---

(١) انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان ١٥١.

(٢) انظر: عبرة وذكرى أو الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده ٥٣.

ثالثاً:
جمعية الاتحاد والترقي

تعتبر جمعية الاتحاد والترقي المسؤول الأول عن إسقاط السلطان عبدالحميد، وقد مرت الجمعية بأطوار حتى اتخذت هذا الاسم، وقد كانت الجمعية تعرف باسم تركيا الفتاة وهو الاسم الشعبي لجمعية الاتحاد والترقي، المجموعة الثورية التي تمردت على حكم السلطان عبدالحميد عام ١٣٢٤هـ، والتي أصبحت بعد ذلك التاريخ الحزب السياسي المهم في الدولة العثمانية إذ تسلمت السلطة عام ١٣٢٦[1].

وحركة تركيا الفتاة ترجع إلى عهد السلطان عبدالعزيز وهي حركة تمثل البورجوازية التركية، إذ كانت تتألف من الشباب التركي المثقف ثقافة أوروبية، ولم يكن هدفها تصفية الامبراطورية، ولكن إقامة حكم دستوري فيها حتى تستطيع الصمود في وجه الأطماع الغربية وإرضاء القوميات الثائرة داخلها، وكان مدحت باشا قائداً لهذه الحركة، وبعد أن تنكر عبدالحميد للحكم الدستوري عام ١٨٧٧ تحولت حركة تركيا الفتاة إلى حركة سرية داخل البلاد وعلنية خارجها من أجل إعادة الدستور[2].

لقد كان هدف حزب تركيا الفتاة هو إعادة الدستور لا أقل ولا أكثر، والسير على الخط الأوروبي، إلا أن أعضاءها انخدعوا إذ لم يكونوا على علم بنوايا الصهيونيين شركائهم في العمل لذا لم يفهموا إلى أي جهة سترجح كفة الميزان، فاستمروا في نشاطهم وزادوا منه[3] دون أن ينظروا للعواقب، وكان تأسيس الحزب قد جرى في باريس ثم اندمجت مع جمعية الحرية التي وجدت في

---

(١) انظر: العثمانيون والروس، د. علي حسون ١٦٠.

(٢) انظر: حركة اليقظة العربية في الشرق الآسيوي، محمود صالح منسي ٩٩.

(٣) انظر: أسرار الانقلاب العثماني ٢٥.

سالونيك[1]، ففي عام ١٨٨٩ شكل جماعة من طلبة المدرسة الطبية العسكرية الامبراطورية في استانبول منظمة سرية هدفها الواضح عزل السلطان عبدالحميد الثاني وكان وراء هذا التشكيل السري رجل ماسوني من ألبانيا اسمه «إبراهيم تيمو» أو أدهم كما كان يسمى أحياناً، وقد اتفق مع عدد من الطلاب على الاشتراك في تلك المنظمة وكان في مقدمتهم إسحاق سكوتي وشركس محمد رشيد وعبدالله جودت وكرديان، وقد باشرت أعمالها منذ عام ١٨٩١م في جنيف أولاً، ثم نقلوها إلى باريس وكانوا يعملون على نشر دعوتهم سراً، واتخذوا لذلك طريق الجيش لبث أفكارهم، وقد أصدر كل من إسحاق سكوتي وعبدالله جودت مجلة «عثمانلي» في جنيف لمحاربة السلطان عبدالحميد وتأليب الرأي العام عليه، وذلك لكسب مؤيدين لتنظيمهم، وقد عرف هذا التنظيم باسم «الاتحاد والترقي» وهو فرع لحزب تركيا الفتاة[2]، بمعنى أن لجنة الاتحاد والترقي هي التسمية التي أطلقت على جماعة «تركيا الفتاة السرية» إذ اندمجت المنظمة السرية التي تشكلت بين ضباط الجيش الثالث في مناستر وسلانيك وغيرها مع جمعية تركيا الفتاة كان هدفها إسقاط عبدالحميد الاستبدادي ـ على حد زعمهم ـ والعودة إلى روح الإعلان الدستوري الأول والحرية، فبتاريخ أغسطس عام ١٣١٥هـ رومية قام موزع البريد طلعت أفندي مع سبعة من أصدقائه بتشكيل أول خلية لجمعية الاتحاد والترقي في سلانيك.

(١) سالونيك أو تسالونيكي وهي مقر ولاية باسمها وتبعد عن القسطنطينية بنحو ٥٢٠ كيلومتراً، وهي من الثغور التجارية المهمة، موقعها داخل الجون المعروف باسمها، وكان هذا الخليج قديماً يسمى شرمايكوس، وهو فرع من بحر إيجي بين ساحل تساليا وشبه جزيرة خلقدونيا وكاسندر. . وقد اشتهرت سالونيك بحسن منظرها وجمال جوامعها وفيها آثار قديمة وتجارتها واسعة جداً، يخرج منها طريق حديدي إلى أسكوب ويتصل بالآستانة، ومن سكانها كثير من اليهود من نسل الذين طردهم الاسبان في زمن فردیننــد وإيزابيلا، (انظر: حقائق الأخبار عن دول البحار ـ إسماعيل سرهنك ٤٦٦)، وهي الآن تعتبر من المدن اليونانية الضخمة وعاصمة مكدونيا (انظر: العثمانيون والروس، الدكتور علي حسون ١٦٢).

(٢) موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ٢٩٤.

أحس المحفل الماسوني في سلانيك بأن طلعت سيكون له مستقبل كبير في الدولة العثمانية فاتصلوا به وسجلوه في عداد الماسونيين ورقي طلعت إلى عدة درجات في المحفل الماسوني وأصبح يتقاضى منه راتباً شهرياً مقداره عشر ليرات انكليزية، وكان الرأس المدبر للماسونية في سلانيك هو عمانوئيل قره صو اليهودي، وقد استطاع هذا أن يحتضن طلعت أكثر فأكثر.

لم يقف السلطان عبدالحميد في موقف المتفرج، بل أرسل عيونه للتعرف على مؤسس هذه الجمعية التي تدعي الحرية والأخوة والمساواة والعدالة، وبعد استجواب المؤسسين استطاعوا أن يفلتوا من أمام اللجنة التي تكلفت باستجوابهم، فاستطاع قره صو بدهائه أن ينقذ نفسه وينقذ طلعت معه إذ قال: نحن ماسونيون لا ننكر ذلك لكننا لسنا أعضاء في جمعية سرية، فاقتنعت اللجنة بكلامه[1]، وظلت سالانيك هي المركز الأساسي والأمين لنشاطهم السياسي والعسكري على السواء، نظراً لتزايد تنظيمهم بإنشاء فرق «القومية جي».

ولما شعر السلطان بقوتهم وظهور خلاياهم في مناستر أيضاً عمد إلى تشتيت شملهم ورماهم بحملة عسكرية تولى أمرها القائد (شمسي باشا) فدخل شمسي قاعدة الولاية كقائد فاتح، إلا أن ضابط القناصة «مفيد بك» أقدم بجرأة نادرة على قتل هذا القائد والالتجاء وأفراد فرقته إلى الجبال. . .[2]، وكانوا سبباً في الثورة ضد السلطان فيما بعد وسنداً للاتحاد في إسقاط السلطان عبدالحميد.

ولا شك أن يهود الدونمة في سالانيك كانوا هم مؤسسي حزب (تركيا الفتاة) في أول الأمر وهم الذين دفعوا العرب فيما بعد لتأسيس (العربية الفتاة) تنفيذاً للمخطط اليهودي الدونموي الذي يرى شطر السلطنة التركية إلى قومية عربية وقومية تركية يراه مدخلاً أو طريقاً لا بد من تعبيده ليسلكه إسرائيل تحقيقاً لمخططاته المعلومة[3] وبالفعل تأسست جمعية الفتاة في باريس عام ١٩١١م على

(١) أسرار الانقلاب العثماني ٤٢ ـ ٤٣ ـ ٤٥.

(٢) انظر: موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ٢٩٦.

(٣) انظر: الماسونية في العراء، دكتور محمد علي الزعبي ٢٢٠.

يد سبعة من العرب كانوا يتابعون دراستهم فيها وهم: رستم حيدر، عوني عبدالهادي، جميل مردم، محمد المحمصاني، عبدالغني العريسي، رفيق التميمي، توفيق السويدي، وانضم إليها غيرهم، ولعبت دوراً حاسماً في تاريخ الحركة القومية ودعت إلى الاستقلال والتحرر من الحكم الأجنبي، بقي مركز جمعية الفتاة في السنتين الأوليتين في باريس ثم انتقل إلى بيروت في عام ١٩١٣ ومنها إلى دمشق بانتقال مؤسسيها(١).

وهذه الجمعية التي ألّفها العرب لم يكن لها ذلك التأثير الذي كان لحزب تركيا الفتاة إلا المطالبة باستقلال بلادهم عن الدولة العثمانية وانخداعهم بالمستعمر الذي قدم لهم المساعدة استعداداً لأن يرث تركة الدولة العثمانية المترامية الأطراف.

يمكننا أن نستنتج مما سبق مدى ارتباط جمعية الاتحاد والترقي بالماسونية والدليل على ذلك أن أعضاء الجمعية دأب أفرادها على عقد اجتماعاتهم السرية في المحافل الماسونية، وعقدوا اجتماعاتهم الأولى في المحفل الماسوني الايطالي(٢) وامتداداً لهذه الاجتماعات كان الاجتماع العام الخطر الذي عقدوه في باريس (في قصر الكونت دي يورتال) عام ١٩٠٢م(٣) وفيه أمكن تحديد أهداف الجمعية بما يلي:

١ ــ إعادة دستور مدحت باشا.

٢ ــ تجميع قوى الثورة ضد السلطان.

٣ ــ إثارة السخط ضد السلطان في داخل البلاد وخارجها(٤).

ففي مؤتمر باريس تم بحث الخطط المستقبلية وفي كيفية مناهضة السلطان، وفي عام ١٩٠٧م عقد مؤتمر ثان وكانت قراراته تشمل ما يلي:

(أ) إجبار السلطان عبدالحميد على ترك العرش.

---

(١) انظر: العرب والعثمانيون ٥٣٨ ــ ٥٣٩.

(٢) انظر: موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ٢٩٤.

(٣) انظر: عبدالحميد ظل الله على الأرض ١٨٥.

(٤) انظر: الشعوب الإسلامية ٢٠٨ ــ ٢٠٩.

(ب) تبديل الأدوار الحاضرة من أساسها.

(ج) تأسيس أصول المشروطية والمشورة(١).

ثم ظهر من جمعية الاتحاد والترقي شخصيات بارزة كان لهم أثر كبير في تغيير مجرى التاريخ العثماني، لعل أخطرهم مصطفى كمال أتاتورك(٢).

وفعلاً استطاعوا إثارة السخط ضد السلطان وأرسلوا التهديدات تلو التهديدات للسلطان عبدالحميد في أن يرضخ في قبوله الدستور وهذا ما حدث فعلاً كما لاحظناه أثناء حديثنا عن الدستور، ورغم رضوخ السلطان لمطالب جمعية الاتحاد والترقي إلا أنه بقي صامداً في وجههم مستعملاً كل دهاء وحسن تصرف، رغم أن الفاصلة الزمنية بين إعلان الحرية وبين خلع السلطان عبدالحميد هي تسعة أشهر وخمسة أيام لم تستطع أركان جمعية الاتحاد والترقي خلالها من السيطرة الكاملة على الحكومة ومن كسر شوكة السلطان، إذ أن الهدف الأصلي لم يتحقق، فلا بد من إسقاط ما أسموه بالحكم الاستبدادي والوصول إلى الهدف المنشود، لذلك قدم إلى استانبول وفد اتحادي من سلانيك يضم معظم أعضاء الجمعية عقدوا اجتماعاً تدارسوا كيفية الوصول إلى أن يفقد الشعب ثقته بحكومته، وتقبل تعليمات الجمعية ونحو ذلك(٣) فقد استطاع عبدالحميد أن يصمد في وجه أولئك الحفنة ممن ادعوا الإصلاح وهو يعلم علم

---

(١) انظر: موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ٢٩٨.

(٢) ولد مصطفى كمال عام ١٨٨١ بمدينة سالونيك بتركيا الأوروبية إذ ذاك أيام السلطان عبدالحميد الثاني، توفي والده وهو لا يزال طفلاً، ومن ثم عاش في كنف عم له بالريف، حتى إذا بلغ أشده ألحقته والدته بالمدرسة الحربية بسالونيك ثم بعث إلى الأكاديمية العسكرية باستانبول وبعد تخرجه انضم إلى جماعات صغار الضباط المطالبين بإصلاحات على النمط الأوروبي، لكن ما لبث أن قبض عليهم ألقوا في السجن ثم فرقهم السلطان بعد ذلك فكان أن بدأ نشاطه مع جمعية الاتحاد والترقي (تاريخ الدولة الإسلامية بآسيا وحضاراتها، الدكتور أحمد محمود الساداتي ١٧٠)، وأتاتورك هو القائل «نحن الآن في القرن العشرين لا نستطيع أن نسير وراء كتاب تشريع يبحث عن التين والزيتون» الماسونية في العراء، د. محمد علي الزعبي ٢٢١.

(٣) انظر: أسرار الانقلاب العثماني ٥٢.

اليقين أنهم ما هم إلا متحمسون متعلقون بآراء جوفاء، لقد صدقت نظرته فيهم واتضح ذلك بعد أن دخلوا التجربة فعلاً وسيطروا على الحكم من ١٩٠٩ إلى ١٩١٨ وما قاموا به من تسليم كامل للدولة ـ مع تبعية كاملة ـ لمخططات الاستعمار والصهيونية، مما كشف أصالة عبدالحميد وبعد نظره وجلال موقفه الحاسم في وجه النفوذ الاستعماري نفسه بالدعوة إلى الوحدة الإسلامية، وفي نفس الوقت بمقاومة هذه التبعية التي كانت تحمل مظهراً براقاً هو الإصلاح على طريقة الغرب كله، ولقد خدع المسلمون والعرب بالاتحاديين وأقاموا الأفراح، وسرعان ما اكتشفوا أنهم سلموا أنفسهم إلى فك الأسد وأنيابه، إن مقدرة عبدالحميد على فهم ما يحيط به كانت أكبر مما يظن كثيرون ولكنه كان في موقف لا يستطيع أن يكاشف المسلمين بالأخطار التي تحيط به[١].

لا شك أن الجو الذي قام الاتحاديون بتهيأته لقبول كل أمر يصدرونه عاملاً في تقبل أغلب الشعب كل قرار صادر عن هذه الجمعية دون النظر إلى مغزاها فحلّت الكوارث بالأمة نتيجة لسياسة الانقياد وكانت الجمعية هي السبب والمسؤول عن سلسلة الكوارث والفظائع والمظالم، أما الذي هيأ لهذه الكوارث ووضع تفاصيلها وموَّلها فهي الصهيونية ومنظماتها الماسونية[٢].

وكانت مساوئهم أكثر من أن تعد وتحصى، وقد كشف الزمان الوجه الحقيقي لهم، ولعل الأيام تكشف أكثر مما هو عندنا من مساوىء تعاف النفس من ذكرها، يكفينا أن الاتحاديين عبَّدوا الطريق أمام الخطوة الأخيرة، وكانت أعمالهم الثلاثة الكبرى من أهم الأعمال حيث أنهم فتحوا الطريق أمام الصهيونية إلى فلسطين وسلموا طرابلس الغرب للاستعمار الإيطالي، وأدخلوا الدولة العثمانية الحرب العالمية دون أن يكون لها فيها ناقة ولا جمل في صف الألمان[٣].

ولا شك أن قرار خلع السلطان عبدالحميد من أهم مساوئهم وتصرفهم

(١) انظر: تصحيح أكبر خطأ في تاريخ الإسلام، أنور الجندي ١٩.
(٢) انظر: أسرار الانقلاب العثماني ٦١.
(٣) انظر: تاريخ الإسلام ٢/٤٦٩.

السيء تجاه السلطان وإلصاق التهم بشخصه وخداعهم أغلب الشعب مصيبةٌ لا تغتفر، بحجة إنقاذهم البلاد من الظلم والاستبداد والإرهاب، وأن الذي حفزهم على الثورة إعادة (الحرية والعدالة والمساواة) ونشرها بين الناس، ثم أظهر الزمان زيف ذلك كله، وأن هذا الحزب التقدمي كان المتفجرة التي أطاحت بالمملكة كلها فبعثرتها أباديد.

وتكشف الحوادث لذوي البصائر عن الحقيقة الصارخة المؤلمة، كان اليهود وراء كل حزب وكل دعوة عنصرية في الامبراطورية العثمانية[١].

حقيقة جمعية الاتحاد والترقي:

يشير جرجي زيدان ـ فيما ينقل عنه أنور الجندي ـ صراحة في رده على سؤال: أجمعية الاتحاد والترقي ماسونية؟ إلى أن الماسونية موَّلت الاتحاديين في مؤامرة قلب حكومة السلطان عبدالحميد وأن الماسونية سعت أولاً في جمع كلمتهم لما كان هؤلاء الضباط «في حاجة إلى المال والدراهم لتنفيذ ما قصدوه من قلب الهيئة الحاكمة فكان الماسون وكثير منهم من اليهود الأثرياء يعدونهم بإمدادهم بالأموال». ثم يقول: «فلما تم الانقلاب الدستوري رفعت الماسونية رأسها وعزت الفوز إلى مساعيها وصورت جمعية الاتحاد والترقي كجمعية ماسونية محضة وكان أعضاؤها إذا ساروا في عواصم أوروبا يبحثون عن المحافل الماسونية ويسلمون على رؤسائها»[٢].

ما هي الماسونية؟

نقل الدكتور محمد علي الزعبي تعريف الماسونية عن المستشرق الهولاندي دوزي قوله: (جمهور كبير من مذاهب مختلفة يعملون لغاية واحدة: هي إعادة الهيكل إذ هو رمز دولة إسرائيل)[٣]، ولا شك أن هذا التعريف مختصر جداً

(١) انظر: مجلة العربي، العدد ١٦٩، ١٩٧٢م، ص١٥٣.
(٢) انظر: المخططات التلمودية اليهودية الصهيونية ٩٧.
(٣) انظر: الماسونية في العراء، دكتور محمد علي الزعبي ٢٢.

ولا يعرف الغاية من الماسونية إلا القليلون، فالماسونية كما تظهر من أهدافها الظاهرية أو المعلنة تتناقض تماماً مع أهدافها الحقيقية أو السرية، ولا أحد يشك في أنها منظمة يهودية تظهر لخدمة اليهود من حين إلى حين، والأدلة على ذلك أكثر من أن تحصى، منها أنه لم يحصل للماسونية أن قامت بهجمات على اليهود في وقت من الأوقات[1].

وللماسونية طريقة للانتساب ودرجات ومراتب ومهام كثيرة وهو ليس موضوع بحثنا والذي ينبغي أن نعرفه أن الماسونية استطاعت أن تضم السواد الأعظم من الملوك والحكام والقضاة والأثرياء والزعماء والقادة والمثقفين.

والذي يدعوني إلى الاعتقاد الجازم بأن جمعية الاتحاد والترقي ماسونية ما أورده عزتلو يوسف بك في قوله: (واتخذوا في قبول الأعضاء، وإدخالهم في هذه الجمعية طرقاً تشبه الطرق الماسونية وزادوا عليهم أسلوباً غريباً يأمن به الداخل كشف أمره حتى بين إخوانه أعضاء الجمعية بحيث أن العضو الواحد لا يعرف من سائر الأعضاء لو كانوا ألوفاً إلا اثنين، العضو الذي أدخله والعضو الذي توسط في إدخاله فإذا عرف أعضاء لجنة الإدارة أحداً من العثمانيين توسم فيه الذكاء والميل إلى الحرية وإصلاح المملكة تدرج في إطلاعه على وجود الجمعية، فإذا طلب منه الانتظام في سلكها وعده في النظر بطلبه ثم خاطب اللجنة بشأنه، فإذا قبلته سلمته نمرة يعرف بها من سجلاتها ودعته للحضور في جلسة سرية يحضرها أعضاء اللجنة متنكرين، فيقسم اليمين على الإنجيل والقرآن والمسدس ويخرج ولا يعرف غير صديقه الذي أدخله)[2]، وهي طرقاً تشبه إلى حد بعيد الطرق المتبعة في الأوكار الماسونية التي انتشرت بشكل كبير في مختلف أنحاء الدولة العثمانية واتخذت في كثير من الأحيان أسماء شتى بهدف التضليل وخداع الشعب المسلم في الدولة العثمانية، وكان لليهود دور في إدخالها

---

(١) انظر: الماسونية بين الحقيقة والشعارات، محمد زكي الدين ٥٠ ــ ٥٢ ــ ٥٨.
(٢) انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان ١٤٧ ــ ١٤٨.

في الدولة العثمانية ونشروها في كل أجزاء البلاد العربية وخاصة الشام ومصر وكان قادتها هم الدونمة[1].

فما معنى كلمة «الدونمة»؟ ومن هم؟.

(هي كلمة تستعمل كصفة مشتقة من المصدر التركي «دونمك» بمعنى العودة والرجوع، وكان من ضمن مسميات تابع هذا المذهب «عودتي»)[2]، وفي هذا المعنى كذلك ما ورد أنها كلمة تركية تعني (مرتداً، ملحداً، زنديقاً، كافراً، كاذباً، في ما يزعم اعتقاده)[3].

والدونمة كانوا حفنة من اليهود هربوا من ظلم محاكم التفتيش في إسبانيا في القرون الوسطى والتجأوا إلى الدولة العثمانية واستقروا في سلانيك، ثم دخلوا في الإسلام ومع تركهم لدينهم فإنهم لا يعتبرون مقتنعين بالدين الإسلامي.

لقى هؤلاء مقاومة ممن جاورهم، كانوا لا يتقيدون بأي قاعدة من قواعد الإسلام لا يصلون ولا يصومون ولا يخالطون المسلمين والأتراك، يعيشون منغلقين على أنفسهم، أذكياء نشيطون ماهرون محببون إلى النفس، لكنهم يعيشون حياة منزوية لا يدخلون في المجتمع التركي ولا يناكحون الأتراك ويبقون بهذه الحالة مستمرين في المحافظة على كيانهم الضيق.

معظمهم كان يشتغل بالتجارة لذلك كانوا على علاقة دائمة بأوروبا حيث أثّر فيهم المجتمع الأوروبي تأثيراً ظاهراً، كانت أرباحهم جيدة ومستواهم الاقتصادي أعلى من مستوى غيرهم من المجتمعات، وعندما هاجروا من سلانيك إلى استانبول تركز أكثرهم في حي نشانطاش وشيشلي واستمروا على وضعهم الخاص السابق.

ولكي لا يضطروا إلى إرسال أبنائهم إلى المدارس التركية أسسوا مدرستين خاصتين باستانبول هما، ثانوية فيضية، وثانوية الترقي[4].

---

(١) انظر: المخططات التلمودية الصهيونية ٩٦.
(٢) يهود الدونمة، دكتور محمد عمر ٨.
(٣) الماسونية في العراء ٢١٨.
(٤) انظر: يهود الدونمة، مصطفى طوران ٥٣ ــ ٥٤.

وهؤلاء الدونمة يقرؤون التلمود والعهد القديم ويرتلون بالعبرية ويأكلون الفطير، ويعيّدون في أوكارهم وخلواتهم عيدي الفور والحانوكا كاليهود.

كانت أسماؤهم في الأوكار عزرا وحاييم وهارون... ودبور واستير وساراي، أما في السوق والوظيفة فأحمد ومحمد وحسين ومصطفى.. وخديجة وعائشة وزينب[1].

وقد كان لهؤلاء الدونمة أثر كبير في تغيير مجرى التاريخ العثماني فقد أورد الدكتور محمد عمر في كتابه ما نصه (قدم كاتبان فرنسيان في كتاب لهما بعنوان «جغرافية التاريخ» معلومات عن الدونمة نشرتها «محراب» التركية في عددها الخامس عام ١٩٢٤م ما نصه (الدونمة القابانجية) ــ وهم قسم من أقسامهم ــ هم أكثر مجموعات أهل سلانيك ذكاء، فقد اندسوا في خلايا حزب الاتحاد والترقي بشكل كبير وملحوظ ونستطيع القول بأنهم قد أداروا الجزء الأعظم من انقلاب تركيا الفتاة (الذي أسقط السلطان عبدالحميد الثاني) وهذا الانقلاب ــ باعتبار الأساس ــ قام به يهود الدونمة وهم مسلمون شكلاً وفي الحقيقة معادون للإسلام، وكل صلتهم بالإسلام انحصرت في الأفعال الظاهرة فقط)[2].

وقد ارتقى هؤلاء الدونمة في الدولة العثمانية مناصب رفيعة مما جعلهم يتدخلون في شؤون تركيا السياسية والاقتصادية والتربوية والتوجيه الفكري، وقد ساعدهم على ذلك لأنهم يعيشون بوجهين، فقد كان منهم الوزراء والصدور العظام والنواب والمدرسون بالجامعات، ومنهم الشيوخ الذين يصعدون المنابر يغشون حلقات دراسة الفقه والحديث والتفسير والتصوف.

ويعودون للأوكار يتواصون بمثل هذا النص: (لا تتزوجوا إلا في ما بينكم، ولا تأخذوا من عادات الآخرين إلا الظاهر، ينبغي أن نعمي عيونهم عن الحقيقة ونحافظ على الاسم المزدوج)[3].

---

(١) انظر: الماسونية في العراء ٢١٨.

(٢) انظر: يهود الدونمة، محمد عمر ٤٢ ــ ٤٣.

(٣) انظر: الماسونية في العراء ٢١٩.

رابعاً: المشكلة الأرمنية

هي من المشاكل التي أشغلت بال السلطان وأثقلت خزينة آل عثمان بما صرف لدرء مفاسد الأرمن، وترجع أساس فتنتهم إلى أنهم كانت لهم في الأعصر القديمة دولة وكان لهم استقلال وكانت مملكتهم واقعة شرقي الأناضول ــ بين المملكة البيزنطية والمملكة الفارسية ــ ولما استولى الأتراك السلاجقة على تلك البلاد رحل قسم منهم إلى غرب الأناضول، وأصبح الأرمن في الشرق والغرب لا يشكلون أكثرية عددية بالنسبة إلى السكان المسلمين.

فلما ظهر ضعف السلطنة العثمانية صار الأرمن يرفعون رؤوسهم وينتهزون الفرص ليطالبوا بتجديد ملكهم القديم، وزاد هذا الأمر شباب الأرمن العائدون من الدراسة في أوروبا فقد كانوا يعودون متشبعين بروح الانفصال عن الدولة...[1].

وقد اعتبرت الدولة العثمانية بما عرف عنها من التسامح لجميع رعاياها الأرمن شعباً له حقوقه فلم تتدخل في شؤونهم بل عدَّتهم رعايا عثمانيين أحراراً في دينهم، واعتبر الأرمن في مناطق وجودهم إحدى الولايات التابعة للدولة العثمانية، وكان ذلك منذ بداية القرن السادس عشر إلا أن الأرمن ظلوا أوفياء للدين المسيحي، واحتفظوا بشعورهم بالوحدة مع الشعوب المسيحية برغم بعد الديار والحاجز الإسلامي الذي كان يفرق ما بينهم وبين أوروبا كما تقول الدكتورة ألما وتلن[2].

لقد أوضح عبدالحميد حقيقة يجب أن يعيها كل مغرض أن الأرمن شعب متفرق لا يملك زمام أمره بيده وأن طباعهم وصفاتهم التي جبلوا عليها لا تؤهلهم لأن يكونوا موضع مسؤولية، صحيح أن هناك كثيراً من الأرمن تقلد أعلى المناصب الوظيفية في الدولة بما فيها منصب الوزير الأعظم، بل أن ثلث الموظفين هم من الأرمن[3]، لكن الدولة العثمانية قد أعفت الأرمن من الخدمة

---

(١) انظر: مذكرات السلطان عبدالحميد الثاني، ٤٥. بقلم المحقق.

(٢) انظر: عبدالحميد ظل الله على الأرض ١٣٤.

(٣) السلطان عبدالحميد الثاني، مذكراتي السياسية ٤٥.

العسكرية، أولاً: لأنهم ليسوا أهلاً لحمل السلاح بإخلاص، ثانياً: وهو الأهم أنهم على غير ديننا، غير أن الدافع الصليبي لدى الدول الأوروبية والتقدم الاقتصادي الذي أحرزه الأرمن في الفترة الأخيرة على جيرانهم حيث كان إخوانهم المقيمون خارج البلاد منذ زمن طويل قد جمعوا في كثير من الأحيان ثروات كبيرة، وكانوا ينزعون إلى اصطناع نفوذهم لدى الدول الأجنبية لصالح مواطنيهم في الوطن[1].

فلما ضعف موقف الدولة أملت الدول الأوروبية شروطاً جديدة على الدولة العثمانية في مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨م حيث خضعت الدولة لمقررات هذا المؤتمر وكانت موجهة ضد مصالح الدولة العثمانية كما سنعرف ذلك إن شاء الله.

فمن النتائج غير المباشرة لمؤتمر برلين أن الأرمن قد شعروا أن الوقت قد أزف ليحققوا آمالهم، وكانت مادة من مواد مؤتمر برلين قد نصت على أن يقوم السلطان بإصلاح حال أرمينيا والأرمن، ولكن مرت السنون دون تطوير يذكر بينما كانت اتصالات الأرمن بالعالم الخارجي تزيد مداركهم اتساعاً، وظهر منهم علماء وباحثون ودعاة إلى أن الأرمني أرقى من سيده التركي، ويجب أن ينقلب الوضع ويصبح الرعية سيداً، بل كانت هناك دعوات بين الأرمن إلى طرد المسلمين من أرمينيا كما كانت هناك دعوات إلى طرد المسلمين من البلقان بالنقل أو الإبادة، وتصاعد التوتر في بلاد الأرمن ولم يلبث أن وقع الاضطراب وكان أن نكل الأكراد بالأرمن بقسوة أهل الجبل في أهل الجبل[2].

ولكون الدولة العثمانية لم ترضخ لمطالب الغرب بل وقفت موقف المتشدد فاعتبروا المواقف المشرفة للدولة وللسلطان مماطلة ومراوغة للغرب، ثم ثارت الفتنة الكبرى بين الأكراد والأرمن، وقد اتهم السلطان عبدالحميد بأنه هو الذي بثّ روح العداء بين الأكراد والأرمن بأن أوعز إلى المقربين منه لإشعال نار الفتن

---

(١) انظر: تاريخ الشعوب الإسلامية ٥٩٥.

(٢) انظر: المصدر السابق ٢٠٣.

بينهم في سنة ١٨٩٤م فحدثت مذابح ساسون وسواها وخربت ثلاثون قرية من قرى الأرمن عن آخرها[1].

وقد اعتبر أعداء السلطان ذلك العمل في نظرهم مأخذاً ومطعناً في شخص السلطان الذي هو بريء عنها إذ كيف يقدم السلطان على إشعال هذه الفتن وهو في حاجة لأن يهدىء الأوضاع الداخلية للدولة ليتفرغ للأعداء الخارجين الذين يريدون التوسع على حساب دولته فيقدم على عمل من شأنه أن يضعف خزينة الدولة، وهو في أمسّ الحاجة للمال، شيء لا يمكن أن يصدقه عاقل متفهم للوضع الذي كان عليه السلطان والدولة العثمانية، أما سبب كونه قرَّب الأكراد فهذا يعود إلى نظرة السلطان للأكراد، وقد ذكر صراحة سبب تفضيله الأكراد على الأرمن في مذكراته إذ يقول: (لا مجال لإنكار أن الأرمن في ولاياتنا الشرقية محقون في شكاواهم ولكن لا بد لنا أن نشير إلى مبالغتهم فيها وكأنهم يتباكون من ألم لم يحسوا به، إنهم أمة جبانة، تتدلل كالنساء، تحتمي بالدول الكبرى وتصرخ لأتفه الأسباب، أما الأكراد فهم على النقيض من ذلك، أقوياء جبابرة غلاظ شداد، رعاة، يعيشون في هذه الولايات منذ أقدم العصور، لذا فهم ينظرون إلى الأرمن نظرتهم إلى الأجانب، فالأكراد هنا هم السادة والأرمن عبيد)[2].

والحقيقة التي لا شك فيها أن العثمانيين معذورون تجاه هذا الموقف: كيف يمكن معالجة ثورة أقدم أهلها على فرض دولة مستقلة تحمل الشعار الصليبي وتعادي الإسلام والمسلمين وتتعاهد مع أعداء الدولة وتأخذ المساعدات لتضرب الدولة العثمانية؟؟، فهل من المعقول أن تقف الدولة العثمانية موقف المتفرج؟؟.

* * *

---

(١) انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان ١٤٧.

(٢) السلطان عبدالحميد، مذكراتي السياسية ٤٧.

العسكرية، أولاً: لأنهم ليسوا أهلاً لحمل السلاح بإخلاص، ثانياً: وهو الأهم أنهم على غير ديننا، غير أن الدافع الصليبي لدى الدول الأوروبية والتقدم الاقتصادي الذي أحرزه الأرمن في الفترة الأخيرة على جيرانهم حيث كان إخوانهم المقيمون خارج البلاد منذ زمن طويل قد جمعوا في كثير من الأحيان ثروات كبيرة، وكانوا ينزعون إلى اصطناع نفوذهم لدى الدول الأجنبية لصالح مواطنيهم في الوطن[1].

فلما ضعف موقف الدولة أملت الدول الأوروبية شروطاً جديدة على الدولة العثمانية في مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨م حيث خضعت الدولة لمقررات هذا المؤتمر وكانت موجهة ضد مصالح الدولة العثمانية كما سنعرف ذلك إن شاء الله.

فمن النتائج غير المباشرة لمؤتمر برلين أن الأرمن قد شعروا أن الوقت قد أزف ليحققوا آمالهم، وكانت مادة من مواد مؤتمر برلين قد نصت على أن يقوم السلطان بإصلاح حال أرمينيا والأرمن، ولكن مرت السنون دون تطوير يذكر بينما كانت اتصالات الأرمن بالعالم الخارجي تزيد مداركهم اتساعاً، وظهر منهم علماء وباحثون ودعاة إلى أن الأرمني أرقى من سيده التركي، ويجب أن ينقلب الوضع ويصبح الرعية سيداً، بل كانت هناك دعوات بين الأرمن إلى طرد المسلمين من أرمينيا كما كانت هناك دعوات إلى طرد المسلمين من البلقان بالنقل أو الإبادة، وتصاعد التوتر في بلاد الأرمن ولم يلبث أن وقع الاضطراب وكان أن نكل الأكراد بالأرمن بقسوة أهل الجبل في أهل الجبل[2].

ولكون الدولة العثمانية لم ترضخ لمطالب الغرب بل وقفت موقف المتشدد فاعتبروا المواقف المشرفة للدولة وللسلطان مماطلة ومراوغة للغرب، ثم ثارت الفتنة الكبرى بين الأكراد والأرمن، وقد اتهم السلطان عبدالحميد بأنه هو الذي بثّ روح العداء بين الأكراد والأرمن بأن أوعز إلى المقربين منه لإشعال نار الفتن

---

(١) انظر: تاريخ الشعوب الإسلامية ٥٩٥.

(٢) انظر: المصدر السابق ٢٠٣.

بينهم في سنة ١٨٩٤م فحدثت مذابح ساسون وسواها وخربت ثلاثون قرية من قرى الأرمن عن آخرها[1].

وقد اعتبر أعداء السلطان ذلك العمل في نظرهم مأخذاً ومطعناً في شخص السلطان الذي هو بريء عنها إذ كيف يقدم السلطان على إشعال هذه الفتن وهو في حاجة لأن يهدىء الأوضاع الداخلية للدولة ليتفرغ للأعداء الخارجين الذين يريدون التوسع على حساب دولته فيقدم على عمل من شأنه أن يضعف خزينة الدولة، وهو في أمسّ الحاجة للمال، شيء لا يمكن أن يصدقه عاقل متفهم للوضع الذي كان عليه السلطان والدولة العثمانية، أما سبب كونه قرَّب الأكراد فهذا يعود إلى نظرة السلطان للأكراد، وقد ذكر صراحة سبب تفضيله الأكراد على الأرمن في مذكراته إذ يقول: (لا مجال لإنكار أن الأرمن في ولاياتنا الشرقية محقون في شكاواهم ولكن لا بد لنا أن نشير إلى مبالغتهم فيها وكأنهم يتباكون من ألم لم يحسوا به، إنهم أمة جبانة، تتدلل كالنساء، تحتمي بالدول الكبرى وتصرخ لأتفه الأسباب، أما الأكراد فهم على النقيض من ذلك، أقوياء جبابرة غلاظ شداد، رعاة، يعيشون في هذه الولايات منذ أقدم العصور، لذا فهم ينظرون إلى الأرمن نظرتهم إلى الأجانب، فالأكراد هنا هم السادة والأرمن عبيد)[2].

والحقيقة التي لا شك فيها أن العثمانيين معذورون تجاه هذا الموقف: كيف يمكن معالجة ثورة أقدم أهلها على فرض دولة مستقلة تحمل الشعار الصليبي وتعادي الإسلام والمسلمين وتتعاهد مع أعداء الدولة وتأخذ المساعدات لتضرب الدولة العثمانية؟؟، فهل من المعقول أن تقف الدولة العثمانية موقف المتفرج؟؟.

* * *

---

(١) انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان ١٤٧.

(٢) السلطان عبدالحميد، مذكراتي السياسية ٤٧.

المبحث الثالث

حياته وسيرته

هو السلطان ابن السلطان عبدالحميد خان الثاني، ابن السلطان الغازي عبدالمجيد خان.

ميلاده:

ولد السلطان عبدالحميد الثاني سنة ١٢٥٨ هجرية[١]، ويوافق يوم ولادته يوم الأربعاء ٢١ أيلول عام ١٨٤٢ ميلادية، وهو ابن السلطان عبدالمجيد من زوجته الثانية، فقد أمه ولم يتجاوز عمره سبع سنوات، تعلم اللغتين العربية والفارسية ودرس كثيراً من الكتب الأدبية على يد أساتذة مختصين[٢].

وقد ظُلم السلطان عبدالحميد حتى في ميلاده فطعن في أصل أمه، فيذكر المستشرق كارل بروكلمان أن أم السلطان عبدالحميد أرمينية[٣]، وكأنه يتساءل عن السبب في عدم تقريب السلطان للعنصر الأرمني وتفضيل الأكراد رغم أنهم أخواله!!

أما ماري ملزباتريك فتقول: (كان عبدالحميد أحد أولاد عبدالمجيد الذين تولوا العرش، وعندما أقول الأشقاء الأربعة في تركيا أعني غير ما نعرفه نحن في

---

(١) انظر: الدرر البهية في فضل العرب ومآثر الدولة العثمانية، الشيخ عبدالحميد الشافعي ٢٥.

(٢) انظر: مقدمة عبدالحميد الثاني، مذكراتي السياسية ١٢.

(٣) انظر: تاريخ الشعوب الإسلامية ٥٩٥.

أميركا لأن الشقيق في تركيا يكون لأم أو لأب، وبعدما عرفت أخلاق عبدالحميد بدأت الشائعات تدور حول مولده فذهب بعضهم على أنه ابن راقصة أجنبية جاءت القصر فاحتفظ بها السلطان، أما المصادر الرسمية فلا تتعرف لميلاده بما يريب)[1]، تنقل ماري ملزباتريك هذه الشائعات وتثبتها في كتابها ولا أحد يشك مدى الحقد الذي يضمره ضعاف النفوس بشخص السلطان، ولا يستبعد أن ماري قد قصدت من إيراد ذلك أن تنال شيئاً من شخص السلطان العفيف النفس النقي السريرة.

وهناك قصة أغرب تثير الشكوك حول السلطان الذي ظلمه التاريخ ترويها هذه المرة الدكتورة (ألما وتلن) حيث تذكر في معرض حديثها عن ميلاد السلطان (أن أم السلطان عبدالحميد اسمها «حاجي» وكان السلطان يحبها حباً شديداً خاصاً، حتى أنه اضطر لتجنبها أخيراً سواء بسبب الشبع أو الإجهاد).

ثم تقول: إن السلطان عبدالمجيد والد السلطان عبدالحميد لما جاءت بشرى ولادة غلام له أرسل هدايا لأم الطفل الجديد ثم أهمل الطفل، حيث (انقضى اليوم التالي للولادة بدون أن ينال الطفل اعتراف السلطان الرسمي ببنوته، ومرت سبعة أيام أخرى بلياليها، بدون كلمة حاسمة من السلطان.. إلا أنه في اليوم الثامن صدر فرمان سلطاني يعلن بنوة الطفل الجديد الذي سمي بـ«عبدالحميد»).

ثم تقول: (وظل منشأ الطفل مشكوكاً فيه، وكان يغذي هذا الشك تلك القصة التي تناقلتها نساء الحريم اللواتي لم يكن أحد أشد حباً منهن للقيل والقال عن نسبة الطفل لأب أرمني يدعى بدروس، وسرعان ما برزت إشاعة جديدة داخل جدران الحريم، مؤداها أن الأب الأرمني قد اختفى ليس فقط من الحريم، بل من وجه الأرض)[2].

(١) انظر: سلاطين بني عثمان الخمسة ٨٢.
(٢) انظر: عبدالحميد ظل الله على الأرض ١٦.

سبحان الله، كأن تأخر صدور الفرمان السلطاني بتسمية المولود الجديد يعني أن السلطان عبدالمجيد أنكر هذا الطفل في البداية ولم يعترف ببنوته رسمياً، فلو أنكر هذا الطفل لما أرسل الهدايا لأم الطفل الجديد منذ البداية كما ذكرت الدكتورة ألما وتلن كأنها تناقض نفسها.

أما قولها إنه لأب أرمني فهي جريمة تذكرها في كتابها إذ تسوق من الشائعات كما تقول عن حريم القصر ما لا ينبغي ذكره.

والذي لا نشك فيه أن إيراد هذه الشائعات مفادها إلصاق الشبه بميلاد السلطان الذي أمضى حياته في خدمة الإسلام والمسلمين وإثارة البلبلة في حقيقة شخصيته.

وقد تربى عبدالحميد في حجر والدته التي كانت تسر لذكائه وحدة ذهنه، فلم تنشئه على الخوف والغضب أو القصاص، بل على الحب الذي كانت تمنحه منه المزيد على مر الأيام، إلا أن والدته توفيت عام ١٨٤٩ مريضة بالسل وهي بعد في عامها السادس والعشرين، فأخذته والدة عمه عبدالعزيز ولي العهد وأصغر إخوة السلطان واسمها مدام برتفالي[1].

وقد تربى عبدالحميد كغيره من أبناء القصر، وإن كانت هناك ظروف أحاطت به في نشأته، لا كما تقول الدكتورة ألما وتلن من أنه (لم ينشأ تنشئة لائقة، فلم يذهب إلى مدرسة ولم يتلق ثقافة منظمة، رغم ذكائه الواضح، فكان يرضي غريزة حب الاستطلاع (أو لعلها كانت رغبة حقيقية للعلم والمعرفة؟) بما كان يلتقطه من هنا وهناك)[2].

ليس معنى ذلك أن أباه لم يوفر له المربي الناصح الذي يقوم بتربيته، لكن الظروف التي أحاطت به هي التي أملت عليه عيشة الانطواء والحذر، وعبدالحميد يصف حياته الأولى بقوله: (لعلهم ينسون الظروف التي نشأت

(١) انظر: عبدالحميد ظل الله على الأرض ١٧، ٢٥، ٢٨.
(٢) نفس المصدر السابق ٣٩.

وترعرعت فيها، لقد عاش إخوتي من بنين وبنات حياة مليئة بالعطف والدلال، بينما كان أبي يعاملني معاملة سيئة وقاسية لأسباب أجهلها، لم يعطف عليّ سوى أخي مراد المسكين، كانت حياتي منذ بدايتها متسمة بالجدية، ما أحببت اللعب أبداً، بدأت أفكر في الكون والوجود وأنا في مقتبل العمر، وكان حبي للخيال سبباً في تعرضي لزجر أساتذتي وتكدير والدي، وقد أدى تفهم الناس لأفكاري إلى انطوائي على نفسي انطواءً كاملاً[1].

وقول السلطان أكبر دليل على أن حياته الأولى قد تعرضت لظروف لازمته بقية حياته كالانطواء مثلاً، وقد دعي عبدالحميد وهو أمير إلى رحلة صوب أوروبا ولا شك أنه استفاد كثيراً من هذه الرحلة وخرج بدروس كثيرة كانت نبراساً له أثناء حكمه، إذ اطلع على التقدم المادي الكبير الذي تعيشه أوروبا وعرف أخطاء الأوروبيين ومدى تأخر العثمانيين من النواحي الحضارية في العلوم والتكنولوجيا التي ينبغي الأخذ بها لتواكب التقدم الكبير الذي يشهده العالم في مختلف القطاعات، ولا شك أن ذلك لا يتم إلا بتمسكنا بكتاب الله وسنة رسوله اللذين حثّا على طلب العلم والمعرفة.

متى اعتلى عبدالحميد عرش السلطنة؟

سبق جلوس السلطان عبدالحميد عرش السلطنة اثنان من السلاطين ذهبا ضحية سوء تصرف حاشية قصره، واستخدموا نفوذهم للتلاعب بأحاسيس السلاطين، وأحاطوهم بظروف أخذت بمشاعرهم فتصرفوا تصرف الضعيف فكانوا ضحية تصرفاتهم التي جُبِروا عليها بلا شك.

أما السلطان عبدالعزيز فقد ذهب ضحية إخلاصه لوطنه وقد اجتمعت الدول الأوروبية على خلعه بعد أن بثوا بواسطة سفرائهم في الآستانة يلقون الوساوس في عقول السذج من أهل الآستانة. وينسبون السلطان للتبذير والإسراف وعدم الأهلية لإدارة مهام الملك، وربما استعان هؤلاء بطرق أخرى

(١) السلطان عبدالحميد الثاني، مذكراتي السياسية ٢٠٩.

مختلفة، وما زالوا يوسوسون ويلقون الفساد حتى أقنعوا الوزراء بوجوب عزله، وإن إقالته من الأعمال واجبة لانتظام الدولة وسيرها على المحور المستقيم[1]، واستطاعوا أن يوصلوا إلى مآربهم بعد أن ألصقوا التهم بالسلطان عبدالعزيز، وأدرك الوزراء أن تولية سلطان مطيع هو مأربهم يسيّروه على حسب أهوائهم، ففي يوم الثلاثاء ٧ جماد الأول سنة ١٢٩٣ خلع السلطان عبدالعزيز بموجب فتوى أصدرها شيخ الإسلام[2]، وأخذ السلطان المخلوع إلى سراي جرغان حيث توفي فيها، وقد تعددت الروايات في كيفية موته وقد قيل أن السلطان استعار مقصاً من إحدى نسائه فلما فرغ من تشذيب لحيته قطع به شرايين معصميه[3].

وبعد خلع السلطان عبدالعزيز تولى محمد مراد الخامس السلطنة، أعقب ذلك ورود الأخبار بأن عصيان بوسنه وهرسك امتد إلى الصرب والجبل الأسود والبلغار وبغدان، حيث شهروا السلاح في وجه عساكر الدولة جهاراً[4]، كل الظروف العصيبة أحاطت بالسلطان الجديد، فأصيب بمرض أضحى بعده لا يميز الوزراء من بعضهم وأخفى الصدر الأعظم رشدي باشا الأمر وأخذ يسير دفة الحكم لكن امتناع السلطان عن حضور الاحتفالات الرسمية أدخل الريب في نفوس الأمة، وعلى الرغم من اهتمام الأطباء بعلاجه فإن حصول الخلل في شعور السلطان ازداد يوماً بعد يوم، فتشاور الوزراء ثم عرضوا الأمر على أخيه الأمير عبدالحميد أفندي ليستلم مقاليد الدولة فنصحهم بالتأني وعدم التسرع في الأمور، لكن الأطباء قرروا إصابته بداء عضال لا يرجى شفاؤه.

وبعد أن استفتوا شيخ الإسلام دولتلو خيرالله أفندي فأفتى بالجواز وقد نصت الفتوى (إذا جن إمام المسلمين جنوناً مطبقاً ففات المقصود من الإمامة

(١) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية ٥٧٥ ـ ٥٧٦.
(٢) انظر: التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية ٢١٠.
(٣) انظر: عبدالحميد ظل الله على الأرض ٦٤.
(٤) انظر: التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية ٢١٠.

فهل يصح حل الإمامة اهـ. الجواب: يصح والله أعلم، كتبه الفقير حسن خيرالله عفى عنه)[1].

امتنع عبدالحميد عن قبول السلطنة أول الأمر وعلم أن أخاه مراد الذي كثيراً ما كان يطلق عليه «الأخ المنكود»[2] مكبّلٌ من قبل الوزراء وأنه لا حول له ولا قوة، فالوزراء تولوا تصريف شؤون الأمة أما مراد فقد بقي سجين العرش منطوياً على نفسه مختلاً في شعوره مصاباً بالفزع.

بقي مراد ثلاثة أشهر عبئاً ثقيلاً[3] إلى أن صدر قرار خلعه بفتوى شرعية من شيخ الإسلام، وبعدها أرسلوا في طلب مولانا الجديد فحضر إلى سراي طوبقبو وبايعه الحاضرون، ومنها إلى سراي بشكطاش حيث بايعه جميع من حضر من العلماء وغيرهم، أما السلطان مراد فتوجه إلى سراي جرغان التي كان بناها المرحوم السلطان عبدالعزيز وتوفي فيها، ثم أخطرت الولايات وزينت المدينة ثلاثة أيام توالى فيها إطلاق المدافع في الأوقات الخمسة من الطوابي والمراكب الحربية[4]، وكان ذلك في يوم الخميس المبارك الحادي عشر من شهر شعبان سنة **١٢٩٣** الساعة ٤ والدقيقة ٣٠[5]، ثم تبع ذلك التقليد الرسمي يوم ١٨ شعبان سنة **١٢٩٣**هـ[6].

سياسة عبدالحميد بعد اعتلائه العرش:

تولى السلطان عبدالحميد العرش وهو في الرابعة والثلاثين من عمره، كان ذكياً وكان كثير العمل، ولكن كانت الفترة السابقة على توليه العرش خليطاً من الحياة الجافة في القصور والزيارة الرائعة لأوروبا، وكان شديد الخوف حذراً من

(١) انظر: التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية ٧٢٨.
(٢) عبدالحميد ظل الله على الأرض ٦٦.
(٣) سلاطين بني عثمان الخمسة ٨٢.
(٤) تاريخ الدولة العلية العثمانية ٥٨٧.
(٥) التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية ٢١١.
(٦) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية ٥٨٧.

كل إنسان[1] ولا شك فهو معذور في ذلك، ومهما قيل عنه فهو سلطان جلد كان ارتقاؤه العرش في آن شديد عصيب، فقد كانت الدولة على أبواب الحرب العثمانية الروسية، وكانت الحكومة في أيدي عصبة من الساسة يسعون سعي المصلحين في تجديدها على الطراز الحديث، والنهج بها على المناهج السياسية الدستورية الغربية، فلما أخذ عبدالحميد بأزِمَّة الأمور نقض ذلك نقضاً واهتبل سانحة تضعضع الدولة عند الخروج من الحرب الروسية، فألغى مجلس النواب وجعل نفسه السلطان المطلق لا تعلو يده يد، له الأمر والنهي وحده، ولما استوثق له الأمر شرع يقوم بسياسته الخاصة التي نحا بها منذ أول الأمر منحى الجامعة الإسلامية[2]، تلك الجامعة التي نادى بها عبدالحميد على أساس الوحدة الإسلامية، فأخذ يوصف تبعاً لتبنيه فكرة الجامعة الإسلامية (لؤلؤة سلاطين آل عثمان، والنجمة اللامعة في سماء الخلافة)[3]، لكن الظروف التي اعتلى فيها عرش السلطنة ليست بالسهلة، يقول السلطان عبدالحميد يصف حاله بعد اعتلائه للعرش: (وعندما اعتليت كرسي الحكم خلفاً لأخي وجدت نفسي محاطاً بأناس يريدون تقييدي بشباك من المؤامرات والدسائس ولكي أحافظ على حياتي وعرشي قررت أن أبرِّد مكرهم بمكر أدهى وأمرّ، ولقد عرفت ـ وليتني ما عرفت ـ طباع الناس في حبهم المنحرف لملذات الحياة وارتضاءهم الذل في سبيلها، كنت أشعر بالقرف من التزلف الذليل، فإذا كان ابتعادي عن الناس صحيحاً فذلك هو النتيجة الطبيعية لما تعرضت له في هذا الحياة، أما الذين يعرفونني من قرب فإنهم يعرفون أنني رجل لين طيب القلب كما أن حياتي العائلية تثبت بأنني رحيم القلب ومحتاج للحب والعطف)[4].

قلنا أن عبدالحميد تولى الحكم في ظروف بالغة الخطورة، لا سيما مؤامرات

(١) انظر: الشعوب الإسلامية ٢٠٠.
(٢) انظر: حاضر العالم الإسلامي، لوثروب ستودارد الأميركي ١/٣٠٩.
(٣) انظر: عبدالحميد ظل الله على الأرض ١٧٦.
(٤) السلطان عبدالحميد، مذكراتي السياسية ٢١٠.

الدول الأوروبية التي كانت قد انتهت يومئذ من وضع عشرات المشاريع لتحطيم الدولة العثمانية والقضاء عليها وتوزيع أملاكها.

لكن هيهات لعبدالحميد أن يترك الأمور تسير حسب هوى الأعداء فقد سارع على سياسة حفظ الامبراطورية من الضياع وقبول الأمر الواقع كما حدث يوم قبوله الدستور، ورغم أن الدستور قد فرض عليه من قبل أشخاص ادعوا الإصلاح، إلا أنه لم يكن محباً للدستور، بل كان معادياً له، ومع هذا وجد نفسه يأتي إلى العرش كأول سلطان دستوري في تاريخ الدولة العلية العثمانية، فانتظر الظروف حتى تخلص من الدستور ومن واضعه مدحت باشا كما أسلفنا ذلك[1].

واتبع سياسة التروي وضبط النفس فلم يكن ليتخذ أمراً دون تفكير، ورث دولة مفلسة لا حول لها ولا قوة، فوجّه أول جهوده نحو إيجاد حل لمشكلة الديون الأهلية وكان مقتنعاً بأن دول أوروبا لن تتحد ضده إلا في حالة واحدة فقط، هي أن يكون مديناً بالنقود للجميع في نفس الوقت، كانت ديون تركيا لأوروبا قد بلغت رقماً هائلاً يزيد على أربعة مليارات فرنك، فقرر عبدالحميد سدادها بكاملها إذ أن كل جنيه يعيده إلى أوروبا كان عاملاً في سلامة حدوده.

لقد جفت مصادر الإيرادات القديمة، وفقد أكثر الجزية البلقانية بعد استقلال الولايات السلافية، ومن ناحية أخرى كان على تركيا أن تدفع إلى روسيا غرامة قدرها ٣٠٠ مليون فرنك، ولم يكن قد بقي شيء لسداد هذه المبالغ الضخمة سوى اقتصاديات تركيا الآسيوية البدائية[2].

تقول المصادر: إن الديون المترتبة على الدولة تبلغ ٢,٥٢٨,٠١٠,٨٨٥ ليرة عثمانية فاستعد عبدالحميد لمجابهة الموقف، ولكي يرد من اعتبار الدولة تجاه الدول الأجنبية استقدم عدداً من الخبراء الماليين الأوروبيين، فأعدوا له تقريراً حول إمكانية وفاء هذه الديون.

---

(١) انظر: الشعوب الإسلامية ٢٠٠.
(٢) انظر: عبدالحميد ظل الله على الأرض ١١٤.

وعندما تقرر تشكيل إدارة الديون العامة كان إجمالي هذه الديون قد انخفض إلى ١٠٦,٤٣٧,٢٣٤ ليرة عثمانية[1].

تجاه هذا الموقف الصعب ما كان من السلطان إلا أن اتبع سياسة إصلاحية بدءاً بالوضع المالي المتردي والعمل على تحسينه بشتى الطرق، فبدأ بنفسه وأهل بيته، إذ أصدر أوامره المشددة بمنع الإفراط في تحضير الأطعمة الملكية، بينما كان فائض الأطعمة وفتات الموائد يكفيان في الماضي لإطعام حي من أحياء القسطنطينية بأكمله، وقد رفض السلطان باباء أن يقدم عشرات الألوف من الجنيهات للإنفاق على حفلات ختان أولاده أو زواج بناته، بينما كانت تبتلع هذه الاحتفالات في الماضي مئات الألوف، لقد كان عبدالحميد أول شرقي فهم أهمية النقود وقوتها في العصر الحديث[2]، وكان ان اتبعه وزراؤه واقتدى بهم الشعب نتيجة لهذه السياسة التقشفية التي اتهم فيها السلطان بالشح لكنها سياسة أدت تدريجياً كما نلاحظه عند الحديث عن إصلاحاته إلى تحسّن وضع الدولة في مواجهة شبح الديون.

تلك أول خطوة خطاها في سياسته ثم أخذ يطوّر في سياسته الإسلامية والعربية ليس لاقتناعه بها فحسب، وإنما كان من أجل تحقيق تطلعاته السياسية، لأنه من خلالها يستطيع استعمال (ورقة رابحة) في مواجهة الدول الأوروبية[3] فما كان من السلطان إلا أن أخذ يفكر جدياً في إعادة تنظيم الدولة وإنقاذها مما وقعت فيها من المحن والكوارث، وخطط لذلك الإنقاذ بالأمور الآتية:

١ ـ كما أسلفت فرض سياسة اقتصادية متقشفة على مصروفات الدولة بدأها بنفسه وأسرته وأركان رجالات الدولة وانتقل من قصر (دولمة باقجة) الضخم إلى القصر (يلدز) وبذلك غدا مثلاً للشعب كله في قلة الإنفاق والزهد في متع الحياة.

---

(١) مذكراتي السياسية ١١ ـ ١٢.
(٢) انظر: عبدالحميد ظل الله على الأرض ١١٥.
(٣) انظر: موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ٢٨٠.

٢ ــ اتبع سياسة موازنة هادئة ودقيقة مع الدول الأوروبية، قصد إبعاد الدولة العثمانية عن الحروب التي لم تكن مهيئة للدخول فيها، ولأن الإصلاح في رأيه لا يتم إلا في ظروف سلام.

٣ ــ استطاع بحنكته السياسية وسماحته الإسلامية أن يتودد إلى زعماء الأقليات الدينيّة والقومية، فقضى على جانب كبير من ثوراتها وحركاتها.

٤ ــ أنشأ جهاز مخابرات قوي جداً نفذت إلى أعماق الدول الأوروبية ومؤسساتها بحيث كان على علم بكل ما كانت تدبره الدول الأوروبية ضد الدولة العثمانية مقدماً وكان يتخذ من الخطط الكفيلة لمجابهتها وكان ينجح في تنفيذ تلك الخطط في معظم الأحيان.

٥ ــ لم يكن مستبداً بقرار من قرارات الدولة، على عكس ما نشره عنه أعداؤه بعد عزله، وقد اتبع بالنسبة لظروف زمانه سياسة شورية إسلامية صحيحة، حيث كان يعرض أي قراراً يريد أن يتخذه على كبار رجالات الدولة والعلماء والمفكرين والمختصين والفنيين، وبعد مناقشات مستفيضة كان غالباً يأخذ بقراراتهم أو يشكل لجاناً جديدة لمناقشتها وإعطاء الرأي النهائي فيها، ولقد أدت سياسته هذه إلى تبنّي الرأي الموضوعي الصائب، فمكّنه من القضاء على كثير من مشاكل الدولة الاقتصادية والعسكرية والإدارية والتربوية.

٦ ــ كان عبدالحميد رجلاً متديناً منذ صغره وكان موقناً بأن الدولة العثمانية لا تنقذ إلا باللجوء إلى الجامعة الإسلامية التي تربطها مع المسلمين جميعاً برباط الإسلام، للوقوف وحدة متراصة أمام مؤامرات الدول الاستعمارية، ولقد ثبت أن الدول الاستعمارية في مواقعها كانت تضع دائماً في حسبانها مسألة الجامعة الإسلامية وخطرها عليها وعلى سياستها.

٧ ــ كان رجلاً مسالماً لا يحب سفك الدماء، ولم يكن يتدخل قط في أمور القضاء ولم يعامل خصومه معاملة غير شرعية.

٨ ــ انتبه عبدالحميد إلى مخطط اليهودية للاستيلاء على فلسطين عن طريق

شراء الأراضي وهجرة اليهود فأصدر أمراً بإلحاق إدارة (سنجق) القدس بالباب العالي مباشرة، ووقف فيها بعد بصلابة أمام المؤامرة اليهودية، مما أدى إلى عزله...[١].

ونتيجة لهذه السياسة المتزنة فقد استطاع السلطان عبدالحميد أن يحفظ الدولة من الضياع فجمع شتاتها ووحَّد كلمتها وأظهر مرونة مع خصومه في الداخل فكان يتعقبهم ليتعرف على أهدافهم ونقاط ضعفهم بحيث يتمكن من ملاطفتهم وتلبية رغباتهم.

فمثلاً انتهى من ثلاثة خصوم بجرة قلم، هم حلمي طونالي وعبدالله جودت وإسحاق سكوتي، عيّن حلمي كاتباً ثالثاً في سفارة مدريد فأنساه مطالبته بالحكم النيابي، وعين عبدالله جودت طبيباً في سفارة فيينا، فلم يبق فيه أثر الثورية، وأعطى لإسحاق سكوتي درجة دكتوراه في الدبلوماسية بلندن[٢].

كما أظهر مرونة فيها الحذر مع خصومه في الخارج، فلم يصطدم معهم مباشرة بل استعمل كل دهاء وحيلة ليبعدهم عن دولته المتهالكة ريثما يقوى عودها، رافضاً كل المقاييس الأوروبية متمسكاً بالأسس الإسلامية وهو ما صرح به (لا يجوز أن تقاس بلادنا بمفاهيم أوروبية، أن بنية المجتمع في بلادنا بنية دقيقة للغاية، كلُّ حركاتنا وتصرفاتنا يجب أن تنطلق من هذا الأساس وإلا فكيف يمكننا أن نجعل أقواماً بدائيين يعيشون بجرة قلم عيشة أوروبية محضة)[٣].

وأعداء الدولة في الخارج كانوا أكثر خطراً وتحركاً ضد الدولة، وكانت الدول الأوروبية وكراً لهؤلاء الأعداء وكان عبدالحميد يعلم علم اليقين أن هؤلاء الأعداء يمكن تقييدهم ليتمكن من التفرغ لمواجهة النفوذ الغربي، ففي مواجهة الاستعمار درء لخطرهم وخطر الغرب في آن واحد، فكانت نظرته ووسيلته

---

(١) انظر: جمال‌الدين الأفغاني المصلح المفترى عليه، د. محسن عبدالحميد ١٣٤ ــ ١٣٦.

(٢) انظر: أسرار الانقلاب العثماني. ٢٨ ــ ٢٩ ــ الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ.

(٣) السلطان عبدالحميد الثاني، مذكراتي السياسية ٨٩.

الأساسية لمواجهة النفوذ الاستعماري هي تجمع المسلمين في كل مكان تحت جناح الخلافة الإسلامية الذي تحمل لواءه الدولة العثمانية الجامعة في كيانها بين العرب والترك، ومن هنا فقد كان على السلطان العثماني الذي هو خليفة المسلمين أن ينادي المسلمين في جميع أنحاء الأرض أن يقفوا معه في صف واحد في مواجهة النفوذ الغربي ومن هنا كانت صيحته المعروفة المشهورة التي هزت الغرب كله (يا مسلمي العالم اتحدوا)(١).

هذا فيما يختص بالسياسة العامة لعبدالحميد، وقد وضع خطواتها العريضة منذ توليه العرش لكن للأسف الشديد لم يتفهمها شعوب الدولة العثمانية ولا وزراؤه المقربون منه نتيجة لعدم فهم مقاصده ومراميه، فقد كانت سياسته بعيدة المدى ليست وقتية بل سياسة تقبل كل الظروف، سياسة تحفظ كرامة الدولة العثمانية الإسلامية وتدفع بكيد الكائدين، يقول سعيد الأفغاني عن السلطان عبدالحميد: (يرحم الله عبدالحميد لم يكن له في مستواه وزراء ولا أعوان ولا شعب، لقد سبق زمنه وكان في كفايته ودرايته وسياسته وبعد نظره بحيث استطاع وحده بدهائه وتصرفه مع الدول تأجيل انقراض الدولة ثلث قرن من الزمان، ولو وجد الأعوان الأكفياء والأمة التي تفهم عنه لترك للدولة بناء من الطراز الأول)(٢)، فلو وجد الآذان الصاغية لما آلت الدولة إلى ما آلت إليه من التفكك ولما ضاعت أجزاء الدولة، ولما رفعت الدول الأوروبية رأسها ولما ظهر تمرد داخل ولايات الدولة بغية الاستقلال والانفصال عن جسم الدولة الإسلامية رغم ما بذلته الدولة تجاه هذه الولايات خاصة العربية منها في سبيل سيطرة الدولة عليها بتقسيم بلاد الشام في ١٨٨٧ إلى ثلاث ولايات وصنجقين: ولاية حلب في الشمال، ولاية بيروت في الغرب، وولاية سورية في الشرق، ثم صنجق لبنان وصنجق القدس، وقسم العراق كذلك إلى ولايات ثلاث: الموصل في الشمال، وبغداد في الوسط، والبصرة في الجنوب، أما في الجزيرة العربية فقد

(١) انظر: تصحيح أكبر خطأ في تاريخ الإسلام الحديث ١٣.
(٢) انظر: مجلة العربي، العدد ١٦٩ كانون الأول ١٩٧٢، ص ١٥٧.

عين والٍ للحجاز في ١٨٤١، وأخفقت حملة في إخضاع اليمن في ١٨٤٩، ونجحت أخرى جزئياً في حوالي ١٨٧٥ بعد شق قناة السويس، واستعادت الدولة العثمانية سيطرتها على بعض المدن الرئيسية...(١).

لكن الرياح تأتي بما لا تشتهيه السفن، فأفلت زمام الأمور من يد السلطان في أواخر عهده نتيجة لسياسة الضغط التي اتبعتها الدول الأوروبية عملاء اليهود الماسونيين الذين بذلوا الغالي والرخيص في سبيل تقويض الدولة، ولا يتم ذلك إلا بإقالة السلطان عبدالحميد الذي تنبه لمحافلهم وأخطارها رغم أن أسرارها وخلفياتها ظلت خافية على المسلمين والعرب حتى سقوط السلطان عام ١٩٠٩ وقيام حكم الاتحاديين ربائب المحافل الماسونية الذين احتوتهم الصهيونية العالمية لخدمة أهدافها(٢).

وكان السلطان عبدالحميد قد تنبه لهذا الوضع منذ البداية فأسرع باتخاذ تدابير وقائية لحماية الدولة من الضياع وهذا ما فعله منذ توليه السلطة، فقد كانت الظروف متاحة له بعد أن فرض عليه الدستور، فاستخدم لقب خليفة بصورة رسمية، في دستور سنة ١٨٧٦ واستمر يستخدمه بعد ذلك(٣)، ولم يعارض واضعوا الدستور عليه ولم يتنبه الأعداء إليه وهو يعلم أنه سلاح يمكن استخدامه لجمع كلمة المسلمين وراء السلطان الخليفة، لمقاومة الأطماع الأوروبية، إلى جانب مقاومة الحركات القومية والانفصالية والدستورية، التي بدأت تظهر في الممتلكات العثمانية في ذلك الوقت، ومنها الحركة القومية(٤)، كما كان يهدف من لقب الخليفة إرهاب بريطانيا بخاصة وكانت تحكم ملايين المسلمين في الهند، وذلك بإعلان الجهاد ضدها، وأفاد ذلك فيما بعد حين

(١) انظر: العرب والعثمانيون ٥٣٢.
(٢) انظر: المخططات التلمودية اليهودية الصهيونية ١٩٩.
(٣) انظر: بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت، للدكتور عبدالكريم رافق ٦١.
(٤) انظر: حركة اليقظة العربية في الشرق الآسيوي، د. محمود صالح منسي ٣١.

احتلت بريطانيا وفرنسا وروسيا وهولاندا مناطق إسلامية[1] وقد نوه السلطان بهذه القوة في مذكراته بقوله: (إن كل إنسان يدرك أن كلمة واحدة مني بصفتي خليفة للمسلمين تجعل حكم الإنكليز في الهند في مهب العواصف)[2].

لكن من كان يقدر هذه القوة غير الأعداء أما أبناء الأمة فقد تغافلوا عن تلك القوة التي يملكونها في شخص خليفتهم، إذ لو أطاعوه لما حدث لهم هذا التفرق وهذا الضياع، ولما سلموا أنفسهم إلى مخالب الأسد جمعية الاتحاد والترقي ربيبة الماسونية.

خلع السلطان عبدالحميد:

ذكرت في أثناء حديثي في مبحث أبرز الأحداث في عهد السلطان عبدالحميد عن جمعية الاتحاد والترقي التي كانت لها الأثر الكبير في خلع السلطان عبدالحميد فبعد أن أجبروه على إعادة الدستور أثاروا البلبلة في الولايات التركية ضده، ومن ثم اتخذ حزب الاتحاد والترقي الذي كان يقوده في الخفاء كبار الماسونيين من اليهود قرار عزله في سلانيك، وقد أثبتت الوثائق التي نشرت أخيراً هذه الحقيقة، منها تقرير السفير الإنجليزي في الآستانة إلى حكومته عن الانقلاب العثماني سنة ١٩٠٩م[3].

وقد نفذت خطوات اتخذتها جمعية الاتحاد والترقي لإسقاط السلطان عبدالحميد، كانت آخر تلك الخطوات في المؤتمر الذي عقدوه عام ١٩٠٧م وقد شملت مقرراته على الآتي:

(أ) إجبار السلطان عبدالحميد على ترك العرش.
(ب) تبديل الأدوار الحاضرة من أساسها.
(ج) تأسيس أصول المشروطية والمشورة[4].

---

(١) انظر: العرب والعثمانيون ٣٨٣.
(٢) السلطان عبدالحميد الثاني، مذكراتي السياسية ١٤٦.
(٣) انظر: جمال الدين الأفغاني المصلح المفترى عليه ١٣٦.
(٤) انظر: موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ٢٩٤.

ومن ثم كان التمرد على حكم السلطان بقيادة الماجور أحمد نيازي، وانضم إليه أنور باشا ومصطفى كمال وآخرون بحجة أن السلطان قبل طلباً للروس والإنجليز بوجوب تعيين أوروبيين على رأس المحاكم المقدونية، وأرسلوا التهديدات بوجوب أن يرضخ السلطان لمطالبهم، وقد تأثر تأثراً عميقاً من أحداث ١٩٠٨م والظروف التي صاحبتها وعلم يقيناً أن الرضوخ لجمعية الاتحاد لا بد منه وأن هذه الثورة ليست من مصلحة تركيا ولا العرب فصرخ عالياً (ربّاه عاقب هؤلاء المسؤولين عن هذه النكسة)[1].

وفي يوم الثلاثاء السابع والعشرين من شهر نيسان عام ١٩٠٩ اجتمع ٢٤٠ عضواً من مجلس الأعيان في جلسة مشتركة وقرروا بالاتفاق خلع السلطان عبدالحميد، وقد أصدروا فتوى ذات وجهين من قبل شيخ الإسلام محمد ضياءالدين أفندي ووافق عليها مجلس المبعوثان بالإجماع وهذا نصه: (إذا قام إمام المسلمين زيد فجعل ديدنه طي وإخراج المسائل الشرعية المهمة من الكتب الشرعية، وجمع الكتب المذكورة وإحراقها والتبذير والإسراف من بيت المال وإنفاقه خلاف المسوغات الشرعية، وبقتل وحبس وتغريب الرعية بلا سبب شرعي وسائر المظالم الأخرى ثم أقسم على الرجوع عن غيه، ثم عاد فحنث وأصر على إحداث فتنة ليخل بها وضع المسلمين كافة فورد من المسلمين من كافة الأقطار الإسلامية بالتكرار ما يشعر باعتبار زيد هذا مخلوعاً، فلوحظ أن في بقائه ضرراً محققاً وفي زواله صلاحاً فهل يجب على أهل الحل والعقد وأولياء الأمور أن يعرضوا على زيد المذكور التنازل عن الخلافة والسلطنة أو خلعه من قبلهم؟ الجواب: نعم، يجب، التوقيع: كتبه الفقير السيد محمد ضياءالدين عفا الله عنه.

وقد قام بنقل هذه الفتوى وفد ضم كلاً من: أرام أفندي الأرمني، والفريق البحري عارف حكمت باشا، وعمانوئيل قره صو اليهودي نائب سلانيك والعدو الأول للإسلام ومدير المكائد للقضاء على الخلافة الإسلامية،

---

(١) انظر: موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ٣٠٢ ـ ٣٠٤.

وأسعد طوبطاني الأرناؤوطي الذي خان النعمة وخان الوطن. . . قدم هذا الوفد إلى السلطان عبدالحميد فوجده واقفاً على قدميه هادئاً متين الأعصاب، فلما قرأ عارف حكمت باشا الفتوى التي أصدرها شيخ الإسلام ضياءالدين أفندي أجاب السلطان عبدالحميد جواب المؤمن الواثق بربه (ذلك تقدير العزيز العليم) عندئذ تقدم أسعد طوبطاني الأرناؤوطي قائلاً: لقد عزلتكم الأمة، فغضب عبدالحميد وقال: تقصد أن الأمة خلعتني، لا بأس، ولكن لماذا جئتم بهذا اليهودي ـ قصد بذلك اليهودي عمانوئيل قره صو ـ إلى مقام الخلافة[1].

وقد تمَّ خلع السلطان عبدالحميد في يوم ٢٧ نيسان سنة ١٩٠٩م وتتويج السلطان رشاد باسم السلطان محمد الخامس إلى مقام الخلافة والسلطنة[2].

سبب خلع السلطان عبدالحميد (وثيقة بتوقيعه):

أوضح السلطان عبدالحميد رحمه الله سبب خلعه في وثيقة بعث بها إلى الشيخ[3] محمود أبو الشامات شيخ الطريقة الشاذلية، وكان السلطان عبدالحميد قد سار على نفس طريقة الشيخ فيما يتعلق بالأوراد والأذكار بعد أن اطلع على هذه الطريقة من مريدي الشيخ الذين كانوا يعملون في قصره، فأعجب بهذه الطريقة وسار عليها حتى بعد خلعه، وكان من محبته للشيخ أبو الشامات أن بعث بهذه الرسالة يوضح فيها للشيخ سبب خلعه وقد احتفظ الشيخ بهذه الرسالة التي بعث بها السلطان إليه بعد خلعه سراً مكتوماً طول عهد الاتحاديين، حتى إذا زال الحكم التركي عن سورية أطلع عليها بعض خلصائه، ثم حافظ عليها بعد وفاته أبناؤه من بعده، وقام بترجمتها الشيخ أحمد القاسمي مدير أوقاف الجمهورية السورية سابقاً، وإليك الرسالة المترجمة:

(١) انظر: أسرار الانقلاب العثماني ٩٠ و٩١ و٩٢.

(٢) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية ٧٠٨.

(٣) الشيخ محمود أبو الشامات هو: محمود بن محيي الدين بن مصطفى أبو الشامات الدمشقي الحنفي (١٢٦٦ ـ ١٣٤١هـ = ١٨٥٠ ـ ١٩٢٢م) متصوف، أديب كان شيخ الطريقة الشاذلية اليشرطية بدمشق، له شرح التائية الكبرى، أربعة مجلدات، ولد وتوفي في دمشق، انظر مجلة العربي الكويتية العدد ١٦٩، شهر شوال ١٣٩٢هـ، ص ١٥٤.

ياهــو

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد رسول رب العالمين وعلى آله وصحبه أجمعين والتابعين إلى يوم الدين.

أرفع عريضتي هذه إلى شيخ الطريقة الشاذلية إلى مفيض الروح والحياة إلى شيخ أهل عصره الشيخ محمود أفندي أبي الشامات، وأقبل يديه المباركتين وراجياً دعواته الصالحة.

بعد تقديم احترامي أعرض أنني تلقيت كتابكم المؤرخ في ٢٢ مايس من السنة الحالية وحمدت المولى وشكرته أنكم بصحة وسلامة دائمتين.

سيدي:

إنني بتوفيق الله تعالى مداوم على قراءة الأوراد الشاذلية ليلاً ونهاراً وأعرض أنني ما زلت محتاجاً لدعواتكم القلبية بصورة دائمة.

بعد هذه المقدمة أعرض لرشادتكم وإلى أمثالكم أصحاب السماحة والعقول السليمة المسألة المهمة الآتية كأمانة في ذمة التاريخ:

إنني لم أتخلَّ عن الخلافة الإسلامية لسبب ما، سوى أنني ـ بسبب المضايقة من رؤساء جمعية الاتحاد المعروفة باسم (جون تورك) وتهديدهم ـ اضطررت وأجبرت على ترك الخلافة.

إن هؤلاء الاتحاديين قد أصروا وأصروا علي بأن أصادق على تأسيس وطن قومي لليهود في الأرض المقدسة (فلسطين) ورغم إصرارهم فلم أقبل بصورة قطعية هذا التكليف، وأخيراً وعدوا بتقديم ١٥٠ مئة وخمسين مليون ليرة إنكليزية ذهباً فرفضت هذا التكليف بصورة قطعية أيضاً وأجبتهم بهذا الجواب القطعي الآتي:

(إنكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهباً ـ فضلاً عن ١٥٠ مئة وخمسين ليرة إنكليزية ذهباً ـ فلن أقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعي، لقد خدمت الملة

الإسلامية والأمة المحمدية ما يزيد عن ثلاثين سنة فلم أسود صحائف المسلمين آبائي وأجدادي من السلاطين والخلفاء العثمانيين، لهذا لن أقبل تكليفكم بوجه قطعي أيضاً).

وبعد جوابي القطعي اتفقوا على خلعي وأبلغوني أنهم سيبعدونني إلى (سلانيك) فقبلت بهذا التكليف الأخير.

هذا وحمدت المولى وأحمده أنني لم أقبل بأن ألطخ الدولة العثمانية والعالم الإسلامي بهذا العار الأبدي الناشىء عن تكليفهم بإقامة دولة يهودية في الأراضي المقدسة: فلسطين، وقد كان بعد ذلك ما كان، ولذا فإني أكرر الحمد والثناء على الله المتعال، و أعتقد أن ما عرضته كاف في هذا الموضوع الهام، وبه أختم رسالتي هذه.

ألثم يديكم المباركتين، وأرجو وأسترحم أن تتفضلوا بقبول احترامي بسلامي إلى جميع الإخوان والأصدقاء.

يا أستاذي المعظم:

لقد أطلت عليكم التحية، ولكن دفعني لهذه الإطالة أن تحيط سماحتكم علماً وتحيط جماعتكم بذلك علماً أيضاً، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته)[1].

في ٢٢ أيلول ١٣٢٩ خادم المسلمين
عبدالحميد بن عبدالمجيد

الهدف من إيراد الرسالة:

لقد هدفت من وراء إيراد هذه الرسالة بأكملها أن أوضح أن السلطان عبدالحميد لم يتخل عن الخلافة من إرادة نفسه بل كان مجبراً على تركها، وأن زمام الأمور قد أفلتت من يده، وأن الاتحادين قد طلبوا منه شيئاً مستحيلاً وهو تأسيس وطن قومي لليهود، وقدموا له الرشاوي التي تمثلت في هذا المبلغ

(١) انظر مجلة العربي، العدد ١٦٩ كانون الأول ١٩٧٢ من ١٥٥ ـ ١٥٦.

الضخم الذي ذكره السلطان، وذكر العلة في عدم قبول ذلك حتى لا يسود صحائف المسلمين التي خدمها ما يزيد عن ثلاثين سنة، ويحمد الله على ما آلت إليه خلافته بأن قبل الخلع على أن يلطخ الدولة العثمانية والعالم الإسلامي بهذا العار الأبدي.

وكما نعلم أن السلطان بل والدولة العثمانية قد وقفت في وجه اليهود، وعبدالحميد كان رائداً في صدهم والوقوف في وجههم منذ توليه الخلافة كما أوضحت ذلك في مبحث (أبرز الأحداث في عهده) فيما يتعلق باليهود، وقد كان رفضه لهجرتهم إلى فلسطين بداية لهذا الصدام ثم رفضه لإصدار قانون لهجرتهم بعد ذلك، ومنع إقامة مستعمراتهم ثمناً غالياً دفعه عبدالحميد رحمه الله وهو عرش السلطنة، فقد كان هذا هو (قشة البعير) كما يقولون التي قصمت ظهر هذا الرجل المظلوم[1].

ماذا كان يهدف عبدالحميد من بعثه لهذه الرسالة؟

يقول سعيد الأفغاني وهو يتساءل عن سر هذه الرسالة والهدف الذي كان يرمي إليه السلطان من وراء بعثه لها بقوله: (لقد أراد أن يرمي عصفورين ـ كما يقولون ـ بحجر واحد، وذلك أنه باستشارته العلماء والمشايخ وذوي العقول السليمة يكون قد حرك جهازاً له خطره البالغ في تلك الأيام، فيثير أولئك في خطب المساجد ومجالس الوعظ وحلقات المشايخ الجماهير، وقدسية (فلسطين) حساسة جداً يوم كان للدين حكمه النافذ على القلوب، فيعي الشعب ويغلي ويثور، فتموت فكرة الوطن القومي في مهدها بعد تنبّه الجماهير لها، ويزاح (الانقلابيون) بأهون السبل بعد حصول هذه النوعية وبخاصة في العاصمة والأناضول، وبذا ينقذ السلطان فلسطين ويقضي على الانقلابيين، إذ كان الجيش الذي ساقوه وأوهموه إنما يحاربون به الاستبداد الحميدي سيصبح بعد توعيته وتنبهه للغرض الحقيقي واطلاعه على هوية (الاتحاديين) منقلباً عليهم لا يرضى دون تعليقهم على المشانق لقاء خدعهم وتضليلهم له.

(١) انظر: دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية ١٩٢.

لكن الشيخ أبا الشامات وجماعته وأصحاب السماحة لم يكونوا من الوعي والشعور بالمصالح العليا للأمة بحيث ظن السلطان[1].

آخر أيام السلطان:

لقد فعل السلطان عبدالحميد رحمه الله ما لم يفعله سلطان لمدة قرون خلت، لقد أرهق نفسه في العمل إلى حد الإنهاك والتلف، فكانت تمتد يداه منذ الساعة الخامسة صباحاً إلى العدد الذي لا يحصى من التقارير الموضوعة أمامه، كان يعرف أن المقابلات لم تكن كافية لمدِّه بكل المعلومات التي كان يحتاج إليها عن امبراطوريته وهكذا تكدست أمامه أكوام التقارير المكتوبة التي كان يجلب منها بضعة أكياس إلى القصر كل يوم، وما يكاد ينتهي من تناول طعام خفيف في المساء حتى يرسل ثانية وراء موظفيه، ويستأنف العمل المرهق، وقد بلغ من شدة اهتمامه بشؤون الدولة أنه كان معرضاً لأن يصاب بهزة عصبية فيما لو قيل له أن ليس من جديد، أو أنه لا توجد وثيقة ذات قيمة في انتظاره على المائدة[2].

وكانت له رغبة ملحة في أن يصون نفسه وامبراطوريته لكن الأمور سارت خلاف ما كان يشتهيه، فقد أزيح عن سدة الخلافة والسلطنة وأرسل منفياً إلى سالونيك في يوم ٢٨ أبريل سنة ١٩٠٩، حيث بقي عدة سنوات وسمح له بثلاث سلطانات وأربع محظيات وحاشية لا تتجاوز الثلاثين شخصاً[3]... وأولاده هم: عبدالرحيم ومحمد وعابد، وبناته شادية وعائشة ورافعة، ووضع في قصر الأثيتي الصيفي تحت حراسة فدائيي الاتحاد والترقي، ولما اندلعت حرب البلقان جرى نقله مع حاشيته إلى قصر بكلربكي في استانبول بعد توسط صديقه القديم الامبراطور الألماني ويلهام الثاني، وتوفي في هذا القصر[4] يوم ١٠ فبراير سنة ١٩١٨م، لقد كانت حياته الضعيفة ــ التي كان يبدو عند خروجه من يلدز في عامه السابع والستين ــ أنها على وشك الانطفاء مدة تسعة أعوام أخرى.

---

(١) انظر: مجلة العربي، العدد ١٦٩ كانون الأول ١٩٧٢، ص ١٥٧.

(٢) انظر: عبدالحميد ظل الله على الأرض ٧٩.

(٣) انظر: سلاطين بني عثمان الخمسة ١١٠.

(٤) انظر: أسرار الانقلاب العثماني ٩٣.

وقد كشف الأطباء الذين استدعوا إلى فراشه في فبراير سنة ١٩١٨ عن التهاب في الرئة، وحالة من الضعف العام، وقد توفاه الله بدون مقاومة كبيرة، وهو لا يزال على اعتقاده الذي لم يتحول عنه بأنه كان آخر خليفة وآخر سلطان يدرك حقيقة مستقبل تركيا الذي كان واحداً في ارتباطه مع مصير آسيا والشعوب الإسلامية[1].

توفي في قصر بكلربكي، فجرى لجنازته موكب مهيب ودفن رحمه الله في مقبرة السلطان محمود باستانبول[2].

* * *

---

(١) انظر: عبدالحميد ظل الله على الأرض ٢١٣.

(٢) انظر: أسرار الانقلاب العثماني ٩٣.

الفصل الثاني

أثــره في نشر الدعوة

المبحث الأول : واقع الدعوة الإسلامية في عهده.

المبحث الثاني : أثره في نشر الدعوة داخلياً.

المبحث الثالث : أثره في نشر الدعوة خارجياً.

المبحث الأول

واقع الدعوة الإسلامية في عهده

المجتمع الإسلامي في عهد السلطان عبدالحميد:

إن جميع المجتمعات في كل العصور لا يكون لها تلك الشوكة والمنعة إلا بقوة حكامها وتماسكهم، والمجتمع الإسلامي لم تكن له تلك القوة إلا باتحاد أفراده تحت راية واحدة وسلطان واحد يرعى شؤونها ويسهر على مصالحهم، طاعته واجبة ما لم يأمر بمعصية تنفيذاً لأمر الله ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾[١].

يقول عبدالحميد الشافعي: (إن الدنيا لا تصلح أحوالها ولا تكون منتظمة وأمورها ملتئمة إلا بستة أشياء وهي: دين متبع وسلطان قاهر وعدل شامل وأمن عام وخصب دائم وأمل فسيح وأهمها السلطان، لأنه تتألف من رهبته الأهواء المختلفة، وتجتمع لهيبته القلوب المتفرقة وتنكفّ بسطوته الأيدي المتغالبة، وتمتنع من خوفه النفوس العادية)[٢].

على هذا الأساس وهي ضرورة وجود السلطان شدَّد الشرع الإسلامي على وجوده حتى تلتف حوله أفراد الأمة، والدولة العثمانية وهي دولة إسلامية انتهجت هذا النهج وتَسَمَّى حكامها سلاطين، فتقدموا بجيوشهم نحو المشرق

---

(١) سورة النساء: آية ٥٩.

(٢) انظر: الدرر البهية في فضل العرب ومآثر الدولة العثمانية ١٥.

والمغرب لطرد كل من لا يدين بدين الإسلام من البرتغاليين والأسبان فلم يكن عملهم هذا استعماراً عثمانياً ولا سيطرة تركية[١] كما زعم مَنْ له أهدافه ومراميه.

فتوسعت الدولة العثمانية ودخل في طاعتها أقوام وشعوب من مختلف الجنسيات فأصبحت الدولة العثمانية كما يقول السلطان عبدالحميد (دولة احتوت عدداً كبيراً من الأمم والشعوب، وتشكلت من الأتراك والعرب والأكراد والأرناؤوط والبلغار واليونان والزنوج، حيث جمعتهم الرابطة الإيمانية وجعلتهم أفراداً في عائلة واحدة، فعلينا ـ والحالة هذه ـ أن نعتبر أنفسنا مسلمين قبل أن نكون عثمانيين، وأن تكون صفة خليفة المسلمين فوق صفة الامبراطور العثماني، فإن الدين هو أساس البناء السياسي والاجتماعي للدولة)[٢].

ضمت الدولة هذا العدد الهائل من مختلف الجنسيات ولا شك أن البلاد العربية شكلت ولاياتها وأفرادها الجزء الأكبر من الامبراطورية العثمانية، وقد قدمت الدولة العثمانية للولايات العربية التي دخلت تحت سيادتها خدمات كثيرة أهمها: أنها أوجدت فيها وحدة على الطبيعة من نوع خاص. فاحتفظت هذه الولايات بمقوماتها الأساسية: الدين الإسلامي واللغة العربية، والثقافة العربية الإسلامية والتقاليد والعادات الموروثة عبر الأعصر والدهور.

وكان سكانها تجمعهم دولة إسلامية واحدة هي الدولة العثمانية، وينتمون لجنسية واحدة هي الجنسية العثمانية بالتعبير الحديث، وتضمهم رعوية واحدة بصفتهم رعايا عثمانيين ويشتركون في تبعيتهم لحاكم واحد هو السلطان العثماني.

ولم تلجأ الدولة العثمانية إلى إقامة حدود مغلقة بين الولايات العربية وحواجز مصطنعة بين سكانها، فكانت حرية الانتقال والسفر أمامهم مكفولة ومحترمة في جميع الأوقات، وكانت فرص العمل متاحة لهم في كل الأوقات.

---

(١) انظر: جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ١١١.

(٢) السلطان عبدالحميد الثاني، مذكراتي السياسية ١٧٧.

وفضلاً عن التبعية السياسية للدولة العثمانية كانت وشيجة الدين من أقوى الوشائج التي ربطت الجماهير العربية بالدولة العثمانية، فأخلصوا لها واشتركوا في حروبها ضد التكتلات الصليبية التي واجهتها، وكان يزداد ولاؤهم لها والتصاقهم بها إذا تعرضت الدولة لهزيمة عسكرية من دولة أوروبية[١].

وكان من نتائج التقاء العرب بالترك في ظل الدولة العثمانية أنه قد حمي العالم الإسلامي أكثر من أربعمئة عام من الغزو الصليبي الذي لم يلبث أن جاء بعد ضعف الدولة العثمانية[٢] على أشكال متطورة جديدة.

ولا تقتصر سياسة الدولة العثمانية على ولاياتها العربية في معاملتهم معاملة خاصة، بل إنها قدمت كل ما يمكن تقديمه من التسهيلات للولايات الأخرى من ترك حرية الدين والتسامح، هذا التسامح الذي أضرّ بالدولة فيما بعد، يقول السلطان عبدالحميد: (إن اتهامنا بعدم التسامح إن دل على شيء فإنما يدل على جهالة صاحب الاتهام، لو أننا أقللنا من التسامح الذي كنا فيه لما آلت امبراطوريتنا إلى الحال الذي نحن فيه الآن، ولكنّا في وضع أقوى وأمتن، ولو أجبرنا الفئات غير المسلمة على اعتناق الإسلام في بلادنا لما كنا نأسف اليوم على الفرقة الناشئة عن اختلاف الدين، ولا زلنا حتى يومنا هذا مستمرين في إعطاء الحقوق والامتيازات لغير المسلمين)[٣].

إن هذا التسامح مع إعطاء الامتيازات للدول الأجنبية في ممارسة نشاطها داخل الدولة قد أضرها كثيراً جداً، فقد كان عاملاً من عوامل ضعف الدولة وعدم تماسكها من الداخل الأمر الذي جعل أصحاب الامتيازات يقدمون لبني جنسهم ممن يدينون بديانتهم أسباب الخروج على سلطة الدولة لتمزيق كيانها من الداخل وتم لهم ما أرادوه أثناء فترة ضعف الدولة العثمانية وهي فترة لا تزيد

---

(١) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ٩٣٦ ـ ٩٣٨.

(٢) انظر: تصحيح أكبر خطأ في تاريخ الإسلام الحديث ٢٤.

(٣) السلطان عبدالحميد الثاني، مذكراتي السياسية ١٦٨.

عن قرن ونصف قرن من الناحية السياسية[1] في تاريخ العالم الإسلامي، تلتها مرحلة خطرة استغل الغرب المسيحي الامتيازات التي مُنحت له داخل العالم الإسلامي بحجة حماية المسيحيين، فكانت فرصة لبث الإرساليات التبشيرية التي بدأت تسيطر على الثقافة داخل العالم الإسلامي والعربي بوجه خاص، وكانت هذه الامتيازات من عوامل التمزق وإثارة الفتن من بعد[2]، هذه الفتن التي استنفذت طاقات الدولة وجعلت آخر خلفائها السلطان عبدالحميد في موقف حرج للغاية مع مثيري الفتن، فأخمد نيران الفتن في حوران وأرمينيه والكرك وبعث الجنود إليها ليطفئوا تلك الفتن التي كانت من العوامل الفعالة في إنهاك قوى الدولة[3]، كما كانت سبباً رئيسياً في عدم تفكير الدولة في عهد السلطان عبدالحميد في التوسع في الفتوحات كما فعل أسلافه خارج حدودها لنشر دعوة الإسلام مما نتج عنه شبه ركود في نشر الدعوة الإسلامية خارج نطاق الدولة، فكان لا بد من السلطان أن يعمل على تقوية صلاته بشعوبه الإسلامية بوجه خاص ليعالج هذا الوضع المتدهور، ولا شك أنه متهالك متمثل في شعب عمَّه الكسل وركن إلى رغد العيش (لو قام كل واحد بما أوكل إليه من مهام لأمكننا النهوض السريع، لكن الارتخاء والكسل وعدم الاكتراث قد عم كل مكان لم تعد الطبقة المثقفة تهتم بأمر، ولم يعد الموظفون والعسكريون يثقون حتى بأنفسهم ليس هناك من يريد أن يعمل ولا أن يعلم)[4]، لكن هل من مجيب لأقوال السلطان عبدالحميد؟ الجواب: لا.

كان على السلطان أن يعمد إلى طريقة يلفت فيها نظر شعبه إلى ما هم عليه من الغفلة ولا يتم ذلك إلا إذا مَسَّ مشاعرهم بكلمات توقظ ضمائرهم التي أصابها اليأس فاستسلموا للأمر الواقع والقدر المحتوم دون مقاومة تذكر، وكان من آثار ذلك أن ركدت الدعوة إلى الله في بداية الأمر حتى داخل البلاد

(١) انظر: شبهات في الفكر الإسلامي ٤٩.
(٢) انظر: تاريخ الإسلام ٢/٢٣٤.
(٣) انظر: العالم الإسلامي، عمر رضا كحالة ٢٤٢.
(٤) السلطان عبدالحميد الثاني، مذكراتي السياسية ٥٦.

الإسلامية بتأثير تلك القوى الأوروبية الخفية المتسترة تحت ستار الامتيازات التي أدت في النهاية إلى اقتسام تلك الدول مناطق الامتيازات والتصرف بها حسب أهوائها.

ولنضرب على ذلك مثالاً: فروسيا مثلاً كانت تهتم بالولايات الشرقية اهتماماً بالغاً لأنها كانت متاخمة لبلادها ومتصلة بها اتصالاً جغرافياً مباشراً، فضلاً عن أنه كان بين سكان تلك الولايات جماعات كبيرة من الأرمن، فأقفلت تلك المناطق واختصت بنفوذها وحدها.

أما فرنسا فقد كانت أسبق الدول إلى الاتصال بسوريا والاهتمام بها، كانت قد أنشأت فيها عدداً كبيراً من المؤسسات الثقافية وأسست أوثق الصلات مع كنائسها وسعت سعياً متواصلاً لتنشيط التجارة معها، وإنشاء مؤسسات اقتصادية فيها وقد اكتسبت فرنسا نفوذاً مادياً ومعنوياً في سوريا، كما جعلت أمر توسيع هذا النفوذ وتقويته من أهم أهداف سياستها، إنها كانت تعتبر سوريا منطقة نفوذ خاصة بها وكانت تستعد استعداداً حثيثاً لاستكمال وسائل الاستيلاء عليها عندما تجد الظروف ملائمة لذلك.

أما بريطانيا فكانت صاحبة النفوذ الأوحد في ولايتي البصرة وبغداد، أنها كانت مسيطرة سيطرة تامة على الخليج من جانبيه العربي والفارسي، منذ مدة تزيد على القرن، وكانت تولَّت مهمة التنوير والإرشاد والتنظيم في شط العرب، وأصبحت مهيمنة على الملاحة والتجارة هيمنة تامة، وكان أكثر من تسعين في المائة من السفن التي تدخل شط العرب تحمل أعلام امبراطوريتها، وكان نحو ستين في المائة من مبادلاتها التجارية تتم معها[1].

لا شك أن اقتسام النفوذ بين الدول وظهور دول أخرى في ميدان الاستعمار والسعي للحصول على امتيازات في بعض ولايات الدولة العثمانية من شأنه أن سبَّب ركوداً في واقع الدعوة الإسلامية لانشغال الدولة ورعاياها

(١) انظر: البلاد العربية والدولة العثمانية ١٩٤ ـ ١٩٥.

بأصحاب الامتيازات الذين فرضوا سيطرتهم على مجريات الأحداث في العالم الإسلامي، هذا الوضع وتلك الحالة تطلبت من السلطات في اتخاذ إجراء حاسم لتعود الهيبة للدولة العثمانية التي حملت راية الإسلام وأرّقت أوروبا أربعمئة عام وحطمت مؤامراتها على العالم الإسلامي وحالت دون استئناف الحملات الصليبية مرة أخرى[1].

وكان السلطان قد تنّبه لهذه الحالة وأوضح في مذكراته مدى الاسترخاء لدى أفراد الشعب الذي كان سببه اضطرابات وعصياناً، مستغلين حماية أصحاب الامتيازات لهم فيقول: (لكن الشيء الذي يقودنا إلى الهاوية أكثر من غيره مؤامرات الدول الكبرى، لقد صرفنا الملايين للقضاء على هذه المؤامرات، كان الأجدر بها أن تصرف على مشاريع حيوية نستفيد منها)[2].

سياسة عبدالحميد الإسلامية:

لم تقف الدول الأوروبية مقتنعة بالامتيازات التي حصلت عليها من الدولة العثمانية ولن تقف إلى حد معين حتى تتوصل إلى مأربها وهي تقويض الخلافة الإسلامية بالحصول على امتيازات أكثر مرونة، ولم يكن السلطان عبدالحميد بالسلطان السهل الذي يلبي كل ما يطلب منه، فقد تجاهل طلباتهم من أجل الحصول على امتيازات جديدة داخل تركيا، وكرّس نفسه لأعمال أخرى، أقبل عليها بنشاط محموم، إذ بعد عشرات السنين من حكم بلاده على أساس التسوية مع دول الغرب، جعل من حبه الشديد لتقاليد بلاده ومن تدينه أساس برنامج سياسي واضح المعالم، وجعل شعار تلك السياسة الجديدة عبارته المشهورة (يا مسلمي العالم اتحدوا).

ولم يكن القصد من ذلك الشعار في بادىء الأمر الترويج للوحدة

(١) انظر: شبهات في الفكر الإسلامي ٤٩.
(٢) السلطان عبدالحميد، مذكراتي السياسية ٩٦.

السياسية، بل يقظة الشعور بالوحدة[1]، ولم يكن القصد من اتباع هذه السياسة الإسلامية لاقتناعه بها فحسب، وإنما كان من أجل تحقيق تطلعاته السياسية لأنه من خلالها يستطيع استعمال (ورقة رابحة) في مواجهة الدول الأوروبية[2].

وأدرك بثاقب نظره أن مقاومة الأعداء لا يتم إلا بالتحام العالم الإسلامي في صف واحد وأيقن أن ذلك لا يتم إلا بتقاربهم، فهو يقول: (يجب علينا أن نقوي صلاتنا بالبلدان الإسلامية وأن يكون التقارب أحسن مما هو عليه الآن، ولا أمل لنا بالمستقبل إلا بالوحدة، فإن بقاء الوحدة الإسلامية يعني بقاء انكلترا وفرنسا وروسيا وهولندا تحت نفوذنا، حيث أن كلمة واحدة من الخليفة تكفي لإعلان الجهاد على البلدان الإسلامية الواقعة تحت سيطرة هذه الدول مما يؤدي إلى وقوع الكارثة بالنصارى، ولا بد أن يأتي يوم يقوم فيه المؤمنون قومة رجل واحد ويحطمون أغلالهم)[3].

فلجأ إلى سياسته الإسلامية بوضع خطة محكمة لمواجهة الموقف المتدهور داخلياً وخارجياً بإبراز السمات الدينية (المقدسة) لمنصبه بصفته الخليفة زعيم المسلمين، واستثارة الإخلاص لعرشه بالضرب على الأوتار الحساسة لدى الملايين من رعاياه المسلمين، وبذلك يضمن ولاءهم، ولا يجد المعارضون أي تأييد من جانبهم.

وهكذا سعى عبدالحميد لإحلال فكرة الجامعة الإسلامية محل الجامعة العثمانية التي كان ينادي بها (مدحت) وأنصار التنظيمات، وكان عبدالحميد يرى أنه يمكن استخدام فكرة الجامعة الإسلامية كأداة تضمن التفاف العالم العربي، بل والعالم الإسلامي حول الخلافة العثمانية، وبذلك تتأكد السيطرة العثمانية على الأقاليم العربية في وقت كانت الدولة تفقد أقاليمها في البلقان الواحد تلو الآخر، كما كان عبدالحميد يهدف ـ إلى جانب تدعيم مركزه بإخماد أي حركة

(١) انظر: عبدالحميد ظل الله على الأرض ١٦٨.
(٢) انظر: موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ٢٨١.
(٣) السلطان عبدالحميد الثاني، مذكراتي السياسية ١٧٥.

تقدمية فيما يزعمون — إلى استخدام الجامعة الإسلامية لمقاومة الدول الغربية بل والضغط عليها، تلك الدول التي كانت تستغل فرصة ضعف الدولة لكنها كانت لا تزال تهاب قوة الإسلام، إذ أنه بهذه السياسة يجمع حول الشعوب الإسلامية منها وغير العربية، بما فيها تلك الشعوب الخاضعة للدول الأوروبية وبخاصة العرب في شمال افريقية الخاضعين لفرنسا ومسلمي الهند الخاضعين لبريطانيا والتتر الخاضعين لروسيا.

والواقع أن العالم الإسلامي كان يموج منذ أواخر القرن الثامن عشر بحركات دينية قوية جاءت كرد فعل لحركة الاستغراب في الشرق الأدنى، وكردِّ فعل لاعتداءات الدول الأوروبية على بعض أجزاء العالم الإسلامي، وكانت بعض هذه الحركات الدينية تتخذ موقفاً سلبياً من الاستغراب وتنادي بالرجوع إلى الأصول الإسلامية الأولى، وهذه هي الحركات السلفية مثل حركة الشيخ محمد بن عبدالوهاب في شبه الجزيرة العربية، والسنوسية في شمال أفريقية، والمهدية في السودان، وكانت حركة الجامعة الإسلامية من الحركات السلفية التي أدركت مشاكل العالم الإسلامي[1]، تلك المشاكل التي فطن لها السلطان عبدالحميد فمضى في تنفيذ مخططه الإسلامي في قوة وسرعة، بحيث شملت الدعوة كل الآفاق الإسلامية وذاعت في كل مكان وحملت معها عملاً إيجابياً نافعاً قوامه المدارس والمنشآت في كل صقع من البلاد الإسلامية[2] ومن تلك المدارس مدرسة خاصة لتخريج الدعاة ونشرهم في مختلف أنحاء العالم الإسلامي لشرح مسوغات هذه الفكرة[3].

وقد تخرج في هذه المدرسة وغيرها من المعاهد الدينية الإسلامية كثير من الدعاة حتى بلغ أعدادهم في القسطنطينية وحدها أكثر من أربعين ألفاً من

(١) انظر: حركة اليقظة العربية في الشرق الآسيوي، د. محمود صالح ٦٤ — ٦٥.

(٢) انظر: تصحيح أكبر خطأ في تاريخ الإسلام، الحديث ١٣.

(٣) انظر: العرب والترك في العهد الدستوري العثماني ١٩٠٨ — ١٩١٤، توفيق علي برو ٣٦.

طلبة[1] تلك المعاهد الدينية الإسلامية، الذين جعلوا وظيفتهم محاربة الإصلاحات الغربية التي كانت تهدد بقاءهم، بيد أن الحملة ضد «المادية» واجهتها صعوبات مادية، فلم يكن اتساع تركيا الهائل فقط هو الذي يعرقل انتشار الآراء، بل قلة وسائل النقل أيضاً، إلا أنه برغم ذلك الاتساع وتباين شعوب الامبراطورية فقد كانت كلها تشترك في شيء واحد، مما سهل على رسل الجامعة الإسلامية عملهم وكانوا كلهم فقراء جداً، وكان رسل السلطان أنفسهم فقراء، إلا أنهم اكتشفوا الآن أن الفقر شيء نسبي[2].

إن القناعة والصبر الذي اتصف به هؤلاء الدعاة كانت سبباً في تذليل كل الصعاب التي واجهوها وكانت الدولة وراء جهودهم في رفع كلمة لا إله إلا الله التي تناساها الجيل الجديد بعد أن عم الجهل معظم الآفاق الإسلامية البعيدة وأطراف العالم الإسلامي التي انبث فيها الدعاة خريجوا المعاهد الدينية في كل من الهند والصين وجزائر المحيط ومصر وأفريقيا وتركستان وأفغانستان وبلاد العرب وأطراف المملكة العثمانية، كما عقد مع الأمراء في شتى هذه البقاع مراسلات وعقود، وعمّق روابط الود والإخاء الإسلامي فيما بينهم وبين دولة الخلافة حتى قيل أنه لم يبق مسلم واحد لم يعرف طرفاً عن هذه الدعوة[3].

وكانت من خطط الدعوة التي تبناها السلطان عبدالحميد هو طبع آلاف النسخ من القرآن الكريم جرى توزيعها في أنحاء البلاد[4]، إلا أن أميَّةَ تلك البلاد حال دون تفهم أغلبهم لآياته الكريمة فكانت مهمة الدعاة أن اصطدمت هي الأخرى بتلك الأمِّية، إلا أنها صعاب يمكن تذليلها مع المتابعة والصبر الذي ينبغي أن يتصف به كل داعية، الذي يحتاج إلى وقت كبير وجهد وفير. أما المستعمر الذي التهم معظم العالم الإسلامي فإن حكمه المستبد وقف في وجه

(١) انظر: عبدالحميد ظل الله على الأرض ١٧٣.

(٢) انظر: نفس المصدر ١٧٣.

(٣) انظر: تصحيح أكبر خطأ في تاريخ الإسلام الحديث ١٤.

(٤) انظر: عبدالحميد ظل الله على الأرض ١٧٤.

الدعاة ودعوة عبدالحميد الإسلامية، لكن عزيمة عبدالحميد من المستحيل أن تركن إلى شيء يسمى مستحيلاً يقول السلطان عبدالحميد: (القوة الوحيدة التي ستجعلنا واقفين على أقدامنا هي الإسلام)[١]، إذن لماذا لا يجاهد لرفع كلمة الإسلام عالية حتى يستطيع أن يقف المسلمون على أقدامهم (وهناك ٨٥ مليوناً من المسلمين يحكمهم الإنكليز، و٣٠ مليوناً يحكمهم الهولنديون، و١٠ ملايين يحكمهم الروس، ومسلمون في مناطق أخرى من آسيا وأفريقيا حيث يبلغ المجموع العام ٢٥٠ مليونا، يرجون من الله النصر ويوجهون أنظارهم وآمالهم صوب خليفة المسلمين، فهل يجوز لنا في هذه الحال أن نبقى ضعافاً أمام الدول الكبرى؟)[٢]، الجواب: لا، ينبغي أن نقاوم لأن في دفاعنا عن ديننا سلامتنا في دنيانا وآخرتنا.

وأمام هذا الإصرار من السلطان عبدالحميد ما كان من المستعمر إلا أن وضع وسائل جديدة لإضعاف المسلمين اتضح ذلك من سياسته الاستعمارية للشرق الإسلامي في كونها قائمة على إضعاف المسلمين في إسلامهم ووسائلهم لذلك تنحصر في توجيه الفكر الإسلامي نحو تحقيق هذه الغاية، وقد برز هذا التوجيه في صورتين تنمُّ كلتاهما عن هذه الغاية:

* **الصورة الأولى**: قيام بعض مفكري المسلمين بحركة يسمونها تقدمية تبغي تقرير سلطة المستعمر وتثبيت ولايته على المسلمين من الوجهة الإسلامية أو بعبارة أخرى تبغي عدم تحديه ومعارضته، سواء في مباشرة سلطته على المسلمين أو إدخاله ما يسميه بنظم الإصلاح الحديثة بينهم.

* **الصورة الثانية**: قيام بعض الغربيين الآريين المسيحيين بإبراز الخلافات المذهبية وتأكيد الفجوات والثغرات بين طوائف المسلمين وشعوبهم من الوجهة الشعوبية أو الجغرافية أو نظام الحكم... مع شرح كثير من مبادىء الإسلام شرحاً يشوِّهها وينحرف بها عن أهدافها الأصلية، وذلك كله بالإضافة

(١) السلطان عبدالحميد الثاني، مذكراتي السياسية ٥٧.

(٢) السلطان عبدالحميد، مذكراتي السياسية ١٧٥.

إلى تمجيد القيم المسيحية والحضارة الغربية والنظام السياسي، والسلوك الفردي للشعوب الغربية.

وفي مقابل هاتين الصورتين: برز اتجاه إسلامي فكري آخر وهو حركة المقاومة للاستعمار الغربي سواء في مظهره السياسي أو فيما يستنبطه ويخفيه من الهجوم على الإسلام وإضعاف المسلمين، وهذا اتجاه يعتبر ردّ فعل مباشر لتوجيه الاستعمار الغربي للتفكير الإسلامي في صورتيه السابقتين، ويدخل في هذا الاتجاه الأخير تلك المحاولة الفكرية لتجديد المفاهيم الإسلامية بغية الملاءمة بينها وبين تطور الحياة وأحداثها المتلاحقة، حتى تطبع سلوك هذه الشعوب أفراداً وجماعة بطابع إسلامي، وبذلك يكون الاستعمار الغربي للشعوب الإسلامية قد خلق اتجاهين فكريين متقابلين: اتجاهاً لحمايته.. واتجاهاً آخر لمقاومته[١].

والأمثلة على كلتا الحالتين كثيرة، فممن حملوا لواء الحماية في صالح المستعمر ودافعوا عن مبادئه الغربية كثيرة جداً تمثل معظمهم في مفكرين ممن رضعوا من لبان الغرب فأفرغوا ما في رؤوسهم للنيل من الإسلام ومن شخص الخليفة السلطان عبدالحميد الثاني، أما الاتجاه الآخر فقد حمل لواء المقاومة ودافع عن الإسلام وعن شخص الخليفة وهؤلاء تمثلوا في الدعاة.

وقد كان الاتجاه الذي سلكه المستعمر لحماية نفوذه قد تم على يد أبناء الأمة الإسلامية، ممن تشربت أفكارهم بزيف الحضارة الغربية وافتتنوا بأساليبهم، ولم يكتف المستعمر بذلك بل زرع أفكاراً لا زال العالم الإسلامي يعاني منها، واعتبر بحق خطراً عظيماً فتك بإسلام المسلمين وشتت شملهم وفرق كلمتهم وجزَّأ دولتهم وقوّض بنيانهم وجعلهم قصعة تتداعىٰ الأمم لأكلها، وأضعف من رابطتهم المعنوية ألا وهو بروز النزعات القومية ضمن الأمة الإسلامية الواحدة، فأخذ كل شعب يدَّعي أنه أمة ذات وحدة مستقلة، فالقومية (الطورانية) من طرف، والقومية (العربية) من طرف آخر، والقومية (الكردية) من طرف ثالث، وغير ذلك من القوميات التي مزقت جسم الإنسانية

(١) انظر: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار، د. محمد البهي ٣٦.

الواحدة، والتي ترعرعت في أحضان الاستعمار ونفذت بأفكاره وتمولت بماله وتسلحت بسلاحه[١].

ونتيجة لهذه النزعات تعرضت بعض الولايات الإسلامية ولا سيما العربية لهزات سياسية وسط الهدوء الذي كانت تعيش في ظلاله الوارفة، لكنها اضطرابات لم تصل إلى حد الانفصال ولم تكن تلك النزعات أساساً لقيامهم بتلك الانتفاضات والاضطرابات التي اتّخذت طابعين:

* **أولاً**: انتفاضات شعبية، ومن الخطأ وصفها ثورات، وكان يقوم بها سكان مدينة أو حي من أحيائها ضد الحكام المحليين عندما يتجاوزون المدى في ظلمهم للمحكومين ولكن لم تكن هذه الانتفاضات موجهة ضد السلطان العثماني، لأن الولاء له أمر مسلّم به، لا تتطرق الثورة عليه إلى أذهان مجتمعات دينية إسلامية، وكان القائمون بهذه الانتفاضات يتهددون حاكميهم برفع الأمر إلى السلطان في استانبول.

* **ثانياً**: حركات سياسية عسكرية يقوم بها أفراد طموحون ذووا عصبيات في الولايات العربية، ولم تكن هذه الحركات تبغي الانفصال عن الدولة، ولكن كان يبغي القائمون بها الانفراد بحكم الولاية أو بقسم منها داخل نطاق الدولة العثمانية مع الاعتراف بالسيادة العثمانية وما يتبعها من سك العملة باسم السلطان العثماني الحاكم والدعاء له على منابر المساجد في صلاة الجمعة والعيدين، ومع ذلك لم تظفر قيادات هذه الحركات باستجابة من الجماهير ولم تتعاون معها، بل لم يحدث لقاء فكري بينها وبين زعماء هذه الحركات، ومن الأمثلة على هذا النوع حركة علي بك الكبير في مصر وحركة الشيخ ظاهر العمر في فلسطين...[٢].

وقد استغل المستعمر الحركات السياسية العسكرية وحَوَّلها إلى حركات انفصالية ودعم أفرادها وزودهم بأسباب القوة وغذّى أفكارهم بسموم ما زلنا

(١) انظر: مؤامرة فصل الدين عن الدولة، محمد كاظم حبيب ٧٦.

(٢) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ٩٦٣/٢.

نعاني منها كإدعائهم بأن الدولة العثمانية دولة مستعمرة ولا بد لنا أن نعمل على إخراجها من أراضينا ونتخلى عن أفكارها وأهدافها.

والأمثلة على هؤلاء الانفصاليون كثير منهم على سبيل المثال لا الحصر محمد علي باشا الذي رفع راية القومية باعتبارها السلاح البراق الذي يمكن به ضرب الوحدة الإسلامية والشعور بالمصير الإسلامي الواحد...[١].

وتجاه هذا العداء والتكتل الأوروبي ضد الإسلام والمسلمين كان لزاماً على سلطان المسلمين أن يحرك مشاعر المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، ولا يتم ذلك إلا بإعلان الجامعة الإسلامية.

الجامعة الإسلامية:

معناها: الوحدة الإسلامية والرابطة التي تربط المسلمين في جميع الأقطار، وهي قديمة في الإسلام، دعا إليها ووضع أساسها الأول محمد صلى الله عليه وسلم حتى جاءت القرون الأخيرة، وتبلبلت الأفكار الإسلامية، وهبطت الروح الدينية وحدث فتور عند جميع المسلمين أعقبه تمزق وشبه انحلال، ثم سادهم الجهل وتنازعتهم الأهواء والشهوات وأصبحوا شيعاً وأحزاباً، وسخر قويهم بضعيفهم، حكم منهم ملوك مستبدون لم يحكموا بما أنزل الله ولم يهتموا بنشر العلوم والمعارف بين أبناء شعوبهم وتركوا الدين وراءهم ظهرياً فساءت الحال وفسدت الأخلاق.

وإزاء هذه الحالة ظهر كثير من المصلحين خلال فترات التاريخ الإسلامي، أدركوا أن الجامعة الإسلامية لا تتم إلا بوحدة المسلمين، وأن هذه الوحدة لا سبيل إلى تحقيقها إلا ببث التعاليم الدينية الصحيحة بين المسلمين جميعاً وتربية أبنائهم تربية إسلامية صافية مدعمة بالنظام والمعرفة[٢]، وقد

(١) انظر: دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية ١٨٧ ـ ١٨٨.

(٢) انظر: جمال الدين الأفغاني باعث النهضة الفكرية في الشرق، محمد سلام مدكور ٢٠٩ ـ ٢١١.

ظهرت فكرة الجامعة الإسلامية قبل عبدالحميد على يد جمال الدين الأفغاني الذي يعد المحرك الأول لها، وكان من الشخصيات التي تركت أثراً عميقاً على العالم الإسلامي في العصر الحديث، وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر على وجه الخصوص[١]، وقد استهوت فكرة الجامعة الإسلامية التي أعلن عنها جمال الدين الأفغاني السلطان عبدالحميد، ولكن الأفغاني كان يدعو كذلك إلى الدستور وإلى القضاء على الحكام المستبدين، فلماذا لا يفيد عبدالحميد من هذه الدعوة دون أن يأخذ بالشطر الدستوري منها؟ وفعلاً سار على هذا الأساس[٢]، واستطاع عبدالحميد أن ينشر الدعوة في سبيل الجامعة الإسلامية الكبرى في أوسع آفاقها ويحيي الشعور بالوحدة العامة والتضامن المستمسك بعضه ببعض، في جميع الأمم الإسلامية إحياء نشيطاً، ولم يكن يساعده على ذلك كونه خليفة للمسلمين فحسب، بل ما كان يبسطه ويبينه مما تكنه وتظهره الدول الغربية من أنواع العداء والمقت للمسلمين والتحامل عليهم، هذا هو السبب الأكبر في أن الدعوة التي أنشأها ودبّرها عبدالحميد في سبيل الجامعة الإسلامية وكان لها من التأثير الشديد في نفوس المسلمين ما برحت تنمو وتزداد[٣].

لقد أدرك السلطان بحق ما تشكله أوروبا من خطر على الدولة العثمانية وأقطارها الإسلامية، وقد اتبع سياسة قصد من ورائها أن يحشد (الثلاثمائة مليون مسلم) حينئذٍ في الجامعة الإسلامية، كما كان يدعوها. وأن يظهر بمظهر الزعيم لهذا القسم من البشرية[٤] فكانت الجامعة الإسلامية في حقيقة ذاتها أداة دينية لتقوية سلطة عبدالحميد السياسية في العالمين العربي والإسلامي، وبواسطتها استطاع أن يحتفظ بولاء العناصر الإسلامية غير التركية داخل الامبراطورية العثمانية، واستطاع أن يكسب إلى جانبه المسلمين خارج حدودها، ومن أجل

(١) انظر: حركة اليقظة العربية في الشرق الآسيوي ٦٥.
(٢) انظر: الشعوب الإسلامية ٢٠٧.
(٣) انظر: حاضر العالم الإسلامي ١/٣١٠.
(٤) انظر: عبرة وذكرى أو الدولة الغثمانية قبل الدستور وبعده ٤٢.

ذلك ــ ولفترة طويلة ــ اعتمد في حكمه على مجموعة من المسلمين العرب وغير العرب ومنهم عزت باشا العابد وأبو الهدى الصيادي وسليم باشا ونجيب باشا ملحمه، وكان لجمال الدين دور مؤثر في سياسة السلطان، فبعد أن كان خصماً عنيداً لسياسة عبدالحميد إذا به يبدل رأيه فيه ويؤيد سياسته ثم رأى أن الإهانة التي تمس الدولة العثمانية تنال جميع المسلمين في الشرق والغرب[١].

وبذلك تكون الجامعة قد قوّت من شوكة السلطان عبدالحميد بوصفه ممثل المسلمين ورافع لواء الجامعة، وقد رأت أوروبا أن السلطان العثماني استطاع استغلال المشاعر الدينية عند رعاياه بخاصة وعند المسلمين بعامة، وبواسطة هذا الاستغلال يستطيع أن يهدد النفوذ الأوروبي ليس في المناطق العثمانية فحسب وإنما في المناطق الإسلامية الخاضعة مباشرة للحكومات الأوروبية كذلك، وبالفعل فقد بدأ السلطان يهدد الدول الأوروبية بنصرة العالم الإسلامي لمنصب الخلافة، فالمسلمون في ألبانيا يهدد بهم النمسا، والمسلمون التتر والأكراد يهدد بهم روسيا، والمسلمون في الهند يهدد بهم انكلترا، والمسلمون في الغرب يهدد بهم فرنسا[٢] وهكذا كانت أداة لوّح بها السلطان عبدالحميد فكانت بمثابة رد فعل للحركة الاستعمارية الأوروبية الطاغية، وقد أذكى نار هذا الشعور أئمة أفاضل من العلماء أمثال جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده والشيخ مصطفى الغلاييني ورشيد رضا وغيرهم. . .[٣].

ولم يكن هؤلاء الأئمة الأفاضل ممن استغلهم السلطان عبدالحميد كما يدعيه بعض الباحثين في أن عبدالحميد استخدمهم في جمع شتات المسلمين حول عرشه تحقيقاً لمصالحه هو وأسرته، وذكروا أن الخلاف بين الأفغاني وعبدالحميد تمثل في كون الأفغاني كشف حقيقة عبدالحميد، وأنه لا أمل في إصلاح عبدالحميد أو صلاحه من مقاصده الموجهة ضد الأحرار، شرع الأفغاني يقف منه

(١) انظر: موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ٢٧٥.
(٢) انظر: نفس المصدر ٢٧٦.
(٣) انظر: العرب والترك في العهد الدستوري العثماني ٣٥.

موقفاً عدائياً ولا يتحرز في توجيه اللوم إليه[١]، والمعروف أن هذا الخلاف كما سنعرفه في ترجمة جمال الدين غير ما ذكروه.

فقد كانت حركة الجامعة الإسلامية تدعو إلى وحدة صفوف المسلمين وراء الدولة العثمانية، وهذه هي العروة الوثقى التي لا انفصام لها، أي أن الأفغاني كان يعمل ـ إلى إصلاح جانب المساوىء الدينية والاجتماعية ـ على صد النفوذ الأوروبي ولا سيما أنه كان يرد الاستعمار الأوروبي إلى أساس ديني ويعتبره حركة نصرانية موجهة ضد الإسلام[٢]، لذلك بمجرد إعلان عبدالحميد حركة الجامعة الإسلامية بقوة وصدق أخذت تصل إليه آلاف الخطابات والوثائق الرسمية من كل أطراف العالم حيث كان يعيش المسلمون، وفيها يعلن مئات الملايين ولاءهم للسلطان، وتعلقهم بحركة الجامعة الإسلامية، وأصبح السلطان عبدالحميد يوصف بـ«لؤلؤة سلاطين آل عثمان» و«النجمة اللامعة في سماء الخلافة»[٣].

وفي الجانب الآخر نجد أن الأوروبيين يكيلون الاتهام للإسلام والسلطان لما شعروا بخطر سياسة عبدالحميد على نفوذهم، وانبرى رجال لهم شأن في تاريخ الاستعمار كالمسيو نوتو، واللورد كرومر، واللورد غراي إلى مهاجمة الجامعة الإسلامية وعدّوها بؤرة للتعصب الديني، وأن ليس القصد منها سوى تحدّي قوات الدول المسيحية، ودعوا الأمم الأوروبية إلى مراقبتها مراقبة دقيقة والحذر منها، فرد عليهم بعض أقطاب العرب والترك يدافعون عن الجامعة الإسلامية وينفون عنها صفة التعصب الديني بل إن رد الأستاذ محمد عبده على اللورد كرومر تضمّن دفاعاً عن السلطان عبدالحميد نفسه إذ وصف دولته بأنها أكبر دول الإسلام، وأن سلطانها أفخم سلاطينهم[٤]، وهناك كتّاب غير محمد

(١) حركة اليقظة العربية في الشرق الأسيوي ٦٥.
(٢) انظر: نفس المصدر ٦٦.
(٣) انظر: عبدالحميد ظل الله على الأرض ١٧٦.
(٤) انظر: العرب والترك في العهد الدستوري العثماني ٣٤.

عبده دافعوا أيضاً عن الجامعة الإسلامية وعن شخص السلطان وإن كانوا قليلاً، وقد حملت جريدة المقطم في مصر[١] لواء معارضة دعوة هؤلاء المنددين بالجامعة الإسلامية بالإضافة إلى هؤلاء المعارضين كان اليهود خلف الستار يحيكون المؤامرات للقضاء على كيان الدولة ورجالاتها عن طريق وسائل الإعلام التي امتلكوها وتحطيم كل طريق يوصل إلى إصلاح الدولة وإبراز قيادات بديلة من شخصيات يهودية الأصل أو عميلة لليهود[٢].

أبرز الدعاة في عهد السلطان عبدالحميد:

ظهر في عهد السلطان عبدالحميد كثير من الدعاة وكان لهم صولات وجولات في رفع كلمة التوحيد خفاقة ومطالبة المسلمين الرجوع إلى المنابع الأصلية كتاب الله وسنة رسول الله، وترك كل ما يؤدي إلى فرقتهم وتشتيت شملهم، ولعل تبنّي السلطان لفكرة الجامعة الإسلامية قد زاد من حماس هؤلاء الدعاة الذين لم يكونوا يطلبون ديناراً ولا درهماً، وأبرز هؤلاء الدعاة:

أولاً ـ جمال الدين الأفغاني:

مولده ونشأته:

ولد محمد جمال الدين بن السيد صفتر سنة ١٢٥٤هـ سنة ١٨٣٨م، وقد تضاربت الروايات واختلف المؤرخون في منبته ومسقط رأسه[٣]، ويذكر أنه من مواليد كابل في أفغان[٤]، لذلك شاعت نسبته بالأفغاني[٥]، وعلى الرغم من كثرة ما كتب عنه فلا يزال يحيط بحياته بعض الغموض، حول حقيقة نياته وصلاته وأهدافه، وليس هناك مجال للخوض في الخلاف حول أصل الأفغاني

(١) انظر: تصحيح أكبر خطأ في تاريخ الإسلام ١٦.
(٢) انظر: جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ٥٤.
(٣) انظر: جمال الدين الأفغاني باعث النهضة الفكرية في الشرق ٢٥.
(٤) انظر: موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ٢٧٣.
(٥) انظر: العرب والعثمانيون ٤٩٣.

وهل هو أفغاني سُنّي كما يقول هو وتلامذته ومريدوه أو إيراني شيعي كما يذهب أعداؤه ومعارضوه، مثل أبي الهدى الصيادي ـ عدّوه في أخريات أيامه ـ والذي ذهب إلى تسميته (بالمتأفغن) أي من يدعي الانتساب إلى الأفغان، والذي يهمنا هنا هو أن العالم الإسلامي الذي جاس فيه الأفغاني على أنه أفغاني سني وليس إيرانياً شيعياً، وبذلك انتشرت مبادىء الأفغاني وأثرت فيمن حوله، الأمر الذي أتاح له فرصة إحداث هذا الأثر العميق(١).

نشأ السيد جمال الدين من أبوين فقيرين إلا أنهما كانا ينتميان إلى أسرة من أشهر البيوت في شرف النسب وعلو الحسب حيث يتصل نسبهما (بالترمذي) المحدّث ويرتقي ـ كما قال ـ إلى (الحسين بن علي) رضي الله عنهما، فهو من الأشراف المنتمين إلى الدوحة النبوية. كما أورده الشيخ محمد سلام مدكور(*) في كتابه. وهذا يدعوني إلى التحقق من المورد الذي استقاه.

برع في علوم اللغة العربية من نحو وصرف وبيان وبديع ومعان وفي التاريخ العام والخاص، وتفوق في الكتابة والإنشاء العربي وعلوم الشريعة والفلسفة والرياضة والمنطق ونظريات الطب والتشريح، وتعلم الانكليزية كما تعلم الفارسية والتركية من قبل(٢)، وسافر إلى الهند بعد إتمام علومه في الأفغان، ثم توجه إلى الحجاز عام ١٢٧٣هـ ـ ١٨٥٧م لأداء فريضة الحج، وفي عام ١٨٧١ توجه إلى مصر ومكث فيها ثماني سنوات، وكانت فترة مليئة بالنشاط

(١) انظر: حركة اليقظة العربية في الشرق الآسيوي ٦٦.

(*) ولد الأستاذ: محمد سلام مدكور في ٥ أغسطس ١٩١٥م في منطقة الدرب الأحمر بمدينة القاهرة وتلقى علومه في الأزهر الشريف حتى حصل على شهادة (العالمية) سنة ١٩٤٣م، تولى عدة مهام منها القضاء والتدريس في جامعات مصر وغيرها أثناء إعارته لبعض الدول. قدم أكثر من خمسين مؤلفاً اتسمت بالتأصل العلمي والفقه الراسخ والأسلوب الراقي. توفي رحمه الله يوم الاثنين ٢١ جمادى الأولى ١٤٠٥هـ. (انظر: صحيفة الجزيرة ١٣ جمادى الآخرة ١٤٠٥هـ العدد ٤٥٤٠).

(٢) انظر: جمال الدين الأفغاني باعث النهضة الفكرية في الشرق ٢٨.

السياسي والديني، وفي عام ١٢٨٧ ـ ١٨٧٠ سافر إلى الآستانة حيث استقر في بلاط السلطان عبدالحميد الثاني لمدة خمس سنوات، وفي عام ١٨٨٣ اتجه إلى أوروبا حيث زار لندن وباريس ثم زارهما ثانية عام ١٨٩٢(١).

دعوة الأفغاني إلى الجامعة الإسلامية:

من المعلوم أن الأفغاني هو الذي تولى الدعوة إلى الجامعة الإسلامية مبتدئاً بدعوة توحيد العالم الإسلامي في ظل خليفة، تركياً كان أم أفغانياً أم مصرياً شريطة أن يتمتع بسلطة قوية، وطالب الشعوب الإسلامية أن ترتفع إلى مصاف الأمم الحرة والمتطورة عن طريق التعلم وملاءمة الدين مع متطلبات العصر، ولكنه اعتقد بضرورة العمل الثوري كوسيلة للوصول إلى هذه الأهداف(٢).

ثم تطور بدعوته إلى أن اتحاد العالم الإسلامي يقوم على تقوية العلاقات بين الأمم الإسلامية، ومع أن مثله الأعلى في الوحدة الإسلامية كان إقامة حكومة واحدة تطبق المبادىء الإسلامية، إلا أنه أقر بأن هذه الأمنية بعيدة المنال، ولذلك فقد كان ينادي بتقوية الروابط بين الدول الإسلامية القائمة وهي روابط تقوم على العدل والشورى، يدفعهم هدف واحد مهتدين بهدى القرآن، ولذلك كان يقترح إنشاء حلف إسلامي تتزعمه أكبر وأقوى دولة إسلامية، وكان يقصد بها الدولة العثمانية وقد وصف جمال الدين كيف أنه فكر في جعل الامبراطورية العثمانية مركزاً للاتحاد الإسلامي فكانت خطته تتضمن تحويل الامبراطورية العثمانية إلى (مملكة الممالك) بتنظيمها على أساس لا مركزي حقيقي، واقترح ذلك على عبدالحميد متمثلاً بمصر وتقدمها بعد تحويلها إلى خديوية يتمتع حاكمها بسلطات واسعة، واعتبر جمال الدين أن مثل هذا الخديوي سيكون أفضل للأقاليم وللامبراطورية من حكام ترسلهم الآستانة، ولذلك طلب الأفغاني من عبدالحميد تحويل الولايات إلى خديويات وقال: إن هذه الوحدة ـ إلى جانب الخوف من الاحتلال الأجنبي ـ ستدفع إيران

(١) انظر: موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ٢٧٣.

(٢) انظر: العرب والعثمانيون ٤٩٣.

وأفغانستان والإمارات الإسلامية في الهند إلى الانضمام إلى الامبراطورية العثمانية في شكلها الجديد، وبذلك يصبح السلطان العثماني ـ في نظر الأفغاني ـ ملك الملوك، ويصير سيداً على دولة قوية تستطيع أن تعيد للإسلام أمجاده وتحمي البلاد الإسلامية من السيطرة الأجنبية، إلا أن عبدالحميد لم يستجب لأفكار الأفغاني اللامركزية[١]، فعبدالحميد كان داهية خبيراً بالسياسة العالمية وبالأوضاع الداخلية لبلاده، فلم يقبل بآراء الأفغاني كلها في الإصلاح، لأنه كان يعتقد أن الوقت لم يحن لتنفيذ ذلك، وظل عبدالحميد محتفظاً بصداقته للأفغاني على الرغم من أقاويل الوشاة والحساد وتقارير رجال الأمن عنه[٢].

ومما يذكر أن شهرة جمال‌الدين الأفغاني كانت قد انتشرت قبل أن يتصل بالسلطان عبدالحميد ففي أثناء مقامه في باريس أسس جمعية العروة الوثقى من مسلمي الهند ومصر وشمال أفريقيا وسوريا، ثم أسس هو وتلميذه محمد عبده الذي كان منفياً قبل وصوله إلى باريس بدعوة من شيخه جمال‌الدين في بيروت مجلة العروة الوثقى[٣] التي تولت السلطات الانجليزية تعطيلها وهي لا تزال في مهدها لأنه كثيراً ما كان يهاجم الاستعمار الانجليزي بشكل بارز وفعّال، وكذا الاستعمار الأوروبي في المناطق الإسلامية[٤].

وقد أوضح الأفغاني الأسباب التي دعته إلى تأييد السلطان عبدالحميد في مسيرته الإسلامية بقوله: (... إن ما رأيته من يقظة السلطان وشدّة حذره وإعداده العدة اللازمة لإبطال مكايد أوروبا وحسن نواياه واستعداده للنهوض بالدولة ـ الذي فيه نهضة المسلمين عموماً ـ فقد دفعني إلى مدّ يدي له فبايعته بالملك والخلافة)[٥].

---

(١) انظر: حركة اليقظة العربية في الشرق الآسيوي ٧٢.
(٢) انظر: جمال‌الدين الأفغاني المصلح المفترى عليه ٢٨.
(٣) انظر: جمال‌الدين الأفغاني باعث النهضة الفكرية في الشرق ١٧٦.
(٤) انظر: موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ٢٧٣.
(٥) انظر: تصحيح أكبر خطأ في تاريخ الإسلام ١٧.

وامتداداً لحسن نية كلٍ منهما قلد السلطان عبدالحميد الشيخ جمال رياسة العمل في سبيل الدعوة للجامعة الإسلامية ويغلب أن ما ناله السلطان عبدالحميد من النجاح في سياسته في سبيل الجامعة الإسلامية إنما كان على يد جمال‌الدين المتوقد الهمة المشتعل العزم[١]، الذي حمل لواء الجامعة قبل أن تطأ قدماه الآستانة متنقلاً في بلاد الشرق الإسلامي يحث أبناءه على التضافر والتعاون واتحاد الكلمة.

إن جمال‌الدين كان داعية كبيراً لم يأل جهداً في سبيل إعزاز الإسلام وتنبيه أهله إلى خطر السيطرة الأجنبية فترك في كل بلد ثورة فكرية وأشعل في القلوب نار الغيرة للدفاع عن الإسلام.

إن الجفاء الذي حصل بين السلطان والسيد في أواخر أيامه لا أحد يشك فيه ويعود أساساً إلى تعاليم الأفغاني التي طرحها للسلطان عبدالحميد الذي أخذ بدوره منها ما يناسب وضع الدولة، وقد قال السلطان للسيد (عذرتك على عدم القبول، فاعذرني إذا لم أقدم على التغيير بسرعة لا تتناسب مع الزمان والمكان) ومن ثم بدأت العلاقات تفتر بين الرجلين، وتتراخى إذ أحبط كل منهما أمل الآخر فيه، وأخذت العلاقات تتحول مع الأيام إلى جفاء ظل يتعاظم شيئاً فشيئاً حتى كان مصرع الشاه ناصرالدين بيد تلميذ من تلاميذ السيد[٢].

إذن الجفاء كان أساساً من عدم استجابة كل منهما لبعض النقاط وليس خلافاً جذرياً، أما مصرع شاه إيران وقول القائل (خذها من يد جمال‌الدين) ونحو ذلك فليس للأفغاني ـ والله أعلم ـ ذنب في ذلك، فأي تهمة يتهم بها الأفغاني؟ ألكون القاتل تلميذه؟ ولكونه قال: (خذها من يد جمال‌الدين)؟

وبعد أشهر من هذا الجفاء والأخذ والعطاء ظهر في حنك الشيخ مرض السرطان واشتد عليه، فأجريت له عملية تولاها (قبور زاده اسكندر) كبير

---

(١) انظر: حاضر العالم الإسلامي ٣٠٦/١.
(٢) انظر: ثلاثة من أعلام الحرية، قدري قلعجي ١٠٧.

جراحي القصر السلطاني، فلم تنجح العملية وما لبث إلا أياماً قلائل حتى فاضت روحه، وكان ذلك سنة ١٨٩٦م[1].

ثانياً ـ الشيخ محمد عبده:

ومن الدعاة الذين كان لهم تأثير واضح في الدعوة إلى الله وإلى الاتحاد ودرء خطر الغرب في الفترة التي كان خليفة المسلمين فيها السلطان عبدالحميد هو الشيخ محمد عبده.

عاش الشيخ محمد عبده في الفترة بين **١٨٤٩ ـ ١٩٠٥** في مصر، وكان من تلامذة جمال الدين الأفغاني لازمه ورافقه كظله.

لم تكن دعوة محمد عبده إلى إصلاح الإسلام والمسلمين أمراً طارئاً أو فريداً في البلاد الإسلامية آنذاك، حيث أن السلطان العثماني عبدالحميد الثاني جعل من فكرة الجامعة الإسلامية سياسة رسمية للدولة وسلاحاً استخدمه ضد الحركات القومية وبخاصة العربية، وضد الدول الغربية التي كانت تحتل مناطق إسلامية وخشيت إعلان السلطان الجهاد ضدها[2].

لم يشذ الشيخ محمد عبده في حركته الفكرية عن أن يسير في ذات الطريق الذي سلكه جمال الدين الأفغاني، ولا عن الغاية التي وضعها هدفاً له، كما اعتمد على نفس السند الذي اعتمد عليه أستاذه من قبل، وليس من شك في أن الشيخ محمد عبده واحد من أولئكم الزعماء الذين وصفوا بالزعماء الوطنيين.. وهم في واقع الأمر زعماء مقاومة الاستعمار الغربي، ومعارضة النفوذ الأجنبي في دائرة العالم الإسلامي[3]، وفي هذه العجالة نورد أهداف تفكيره كما يصوره الشيخ بقلمه الخاص فيما يلي:

(١) انظر: حاضر العالم الإسلامي ١/٢٩٧، ٣٠٦.
(٢) انظر: العرب والعثمانيون ٤٩٧.
(٣) انظر: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار ١٢٣.

(... وارتفع صوتي بالدعوة إلى أمرين عظيمين:

* **الأول**: تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف، والرجوع في كسب معارفها إلى ينابيعها الأولى، واعتباره ـ الدين ـ ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله لترد من شططه وتقلل من خلطه وخبطه.. وقد خالفت في الدعوة إليه رأي الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الأمة: طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم، وطلاب فنون هذا العصر ومن هو في ناحيتهم.

* **أما الأمر الثاني**: فهو إصلاح اللغة العربية...

وهناك أمر آخر: كنت من دعاته والناس جميعاً في عمى عنه، وبعد عن تعلقه ولكنه هو الركن الذي تقوم عليه حياتهم الاجتماعية، وما أصابهم الوهن والضعف والذل إلا بخلوّ مجتمعهم منه.. وذلك هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة، نعم كنت فيمن دعا الأمة المصرية إلى معرفة حقها على حاكمها.. دعوناها إلى الاعتقاد بأن الحاكم وإن وجبت طاعته هو من البشر الذين يخطئون، وتغلبهم شهواتهم، وأنه لا يرده عن خطئه ولا يوقف طغيان شهوته إلا نصح الأمة له بالقول والفعل، جهرنا بهذا القول والاستبداد في عنفوانه والظلم قابض على صولجانه، ويد الظالم من حديد، والناس كلهم عبيد له أي عبيد.

نعم، إنني في كل ذلك لم أكن الإمام المتبع ولا الرئيس المطاع غير أني كنت روح الدعوة... أصبت نجاحاً في كثير مما عنيت به وأخفقت في كثير مما وجهت عزيمتي إليه ولكل ذلك أسباب بعضها مما غرز في طبعي.. وشيء منها مما دار حواليّ...)[1].

* * *

(١) انظر: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار ١٢٣.

المبحث الثاني

أثره في نشر الدعوة داخلياً

تمهيـــد :

إن لواء الدعوة الإسلامية التي حملها السلطان عبدالحميد الثاني وتفانى في خدمتها قد أينعت وأعطت ثمارها رغم أنها تأرجحت بين صعود وهبوط وقوة وضعف.

ولا شك أن الجامعة الإسلامية كان وراءها دعاة منهم من برز على الساحة السياسية، ومنهم من لم يأخذ نصيبه من الشهرة التي بلغها بعضهم، فقد كان لهؤلاء الدعاة أثر كبير في مجرى السياسة الداخلية فضلاً عن السياسة الخارجة التي كان يحركها ويتتبع خفاياها السلطان الداهية عبدالحميد.

والذي يهمنا في هذا المبحث هي السياسة الداخلية التي خطاها السلطان عبدالحميد في سبيل نشر الدعوة داخلياً، والتي تمثلت في مختلف الإصلاحات التي قام بها في مختلف جوانب الحياة والتي كان لها الأثر الفعال في تقدم الدولة وازدهارها في ظل شريعة الله وإخلاص القائمين عليها، وأول تلك الجوانب:

التعلـيم :

الصلة بين الدعوة الإسلامية والعلم صلة وثيقة فلا دعوة بدون علم، وإن أي جهود في نشر الدعوة محجوبة عن العلم تعد جهوداً ناقصة، قال تعالى: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾. . . الآية، وقال

تعالى: ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾... الآية[1].

والأحاديث النبوية كثيرة لا تحصى تحض على طلب العلم، ومعلوم أن الدول الإسلامية ابتداء من عهد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم إلى قيام الدولة العثمانية قد اهتم خلفاؤها المسلمون بشأن العلم وتكريم العلماء، وإن كانت هناك فترات ضعف طلاب العلم فيها وعلماؤه.

وقبيل انتشار المدارس كانت تعقد حلقات العلم في أمكنة مختلفة كالمساجد وقصور الخلفاء والأمراء ومنازل العلماء والمكتبات، ثم انتقلت مجالس العلم ومجالس الأدب والاجتماعات العلمية من قصور الخلفاء والمساجد إلى المدارس، وقد اقتصرت الدراسة في هذه المدارس أول الأمر على العلوم الدينية ثم درست فيها مختلف العلوم الدنيوية كالطب[2].

وقد أخذ السلاطين العثمانيون في تشجيع العلم والعلماء في بداية قيام الدولة في أثناء عظمتها، لكن ما لبث أن فتر هذا التشجيع عندما انصرف بعض السلاطين إلى الانشغال بأمور الدنيا من ملذات ونحو ذلك، فأصيب العلم والعلماء بجمود فكري نتيجة لعدم عناية العلماء وانصرافهم إلى أعمال أخرى (ولم يكن الجمود العلمي والكلال الفكري مقتصرين على تركيا وأوساطها العلمية والدينية فحسب، بل كان العالم الإسلامي من شرقه إلى غربه مصاباً بالجدب العلمي وشبه شلل فكري، قد أخذه الإعياء والفتور واستولى عليه النعاس)[3].

إلا أن السلطان عبدالحميد قد لاحظ هذا الجانب المهم ألا وهو التوسع في نشر التعليم المدني بشتى مراحله ونوعياته، فكان هذا بحق من أعظم

(١) الآية الأولى سورة المجادلة: ١١، والثانية من سورة الزمر: ٩.
(٢) انظر: تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه، د. عبدالحليم منتصر ٤٩ ــ ٥٤.
(٣) انظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي ١٥١.

الإصلاحات التي أدخلها في الدولة العثمانية، وقد التزم المتحاملون عليه الصمت المطبق تجاه هذا الإصلاح وتجنبوا الإشارة إليه من قريب أو بعيد التزاماً بخطتهم التي دأبوا عليها وهي أن تكون مهمتهم مقصورة على التشهير بعبدالحميد والتشكيك بنيّاته.

ومعلوم أن الناحية العسكرية وتعاليمها قد طغت بعض الشيء على التعليم المدني، وهي حقيقة لا ينكرها أحد، فالأتراك كانت أمة قتال وحرب، وقد اعترف ببسالة الأتراك الأعداء قبل الأصدقاء، قديماً وحديثاً، ولا شك أن هذه الحروب هي التي أملت نفسها على الدولة والظروف هي التي حتمت على الدولة السير فيه، فالأعداء المتربصون بالدولة العثمانية جعلت العثمانيين يسلكون هذا المسلك ولا عيب فيه، أما كونهم أمة قتال امتهنوا القتال إرهاباً وإفساداً في الأرض فذلك هو البهتان العظيم الذي ننكره، وننفيه ونبرىء الأتراك العثمانيين منه[1].

وقد واجه السلطان عبدالحميد أزمة في عدد المثقفين المدنيين الذين يصلحون لتولي الوظائف الفنية غير العسكرية، لأن الدولة نشأت وظلت دولة عسكرية واهتمت اهتماماً بالغاً بإنشاء قوات مسلحة ضاربة وتدريب أفرادها، وأغدقت عليهم الكثير من الامتيازات المادية والأدبية والنفوذ والجاه، وكانت تعينهم في المناصب العسكرية والمدنية على حد سواء، فأهمل التعليم المدني إلى حد كبير إلا في نطاق المعاهد والمدارس التابعة للهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة أو تشرف عليها إشرافاً مباشراً أو غير مباشر، وكانت هذه الدورة التعليمية ذات صبغة دينية إسلامية وأقيم بعضها بالجهود الذاتية[2].

وتابع عبدالحميد بثاقب نظره هذه الناحية فكانت له جهود في غير شؤون المال، جهود تستحق التسجيل في الناحية التعليمية بتشجيع العلم وأهله[3]،

(١) انظر: جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ١٨٧ ــ ١٨٨.
(٢) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ١١٥٧/٣.
(٣) عبدالحميد ظل الله على الأرض ١١٥.

وأوجد توازناً بين التعليم العسكري والتعليم المدني، فأنشأ كليات ومدارس عليا ومعاهد فنية لتخريج رصيد بشري مدني من ذوي الخبرة يسهمون في النهوض بالدولة مع اهتمامه في ذات الوقت بالتعليم العسكري والمعاهد العسكرية واستقدام بعثات عسكرية من الدول الأوروبية وبخاصة ألمانيا، لتطوير القوات المسلحة وتنظيم هذه القوات وتسليحها وتدريبها[1].

وقد راعى السلطان عبدالحميد في هذه المدارس أصالة الثقافة الإسلامية وأنها جديرة بأن تخلص الدولة من الجهل المطبق الذي تفشّى في جسمها، فهو يقول: (والأوروبيون يتوهمون أن السبيل الوحيد في الخلاص هو الأخذ بحضاراتهم جملة وتفصيلاً، مع أن أكثر رجال العلم يعترفون في أن الثقافة العثمانية الإسلامية جديرة بالهيمنة، كالثقافة الغربية على أقل تقدير، ولا شك أن طراز التطور عندنا هو غير ما عند الأوروبيين، وعلينا أن نتطور تحت ظروف طبيعية، ومن تلقاء أنفسنا، وأن نستفيد من الظروف الخارجية في حالات خاصة)[2]، وهو بذلك ينتقد المدارس التي تقيمها الطوائف الدينية غير الإسلامية التي كانت تعرف بمدارس «الملل»، الخاضعة للدولة أو للبعثات التنصيرية: الأميركية والنمساوية والفرنسية والإنجليزية والألمانية والإيطالية، وكانت هذه وتلك ترمي إلى تحقيق أهداف متباينة، ولكنها تتفق جميعاً في هدف واحد وهو أن يكون هدفها أبعد ما يكون عن خدمة الدين[3].

وقد تنبه السلطان لهذه المدارس وتلك البعثات لذا فهو ينبه في مذكراته إلى أنه (ما زال النصارى ينفقون الملايين في سبيل نشر النصرانية ببلاد الإسلام، وقد كان عليهم أن يفهموا من قبل بأن الحظ لن يحالفهم في هذه البلاد، فإذا صدق أن وفق المبشرون النصارى في اجتذاب البعض فتلك استثناءات قد تحصل

(١) السلطان عبدالحميد الثاني، مذكراتي السياسية ١٩٣.
(٢) السلطان عبدالحميد، مذكراتي السياسية ١٩٤.
(٣) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ٣/١١٥٧.

بإغراءات مادية لصعلوك أو مجنون، ولا يقبل النصرانية إلا ظاهراً)[1]، وفي موضع آخر يحذر من (أن الأفكار المستوردة من أوروبا تشكل خطراً كبيراً علينا وكارثة أليمة أرى من حولي المسلمين فأجدهم فطريين سعداء فلا أملك إلا أن أقاوم هذه الأفكار الأوروبية بكل ما أوتيت من قوة، إنها سموم تخرّب العقول والقلوب)[2].

تلك هي بعض العقبات التي صادفت عبدالحميد عندما عزم على توسيع رقعة التعليم في مملكته المترامية الأطراف، لكن العقبة الكبرى تمثلت في الديون التي تراكمت على الدولة وأثقلت كاهل السلطان نفسه، وقد بلغت ديون تركيا الأهلية عام ١٨٧٥م حوالي ٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه استرليني، وقدر الدخل بمبلغ ١٩,٤٥٨,٥٧٠ جنيه عام ١٨٧٣ ومبلغ ١٢,٠٠٠,٠٠٠ جنيه ضرائب غير مباشرة، وقد بلغ تعداد الامبراطورية بناء على إحصاءات غير رسمية سنة ١٨٦٧، ٤٣ مليوناً)[3].

والذي يهمنا من هذه الإحصائية الأرقام الهائلة في ديون الدولة وإن كانت غير دقيقة ومصدرها غير دقيق، لكن الذي لا شك فيه أن وصول السلطان للعرش كان في موقف عصيب، الديون من جهة والحرب الروسية من جهة أخرى، والثورات من جهة ثالثة كما سنعرف ذلك في المبحث الثالث إن شاء الله.

وعلى الرغم من هذه الظروف كان السلطان يعتبر الجهل أكبر عدو له، ومضى قدماً في خطته التعليمية (إن من يملك شيئاً من رجاحة العقل لا يعادي العلم ولا يمنع أي شيء جديد، شرط أن يكون علماً نافعاً، أما العلم الضار فأنا أعاديه إلى آخر نفس في حياتي)[4]، وفي موضع آخر يعترف بالتقدم الفكري

(١) السلطان عبدالحميد الثاني، مذكراتي السياسية ١٨٠.
(٢) نفس المصدر السابق ١٩٦.
(٣) انظر: عبدالحميد ظل الله على الأرض ٨.
(٤) السلطان عبدالحميد، مذكراتي السياسية ١٩١.

نتيجة للجهود التي بذلها بعد اعتلائه العرش (إن ما يسميه البعض بالجمود الفكري وليد أسباب تختلف عما يذكره الأوروبيون، ومن يتتبع الأمور سيجد أنه بعد اعتلائي العرش العثماني حدثت تطورات فكرية وليس هناك جمود حقيقي، والواقع أن حركتنا الفكرية بطيئة لكنها تتقدم بخطى وئيدة)[1].

وعلى الرغم من هذا البطء في هذه الناحية اعتبر السلطان عبدالحميد مؤسس التعليم الابتدائي والمتوسط على الطراز الغربي، فأنشأ المدارس الإعدادية والثانوية في كافة الولايات وأكثر المناطق، وافتتح في استانبول فقط ستة مدارس ثانوية، وكذلك افتتح المدارس الابتدائية في جميع القرى، وجعل تعليم اللغة الأجنبية إلزامياً في المرحلة الإعدادية.

كذلك أنشأ دوراً للمعلمين في عدد كبير من الولايات ومدارس للحقوق في بعضها وها هي بعض المؤسسات الثقافية التي افتتحها: متحف الآثار القديمة، المتحف العسكري، مكتبة بايزيد، مكتبة يلدز، مدرسة الطب، ثانوية حيدر باشا[2].

وقد امتدح السلطان عبدالحميد المدارس التي أنشئت في عهده (لقد ارتفع عدد المدارس منذ أن اعتليت العرش إلى عشرة أضعاف ما كانت عليه ٢٠٠,٠٠٠ مدرسة ومع ذلك فلا تفي هذه المدارس بالحاجة، والمدارس الثانوية عندنا على مستوى عالٍ من المناهج تعترف به الأوساط العلمية، ونحن بحاجة إلى فتح مدارس إعدادية تهيىء الطلاب لدخول مؤسسات علمية ليتخرج منها مهندسون ومعماريون وفنيون)[3].

ومنذ سنة ١٨٧٧م ـ أي منذ السنة التالية لارتقائه العرش ـ أبدى

(١) السلطان عبدالحميد الثاني، مذكراتي السياسية ١٩٣.
(٢) انظر: أسرار الانقلاب العثماني ٣٠.
(٣) السلطان عبدالحميد الثاني، مذكراتي السياسية ١٨٧.

السلطان عبدالحميد اهتماماً عميقاً بالمدرسة الملكية[1]، وهي أول مدرسة مدنية صرفة أنشأتها الدولة سنة ١٨٥٩م على عهد السلطان عبدالمجيد الأول، لتخريج موظفين مدنيين يعملون في دواوين الحكومة، فأعاد عبدالحميد تنظيم هذه المدرسة وعمد إلى تطعيم خطة الدراسة بها بمناهج حديثة وفتح أبوابها للطلبة الوافدين من الأقاليم العثمانية بعد أن كان القبول فيها مقصوراً على أبناء استانبول، وقدم للطلبة المغتربين تسهيلات عديدة للإقامة الكاملة في داخل المدرسة على نفقة الدولة، وشيّد مباني جديدة ألحقها بالمدرسة، وبعد أن كان عدد الدفعة الأولى التي تخرجت في المدرسة سنة ١٨٦١م قد بلغ ٣٣ خريجاً قفز هذا العدد في سنة ١٨٨٥ إلى ٣٩٥ خريجاً، كان من بينهم ٢٩٥ خريجاً من طلبة القسم الداخلي، وعدت هذه المدرسة مركزاً ثقافياً هاماً وأرضاً صالحة للأفكار الحديثة[2]، وقد تخرج من هذه المدرسة أعداد كبيرة من المفكرين الذين تركوا أثراً في الحياة الفكرية والسياسية في تاريخ الدولة.

إلى جانب هذه المدارسة رأى عبدالحميد أنه لا بد من الأخذ بالدراسات العليا لمواجهة متطلبات العصر، لذلك فهو يقول: (إننا بحاجة إلى تطوير المعاهد العليا وهذا أمر في غاية الصعوبة، بسبب جمود علمائنا المفرط، أما الأزهر في مصر فقد فهم علماؤه ضرورة الاستجابة لمتطلبات العصر فاستقطب عدداً كبيراً من شبابنا، فإذا بقيت معاهد استانبول لا تقدر على تخريج علماء مؤهلين فلن تصل أبداً إلى ما وصل إليه الجامع الأزهر)[3].

فمن المدارس العليا التي أنشأها السلطان عبدالحميد نذكر على سبيل المثال: المدرسة السلطانية للشؤون المالية وقد افتتحت سنة ١٨٧٨، مدرسة الحقوق أو مكتب الحقوق الشاهاني، وكان يعرف باسم «مكتبي حقوقي

(١) يقصد بكلمة (الملكية) أنها غير عسكرية (الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ١١٥٨/٣).
(٢) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ١١٥٨/٣.
(٣) السلطان عبدالحميد، مذكراتي السياسية ١٨٨.

شاهاني»، والفنون الجميلة ١٨٧٩، والتجارة (١٨٨٢)، والهندسة المدنية (١٨٨٤)، والطب البيطري (١٨٨٩)، والشرطة (١٨٩١)، والجمارك (١٨٩٢)، ولم يقل على عهده عدد المدارس العليا عن ثماني عشرة مدرسة[1]، إضافة إلى دار العلوم السياسية، الجامعة بفروعها: العلوم والحقوق والآداب، مدرسة الزراعة العليا، مدرسة التجارة البحرية، مدرسة الأحراج والمعادن، مدرسة اللغات، مدرسة المعوقين، دار المعلمات، مدرسة الفنون النسوية[2].

وقد فرض عبدالحميد سنة ١٨٨٤ ضريبة خاصة للتعليم، وبفضل حصيلة هذه الضريبة أنشأ عدداً من المدارس تتكون كلّ مدرسة من سبعة فصول في عواصم الولايات، ومدارس من خمسة فصول في الصنجقيات.

وأنشأت الدولة دوراً للمعلمين تغذي هذه المدارس بالمعلمين وجاء في الإحصائية الرسمية التي نشرت بعد الانقلاب الدستوري عام ١٩٠٨ مباشرة أنه كان في الدولة ثمان وثلاثون كلية معلمين في استانبول وحواضر الولايات والصنجقيات، وقد جعل السلطان عبدالحميد الثاني شؤون التعليم من اختصاص المجالس المحلية التعليمية لأنها أدرى بحاجة الإقليم إلى نوع التعليم وتوفر المدرسين أو قلتهم.

أما التعليم العسكري فقد ظفر بأوفى عناية من عبدالحميد، حيث دعم الكليات الحربية التي كانت قائمة وأنشأ مدارس حربية في أدرنة ومناستير ودمشق وبغداد وغيرها..

وأنشأ عبدالحميد مكتبات عامة عديدة، وساعدت الطباعة على طبع آلاف الكتب، وخطت الصحافة خطوات إلى الأمام، وظهرت مجلة «ثروتي فنون» أي ثروة الفنون سنة ١٨٩١ أسسها أحمد إحسان، واشترك في تحريرها صفوة من الكتّاب الأتراك العثمانيين[3].

(١) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ٣/١١٥٨ ـ ١١٥٩.

(٢) انظر: أسرار الانقلاب العثماني ٣٠.

(٣) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ٣/١١٦٠ ـ ١١٦١ ـ ١١٦٢.

ومن المدارس التي تدل بوضوح على دهاء عبدالحميد وحكمته في معالجة الأمور من البداية إنشاء مدرسة خاصة بالعرب في استانبول سماها مدرسة العشائر يدرس فيها أولاد الأعيان العرب من سوريا والعراق واليمن وغيرها، حتى إذا عاد هؤلاء العرب إلى بلدانهم يكونون قد عرفوا الولاء والطاعة لمعلميهم، واستطاع بعض من العرب أن يرقى إلى أعلى المناصب في الدولة، وشكّل كتائب الزحوف العربية واتخذها حرساً خاصاً بالقصر وقد حازت هذه الكتائب على إعجاب الأجانب[1].

وقد توّج عبدالحميد جهوده في الحقل التعليمي بإنشاء جامعة استانبول وعلى الرغم من أن عدداً من السلاطين قد سبقوه في التفكير في هذا المشروع منذ عام ١٨٤٥ على عهد السلطان عبدالحميد الأول إلا أن المشروع تعثّر تنفيذه لأخطاء وقع فيها ولاة الأمور وقتذاك في تخطيط المشروع الجامعي، واستطاع السلطان عبدالحميد الثاني بعد إعداد مسبق علمي ومنظم أن ينشيء الجامعة، وفتحت أبوابها للطلاب في اليوم الثاني عشر من شهر أغسطس ـ آب ـ عام ١٩٠٠م بمناسبة مرور أربع وعشرين سنة على ارتقائه العرش، وكانت تعرف باسم دار الفنون، ثم أطلق عليها اسم جامعة استانبول، وقد ضمت أربع كليات هي: كلية العلوم العالية الدينية (كلية أصول الدين)، وكلية العلوم الرياضية، وكلية العلوم الطبيعية، وكلية العلوم الأدبية (كلية الآداب)[2].

وإذا نظرنا إلى فروع هذه الجامعة الأربعة لوجدنا أن السلطان عبدالحميد لم يغفل العلوم التقنية بجانب العلوم الدينية التي أولاها في دعم حركته التي نادى بها باسم الجامعة الإسلامية إضافة إلى عنايته بهذه الدراسات وبخاصة الدينية منها، فإنه لم يكتف بنشر العلوم الدينية في المدارس الدينية النظامية فإنه أعطى حرية الدعوة إلى الله وإنشاء مدرسة للدعاة كما مرّ بنا في المبحث الأول من هذا الفصل.

(١) انظر: أسرار الانقلاب العثماني ٣٤.

(٢) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ٣/١١٥٩.

إلا أن وضع الدراسة الدينية قد وضع لها التقدميون عقبات وما سمّوه «حداً» على حد زعمهم، ففي الجلسة التي تم فيها إلغاء الخلافة تم فيها إلغاء التدريس الديني في المساجد، ذلك التدريس الذي كان واسع الانتشار في تركيا بحيث كان في ولاية قونية وحدها عام ١٣١٧هـ حوالي ٦٦ مدرسة دينية، حيث يدرس القرآن والسِيرة والفقه واللغة العربية وما إلى ذلك. . وصار الطالب يوجه توجيهات مضادة، ويلقن بأن الثقافة والتقاليد الإسلامية إنما هي من أسباب تأخر التركي وجموده[١].

هـذا فيما يتعلق بـالعلوم الدينيـة وما آل إليـه من المصير المحـزن، فما هو مصير الأدب العربي واللغة العربية؟؟

يقول ساطع الحصري: (إن تعليم الأدب العربي واللغة العربية وجد موئلاً في المدارس الأجنبية والمدارس المسيحية الطائفية، فانتشر تعليم الأدب العربي بين المسيحيين أكثر من انتشاره بين المسلمين)، ويعلل عدم انتشاره بين المسلمين بقوله: (لأن العرب المسلمين لم يؤسسوا مدارس خاصة بهم، بل ظلوا يرسلون أولادهم إلى المدارس الحكومية ـ إذا أرادوا تعليمهم ـ ولغة التعليم في المدارس الحكومية كانت اللغة التركية، إن هذه الحالة استمرت بعد انتهاء عهد التنظيمات وبدء عهد الدستور أيضاً)[٢].

لا شك أن ساطع الحصري قد ظلم الدولة في قوله قد عممت على مدارسها فرض اللغة التركية وإذا حدث هذا فإنما كان في عهد الاتحاديين وليس في عهد السلطان عبدالحميد ولا من قبله من السلاطين، فقد تركوا البلاد العربية التي فتحوها على ما كانت عليه تعيش في الظروف التي نشأت عليها، فلم يتدخلوا في شؤونها الخاصة، وسنرى ذلك في أثناء حديثنا عن تسامح الدولة مع الأقليات غير الإسلامية والامتيازات التي لا حدود لها وبخاصة في التعليم، وإذا كانت الدولة العثمانية قد سمحت بإنشاء مدارس خاصة للأقليات غير المسلمة

(١) انظر: مؤامرة فصل الدين عن الدولة ٨٨.

(٢) انظر: البلاد العربية والدولة العثمانية ٩٦.

فما المانع من إنشاء مدارس عربية لأبناء المسلمين؟ لكن الفقر والعوز الذي كانت عليه الدولة العثمانية بعد أن فقدت معظم مصادر الدخل حالت دون إنشاء هذه المدارس بشكل موسع في كل البلاد العربية، فقام أبناء البلاد العربية من حكامها بإنشاء مدارس في مناطقهم كمحمد علي في مصر فإنه ترك الأزهر يمضي في تدريس العلوم الدينية واللغة العربية وأوجد بجانب الأزهر المدارس الحديثة: المبتديان والتجهيزية والخصوصية أي الابتدائية والثانوية والعالية، فأوجد في مصر نظامين منفصلين لتعليم الناشئة[١].

إن تركيا في عهد التقدميين فعلت من الهدم ما كان كافياً لهدم كل ما قدمه السلاطين العثمانيين من أعمال دعوية، إن تركيا في عهدها القومي التقدمي (حكومة الاتحاديين) نكست أعلامها الرسمية حداداً على موت «إسحاق بن زفي» رئيس الحكومة الصهيونية وأعلامها الرسمية طالما كانت رمزاً لجيوش المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وكان شوكة في عين الاستعمار والصهيونية، فأصبحت بفضل العلمانية والقومية ذليلة مهانة تنكس أعلامها حداداً على الصهاينة[٢]، فما الذي يمنعها من فرض اللغة التركية على البلاد كلها؟؟.

إن الدولة العثمانية في عز مجدها وعظمتها كانت دولة يشار إليها بالبنان بأنها دولة إسلامية عاملت رعاياهامعاملة المسلم لغير المسلم كما أمر ديننا السمح، لكن هذا التسامح لم يفلح مع هؤلاء فاستغلوا هذا الجانب لتقويض كيان الدولة فأقاموا المشاريع وفتحوا المدارس وهو ما حذر منه السلطان عبدالحميد بقوله: (إن المدارس الخاصة تشكل خطراً كبيراً على بلادنا وقد كان خطؤنا جسيماً إذ سمحنا لكل دولة في كل زمان ومكان بإنشاء المدارس التي يرغبونها، والآن نجني ضرر ما زرعنا، سمحنا لهم بفتح هذه المدارس فقاموا يعلمون الطلاب أفكاراً معادية لبلادنا)[٣]، فليس بعيداً على هؤلاء الاتحاديين أن يفرضوا اللغة

(١) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ٣/١١٦٠.

(٢) انظر: مؤامرة فصل الدين عن الدولة ٧٨.

(٣) السلطان عبدالحميد الثاني، مذكراتي السياسية ١٨٧.

التركية على البلاد العربية بعد أن تشربت أفكارهم بالقومية التركية وأنهم أعلى الطبقات، وأن يتصرفوا تصرفاً جعل الناس يكرهون كل ما هو تركي.

وعلى الرغم من ذلك فقد كانت المساجد عامرة بالعلم والعلماء الذين حملوا العلم أمانة في صدورهم والحرمان الشريفان خير دليل على مسيرة العلم والعلماء.

إن البلاد العربية على الرغم مما قيل عنها في تلك الفترة من جهل أبنائها وتأخر علمائها قد حفلت بإصدارات تنم عن تقدم في الناحية الفكرية ووعي بما يدور حولها من أحداث جسام، وقد تمثلت هذه المطبوعات في الصحافة التي انتشرت بشكل موسع، ولكن للأسف قد أمسك بزمامها النصارى العرب وإن كانت هناك بعض إصدارات من جانب المسلمين، ويذكر أن إبراهيم اليازجي قد أصدر مجلتي (البيان) و(الضياء)، في عام ١٨٨٣ وصدرت قبل ذلك جريدة (الأحوال) في الشام عام ١٨٥٥، وكانت أول صحيفة عربية صدرت في بيروت هي (حديقة الأخبار) وذلك في عام ١٨٥٧ وفي عام ١٨٦١ أصدر أحمد فارس الشدياق في استانبول جريدة أسبوعية باسم (الجوائب)، واستمرت في الصدور حتى عام ١٨٨٤ وكانت من أشهر الصحف العربية آنذاك، وانتشرت حينما انتشرت اللغة العربية وعنيت بالسياسة الدولية، واستغل السلطان العثماني هذه الجريدة لإعلان سياسته الإسلامية على الرأي العام العربي.

وفي عام ١٨٦٩ أصدر الآباء اليسوعيون في بيروت جريدة أسبوعية باسم (البشير) وأصدروا كذلك في عام ١٨٩٨ مجلة علمية نصف شهرية دعيت «المشرق»[١].

وأصدر مسلمو بيروت عام ١٨٧٤ جريدة أسبوعية باسم (ثمرات الفنون) ورد عليها في الوقت نفسه بإصدار جريدة أسبوعية باسم «التقدم» وقد اشترك في تحريرها بعض التقدميين مثل أديب إسحاق.

(١) انظر: العرب والعثمانيون ٥١٣ ـ ٥١٤.

وأسس الموارنة في ١٨٨٠ جريدة «المصباح» والبروتستانت» كوكب الصبح المنير» والأرثوذكس «الهدية»»، وأصدرت السلطة العثمانية في بيروت في عام ١٨٨٦ جريدة باسم «بيروت» لتنطق باسمها ومع تعدد ولاءات هذه الصحف فقد أسهمت في نشر الثقافات المختلفة وسهل ظهور هذه الدوريات انتشار المطابع[١].

عمارة المساجد:

إن الفترة التي قضاها السلطان عبدالحميد الثاني (١٨٧٦ ـ ١٩٠٨) فترة أخذ المؤرخون جانباً واحداً منها وهو النيل من السلطان عبدالحميد واتهامه بكل ما أوتوا من أبشع الصفات ورذائل الأخلاق، وهي فترة قضاها المؤرخون في وصف عبدالحميد بالخليفة المستبد ووصف عهده بالعهد الحميدي الأحمر لكثرة ما أسال من دماء على حد زعمهم، أما من أنصف السلطان وأشار إليه بالبنان فقد اقتصر على وصفه بأنه قاهر اليهود وكاشف الماسونية ورائد الجامعة الإسلامية، ولم يتطرقوا إلى الأعمال الأخرى التي قام بها السلطان سواء أكان من ناحية التعليم أو من ناحية العمران والتقدم الحضاري في عهده.

والذي لا نشك فيه أن التقدم العمراني لا يقل عن التقدم الفكري الذي أخذ بزمام المبادرة به بعد مناداته بالجامعة الإسلامية، ولكن ليس هناك الدليل الكافي على وصف هذا التقدم العمراني غير ما ذكر في عمارة المسجد الحرام والعناية بالحجاز على نحو خاص.

ولعل اهتمامه بالحجاز يرجع إلى سياسته الإسلامية واحتضانه لفكرة الجامعة الإسلامية، تلك الفكرة التي كان السيد جمال‌الدين الأفغاني ١٨٣٩ ـ ١٨٩٧م رائدها وداعيتها الأكبر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كان الأفغاني يؤمن بقوة الوحدة الإسلامية، ويسعى إلى إقامة حكومة إسلامية قوية تنطوي تحت رايتها جميع الشعوب الإسلامية بهدف مقاومة الأطماع الأوروبية في العالم والتخلص منها.

(١) انظر: العرب والعثمانيون ٥١٤.

وفي إطار هذه السياسة حظي الحجاز بصفته مركز الحرمين الشريفين باهتمام السلطان وعنايته ويتجلى ذلك في عدة أمور منها:

١ ــ إنشاء الخط الحديدي الحجازي.

٢ ــ رصد مبالغ لإصلاح الحرمين الشريفين.

٣ ــ زيادة الأعطيات للبدو والنازلين على طول طريق الحج[١]..

وطوال حكم عبدالحميد لم تنقطع رواتب الأشراف من آل البيت حيث وصلت إليهم بانتظام بالإضافة إلى ذلك كانت تصلهم هدايا ونياشين دورية من السلطان، وكان هناك يوم خاص يحتفل فيه في استانبول بمناسبة إرسال سترة الكعبة إلى الحج ومع السترة ترسل أعلام وهدايا ثمينة[٢].

أولاً ــ عمارة المسجد الحرام:

أما عمارة المسجد الحرام والتحسينات التي أدخلها السلطان عبدالحميد الثاني فإنها تدل بلا شك على الاهتمام البالغ بهذا الموضع المقدس الذي تتجه إليه أفئدة المسلمين في كل مشارق الأرض ومغاربها، ولعل أحسن وصف لهذه العمارة ما ورد في كتاب «تاريخ عمارة المسجد الحرام» للشيخ حسين عبدالله بإسلامه رحمه الله يقول في ذلك الوصف: (وأما ما أدركته من العماير والإصلاحات التي جرت في عصر السلطان عبدالحميد خان الثاني ابن السلطان عبدالمجيد خان العثماني بالمسجد الحرام فإليك تفصيلها: وفي سنة ١٣١٤هـ عمارة عمومية عظيمة في عموم المسجد الحرام داخلاً وخارجاً، وسبب ذلك أنه مضى عليه منذ عمارة السلطان عبدالعزيز خان سنة ١٢٧٩ إلى سنة ١٣١٤ نحو ٣٥ سنة لم يجر فيه ترميم وإصلاح يذكر، ولطول هذه المدة زالت ألوان الأصبغة والنقوش المحلى بها عقود وجدار المسجد الحرام، وتكاثف الغبار على الأساطين الرخام حتى عمل عليها طبقة مرمدة وتغير لونها البراق البلوري بلون قاتم،

---

(١) انظر: مجلة الفيصل ١٢٧، العدد ٣٢، صفر ١٤٠٠هـ.

(٢) انظر: أسرار الانقلاب العثماني ٣٤.

وأزالت الشمس ألوان ما كان من النقوش على المقامات وأبواب المسجد وتصدع الفرش الحجري بداخل الأروقة والمماشي وحاشية المطاف التي عليها المقامات الأربعة وامتلأت بطون القبب من عش (طير الأبابيل)، ونسج العنكبوت بيوته على سقف وجدار المسجد الحرام، وتراكم الغبار على عموم ما احتواه المسجد الحرام من أبنية، وأبدل تلك الألوان الزاهية التي كانت بعد عمارة السلطان عبدالعزيز خان تشبه رياض الحَزْنِ المونقة بلون الرماد الباهت، وذلك لعدم تعهده طيلة تلك المدة بالصلاح والتنظيف والعمارة اللائقة به حيث قد دخلت عدة سيول المسجد الحرام بعد عمارة السلطان عبدالعزيز خان المتقدم ذكرها، وأتلفت قسماً عظيماً من فرش أرض الأروقة والمماشي، ولم يقم الموكلون بما يجب عليهم نحو ذلك، ولما كانت سنة ١٣١٤ هجرية صدر أمر السلطان عبدالحميد خان الثاني العثماني بإجراء ما يلزم للمسجد الحرام من عمارة وإصلاح وتنظيف ونقوش وما أشبه ذلك، فقام ناظر الحرم الشريف في ذلك العصر الوالي أحمد راتب باشا بإجراء كل ما يلزم، فعمل أولاً نحو خمسين سلماً من الخشب الفني الجاوي السميك وجعل كل سلم على أربعة قوائم بمقاسات مختلفة في الطول حسب اللزوم، فأول ما ابتدأوا به من العمل تنظيف القبب من عش الطيور والعنكبوت والغبار المتراكم وكافة الأوساخ، وكذلك تنظيف سطح المسجد الحرام مما تراكم عليه من الأوساخ ثم تنظيف الأسطوانات الرخام، وعين ناظر الحرم لذلك قسماً من الجنود التركية فكانوا يستعملون لتنظيف الأسطوانات قطعاً من الخيش يغمسونها في الماء ثم يكسونها في الرمل الناعم ويدلكون بها الأسطوانات دلكاً جيداً متكرراً عدة مرات وذلك لإزالة الغبار المتراكم عليها، وربما استغرق تنظيف الأسطوانة الواحدة أسبوعاً أو أسبوعين حتى تجلى ويعود لونها البراق البلوري إلى حالته الأصلية، وهكذا جرى العمل في تنظيف عموم الأسطوانات الرخام، وأما الأعمدة المبنية بالحجران الصوان والحجر الشميسي وعموم عقود المسجد الحرام وجداره، فقد عمّر به المسجد الحرام في عمارته الأخيرة التي جرت سنة ٩٨٤ هجرية وهي أربعة ألوان أسود وأحمر عنابي وأصفر برتقالي ورمادي، ووضعوا كل لون منها في إناء كبير ونصبوا تلك الأواني

حول الأروقة من داخل المسجد الحرام ودهنوا كل لون بما يناسبه حسب أصله، وأما بطون القبب وحاشية جدار المسجد الحرام السفلي ونصيفة الأعمدة الثخينة المبنية بالحجر الصوان فقد طلوها بمذاب الرخام الناصع البياض، وكذلك رمموا عموم المنابر والمقامات الأربعة ومقام إبراهيم الخليل عليه السلام وبئر زمزم، وأبواب المسجد الحرام ترميماً محكماً، ودهنوها مع أخشاب المقامات باللون الأخضر، وكذلك قبة مقام إبراهيم وقبة زمزم وغير ذلك، ومكثت تلك العمارة نحو سنة بجد واجتهاد ونشاط تام، فعاد المسجد الحرام إلى أحسن ما ينبغي أن يكون عليه من البهجة والرونق والأبهة والجلال كيوم أنشيء، وكتب تلك العمارة تحت (طرة) بالذهب باسم السلطان عبدالحميد خان بن السلطان عبدالمجيد خان العثماني سنة ١٣١٤هـ وهي لا تزال في موضعها إلى العصر الحاضر على شكلها يوم وضعت(١)، أي على عهد المؤلف.

ثانياً ــ عمارة المسجد النبوي:

فلم يكن هناك داع لأن يقوم السلطان عبدالحميد الثاني بإدخال تحسينات للمسجد النبوي إذ أن والده السلطان عبدالمجيد قد كفاه ذلك، فيذكر أن السلطان عبدالمجيد قد أنفق بسخاء لعمارة المسجد النبوي إذ بلغ ما أنفق بـ ١٤٠ كيساً من الذهب وكل كيس كناية عن خمس ذهبات مجيدية، وكل ذهبة ١٣٠ قرشاً رائجة في ذلك الزمن، وكانت عمارته بعد عمارة قيتباي الذي مرت على عمارته ٣٨٧ سنة وكانت كافية لأن تجعل كثيراً من أجزائه يعتورها الخراب، فأمر السلطان بعمارته وكان ذلك سنة ١٢٦٥هـ، وانتهت سنة ١٢٧٧ واستغرقت عمارته نحو ١٣ سنة... وكانت من أجمل العمارات التي جرت في مسجد رسول الله وأتقنها وأجملها، وقد بقي منها بعد العمارة السعودية الجزء القبلي(٢).

ولا تذكر المصادر أي شيء فيما يتعلق بعمارة السلطان عبدالحميد للمسجد

(١) انظر: تاريخ عمارة المسجد الحرام، حسين عبدالله باسلامه ٢٧٥ ــ ٢٧٧.
(٢) انظر: فصول من تاريخ المدينة المنورة، علي حافظ ٧٥ ــ ٧٦.

النبوي سوى ما ذكر عن الإنارة حيث ورد أن المسجد كانت إنارته بالزيت والشمع إلى أن بعث السلطان عبدالحميد الثاني مكنة كهرباء مع جميع تفرعاتها ولوازمها الكهربائية ومن ذلك الوقت إلى الآن، والإنارة جارية بالكهرباء(١).

اهتمام السلطان بالمرافق والمصالح العامة:

لقد كان السلطان عبدالحميد ملماً بأحوال دولته وظروفها، لذلك نجده يرمي في كل ميدان من ميادين الإصلاح بسهم وافر من إصلاحاته المتعددة، ولم تكن الأحوال السياسية لتشغله عن المرافق العامة للدولة واهتمامه بها، فنجده يتحدث في مذكراته عن تلك المرافق كاهتمامه بالصحة العامة، فيذكر دور الصحة في حياة المجتمع ويوضح كيف أن الإسلام أمر بالنظافة، وكيف أن المسلمين قد أظهروا في القرون الوسطى براعتهم في شتى نواحي العلوم والفنون ومن ضمنها تقدمهم في مجال الطب، فلم يكن ديننا عدو التقدم(٢)، وانطلاقاً من هذا الاهتمام نظمت المحاجر الصحية في أيامه واتخذت التدابير التي تحول دون انتشار الكوليرا أوغيرها من الأوبئة، وافتتحت المدرسة الطبية في حيدر باشا، وأخذ أطباء الحرم السلطاني وقابلاته يفدون إلى المعهد الجديد لاستماع المحاضرات(٣)، كما استدعى العالم الألماني الشهير البروفسور فون ديرنج لمحاربة الأوبئة التي كانت تفتك بواحد من كل أربعة جنود أتراك كل عام(٤)، وأسس السلطان مستشفى الأطفال ودار العجزة من ماله الخاص(٥)، وكانت مدرسة الطب الجديدة تقوم بالتدريس والتدريب فيها طبقاً لأحدث وسائل العصر ١٨٩٨م(٦).

(١) انظر: آثار المدينة المنورة، عبدالقدوس الأنصاري ١٠١.
(٢) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، مذكراتي السياسية ١٦٧.
(٣) انظر: سلاطين بني عثمان الخمسة ٩٧.
(٤) انظر: عبدالحميد ظل الله على الأرض ١١٦.
(٥) انظر: أسرار الانقلاب العثماني ٣١.
(٦) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ١١٥٩/٣.

كما أدرك السلطان أهمية الزراعة في رفع مكانة الدولة لأنها الغذاء الأول التي تمد الدولة بما يكفيها وتصدر ما يفيض من حاجتها فتتحسن ميزانيتها، وقد صرّح السلطان بأهمية الزراعة في مذكراته بقوله: (إن الزراعة أساس في غنى البشرية، وتمثل المرتبة الأولى بين الأعمال في الدولة العثمانية فهي الغذاء لجميع الكائنات الحية)[١].

وفي سبيل المضي قدماً في تنفيذ خطته الزراعية لرفع مستوى المعيشة لدى الأفراد في الدولة وبالتالي يمكن سداد الديون التي تراكمت على الدولة عن طريق الدخول الزراعية، أنشأ مصرفاً زراعياً ومدارس زراعية، ونفخ حياة جديدة في صناعة القطن وزراعته[٢]... إلى غير ذلك من الإصلاحات الزراعية كإنشاء شبكة ري مدروسة للاستفادة من النهرين التوأمين: دجلة والفرات، لتعود كما كانت قبل آلاف السنين جنة الدنيا...[٣].

إضافة إلى تلك الإصلاحات والأعمال كانت له أعمال لا تقل شأناً عما ذكرناه كبناء المدارس والمراكز الفنية المتعلقة بصناعات صيد الأسماك، والغابات وتربية دودة القز، كما وضع نظاماً لشبكة جديدة من مياه الشرب في العاصمة، وأمر بإنشاء مصنع للإسمنت ومصنع كبير للنسيج[٤].

كما أسس مركز البريد العام ومبنى دار الفنون ودار النفوس العام، والغرف التجارية والزراعية والصناعية.

وفي عهده جرى توسيع معمل الطرابيش وافتتح معمل الخزف، وبعد هذا وذاك جرى في عهده تمديد الخطوط الحديدية من دمشق إلى المدينة المنورة بطول ١٣٢٧ كم المسمى بالخط الحديدي الحجازي خدمة للإسلام والمسلمين[٥].

---

(١) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، مذكراتي السياسية ١٨٩.
(٢) انظر: عبدالحميد ظل الله على الأرض ١٧٠.
(٣) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، مذكراتي السياسية ٦٨.
(٤) انظر: عبدالحميد ظل الله على الأرض ١١٦.
(٥) انظر: أسرار الانقلاب العثماني ٣١.

الخط الحديدي الحجازي:

استمراراً لسياسة الجامعة الإسلامية بدأ السلطان بتنفيذ مشروع خط سكة حديد الحجاز في ربيع عام ١٩٠١ وانتهى في خريف عام ١٩٠٨ حيث أوصل القسطنطينية بالمدينة المنورة مخترقاً سوريا من الشمال إلى الجنوب[١].

ولم يكن هذا الخط وليد المصادفة، فقد رأى السلطان عبدالحميد ضرورة إنشاء هذا الخط وأن الحاجة ماسة إليه، وقد بدأت فكرة إنشاء هذا الخط في عام ١٢٨١هـ - ١٨٦٤م (أثناء العمل في فتح قناة السويس) حيث تقدم الدكتور زامبل الأميركي (ألماني الأصل) باقتراح لتمديد خط حديدي يربط بين دمشق والبحر الأحمر، وفي عام ١٢٩٨هـ - ١٨٨٠م ووافق وزير الأشغال العامة العثماني على هذا المشروع، ولكن المتنفذين في وزرائه قالوا بتعذر إنشائه، وحجتهم أن المنطقة التي يجب أن يخترقها الخط تنزلها قبائل بدوية لا يؤمن جانبها، ثم أن المواصلات البحرية أقل كلفة.

ولكن عندما بحث المشروع بشكل جدي وبتدخل من السلطان تبين أن نفقات إدارة الحج تكلف الدولة نحو ١٥٠ ألف ليرة عثمانية يضاف إليها نحو ٦٠ ألف ليرة عثمانية قيمة هدايا وأعطيات للبدو، كما كان أمل السلطان كبيراً بوصول مبالغ عظيمة من العالم الإسلامي دعماً للمشروع، وقد تحقق أمله[٢] فافتتح السلطان قائمة التبرعات بربع مليون ريال، واكتتب أمير من الهند بمليون فرنك لإنشاء محطة في المدينة المنورة[٣]، وتبرع شاه فارس (إيران) بخمسين ألف ليرة، وأرسل عباس حلمي الثاني خديوي مصر كميات من مواد البناء، وتألفت لجان في سائر الأقطار الإسلامية لجمع التبرعات، ونقلت مخصصات دائرة الحج ومقدارها ١٥٠ ألف ليرة في السنة إلى ميزانية الخط[٤].

---

(١) انظر: موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ٢٧٨.
(٢) انظر: مجلة الفيصل، العدد ٣٢ صفر ١٤٠٠هـ، ص ١٢٨.
(٣) انظر: عبدالحميد ظل الله على الأرض ١٧٧.
(٤) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ١٣٢٧/٣.

ويمكننا أن نقول بكل فخر: أن هذا المشروع إنما كان ثمرة لجهود الأقطار الإسلامية جميعها، ومثالاً للتعاون المثمر بين المسلمين في كل زمان، لأن كلمة الحق جمعتهم، ودافع طلب الأجر والثواب من الله جعلهم لا يتأخرون في تقديم كل ما أمكن تقديمه من مساعدات لإنجاح هذا المشروع.

من فوائد إنشاء هذا الخط:

مما لا شك فيه أن الدولة العثمانية بل والعالم الإسلامي قد جنى ثمار هذا الخط، وقد هدف السلطان عبدالحميد من وراء هذا الخط هدفين مزدوجين متلاحمين بحيث يصعب الفصل بينهما:

أولهما: إن طول الخط الذي بلغ ١٢٠٠ ميل[١] ليس بالأمر السهل في رحلة الحجاج من دمشق إلى المدينتين المقدستين، إذا علمنا أن هذه المسافة كانت تستغرق نحو شهراً ونصف ذهاباً ومثلها إياباً، وكان الحجاج يتحملون في أثناء ذلك صنوفاً شتى من المتاعب والمشاق وهم يركبون الجمال عبر البوادي والصحاري القاحلة الجرداء وتحت حرارة الشمس الشديدة أو في أثناء فصل الشتاء وقرّه وقسوته[٢]، نجد أن هذا الخط يخدم الحجاج ويسهل وصولهم إلى الديار المقدسة ليس باعتبار الحج فريضة دينية فحسب، بل هو كذلك بمثابة مؤتمر إسلامي سنوي كبير يلتقي فيه المسلمون من كافة أرجاء الأرض حيث يتعارفون ويتباحثون في الشؤون الإسلامية[٣].

ثانيهما: يقول السلطان عبدالحميد في مذكراته (لقد أثبت الخط الحديدي الحجازي أن بلادنا لم تفقد قابليتها للتطور، وأنه يمكننا إحباط محاولات إنكلترا المتكررة في عرقلة أي عمل نقوم به لخدمة بلدنا وأمتنا، سيتم إن شاء الله مد هذا الخط وسنستغني عن قناة السويس وسنربط استانبول بالمدينتين المقدستين

---

(١) انظر: عبدالحميد ظل الله على الأرض ١٧٧.

(٢) انظر: مجلة العربي، العدد ٢٧٦، نوفمبر ١٩٨١، ص ١٤٤.

(٣) انظر: مجلة الفيصل العدد ٣٢، صفر ١٤٠٠هـ، ص ١٢٨.

مكة والمدينة، وستتمكن من تأمين المواصلات المدنية والعسكرية بكل أمان واطمئنان)[١].

وفعلاً قد جنى عبدالحميد ما توقعه من إنشاء هذا الخط، فقد أصبح بالنسبة للدولة العثمانية مصدراً من مصادر القوة داخلياً وخارجياً في الشرق والغرب، كما أدى إلى تقوية السلطة المركزية للسلطان.

وهناك هدف آخر لا يقل عن الهدفين السابقين تمثل في الأهمية الاقتصادية بالنسبة للمناطق التي مر بها، إذ استعمله الأهلون لأسفارهم، ولنقل محصولاتهم الزراعية إلى المدن الكبيرة والموانىء[٢]، ومهما قيل عن هذا الخط فإنه لا يكفي للإشادة بهذا العمل الجبار الذي نجح نجاحاً باهراً بضعة أسطر لذكر فوائده ومزاياه.

وقد كانت للأوضاع السياسية أثر كبير في منع وصول الخط إلى المكان المقرر له غير المدينة المنورة كما كان دافعاً لتخريبه أثناء الثورة العربية بزعامة الشريف الحسين بن علي أمير مكة المكرمة ـ حينئذٍ ـ في الخامس من شهر يونيو ـ حزيران ـ سنة ١٩١٦ على الدولة العثمانية[٣].

وهكذا توقف هذا الخط بعد أن عمل زهاء تسعة سنوات فقط[٤].

***

---

(١) السلطان عبدالحميد الثاني، مذكراتي السياسية ١٠٥.

(٢) انظر: مجلة العربي العدد ٢٧٦، نوفمبر ١٩٨١، ص ١٤٧.

(٣) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ١٣٤٠/٣.

(٤) انظر: نفس المصدر ١٣٤٠/٣.

المبحث الثالث

أثره في نشر الدعوة خارجياً

تمهيـــد:

لقد كان الهدف من إيراد هذا المبحث هو جهود السلطان عبدالحميد في نشر الدعوة الإسلامية خارج نطاق الدولة العثمانية، وقد رأيت من واجبي أن أسلط الضوء إلى تلك الجهود وما تمخضت عنه من نتائج، ولكن للأسف الشديد أن المراجع لم تسعفني لكي أعطي الصورة الحقيقية لجهوده في هذا المجال كما هو مطلوب مني، ومعلوم مدى فائدة المراجع لكل باحث ملتزم بالأمانة العلمية، حيث لا فائدة من سرد أحداث ومنجزات للسلطان هي من نسج الخيال، ولعل من الأسباب التي تجعله لا يتفرغ للعطاء الخارجي كثرة الفتن داخل الدولة العثمانية كما أن معادلة العناصر والأجناس كانت معقدة بحيث شغلته كثرة الفتن وقضايا العناصر المتشابكة عن متابعة نشر الدعوة نشراً سلمياً خارج الامبراطورية، ويضاف إلى ذلك قوة أوروبا والتحامها ضده وهذا من شأنه أن ينضم إلى العامل الداخلي في إضعاف جهوده الخارجية لنشر الدعوة، ومن هنا كان لزاماً عليّ أن أتحدث عن جزء يتعلق بالبحث توفرت مراجعه ألا وهو جهوده في صد المعتدين وردّ كيد أعداء الدين الذين تربصوا بالدولة العثمانية الدوائر بعد أن تقطعت أطرافها واستقلت بعض أجزائها، فشمر عبدالحميد عن ساعد الجد لحماية دولته من هؤلاء المعتدين واستطاع بحق أن يكون آخر الحصون التي دافع بها الإسلام عن وجوده العالمي.

ولقد كان للسلطان عبدالحميد باع طويل في هذا المجال، وإن أغفله بعض المؤرخين وانصرفوا إلى كيل المديح لمواقف لا تستحق هذه الهالة، ونسوا

أو تناسوا مواقف عبدالحميد تجاه الأعداء في الخارج، وكيف استطاع بحنكته أن يلمّ شعث ما تفرق أو فرّقه أسلافه ممن سبقه من السلاطين ممن ركن إلى الراحة ورغد العيش، واستطاع أن يحمي الدولة العثمانية طوال حكمه بكل دهاء وحكمة سياسية، شهد بها الأعداء قبل الأصدقاء، وأخّر بسقوط الدولة سنوات طوالاً، ردّ في أثنائها كيد الأعداء وجعل بأسهم بينهم شديداً.

الوضع العسكري قبل تولي عبدالحميد:

يمكننا أن نتتبع حالة الدولة ووضعها العسكري منذ عهد السلطان عبدالمجيد والد السلطان عبدالحميد، فقد ذكر بعض المؤرخين أنه ترك البلاد في حالة من العوز الشديد وقد مزقتها الخلافات الدينية والعنصرية، وأخذت تنوء تحت ثقل الديون الأجنبية التي بلغ مجموعها ١٨٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه استرليني[١] هذا عدا الأوضاع العسكرية التي يرثى حالها.

ثم كان عهد السلطان عبدالعزيز (١٨٦١ ـ ١٨٧٦) الذي كان عهده قليل الحروب نسبياً على عكس عهود أسلافه، إلا أنها كانت فترة خطيرة من التاريخ التركي إذ كانت الأقاليم البلقانية كافة تستعد للحصول على امتيازات أكثر من الأتراك إن لم يكن الاستقلال الكامل[٢]، فقد تحركت الولايتان الرومانيتان في الجبل الأسود وفي صربيا نحو الاستقلال واتحدتا تمهيداً لظهور (رومانيا).

وكانت اليونان تتطلع إلى استكمال وحدة اليونانيين الخاضعين للأتراك، بل وكانت تتطلع إلى إزمير وإلى الهدف الضخم (القسطنطينية)، أما في كريت فقد ثاروا لضرب المسلمين في الجزيرة وإبادتهم وبالتالي تخلص لليونان.

كما كانت القلاقل في البوسنة والهرسك متتالية، والبلغار ضد الأتراك

(١) انظر: عبدالحميد ظل الله على الأرض ٤٣.
(٢) انظر: الشعوب الإسلامية ١٩٩.

المسلمين الذين فروا من أمام الروس فوقع الصدام بينهما، فأصدر الباب العالي فرماناً بإنشاء كنيسة بلغارية مستقلة بنفسها إرضاءً للبلغار كما تقول كتب التاريخ[١].

أمام هذا الوضع المتدهور تولى السلطان عبدالحميد الحكم في آن عصيب وشديد ورأى بثاقب نظره أن يتلافى الدخول في حروب مع الدول المجاورة ريثما يستطيع الوقوف هو ودولته في وضع قوي، وفعلاً سار في سياسته بتحسين الوضع الداخلي في دولته بتنفيذ مطالب خصومه في الداخل كما أشرنا إليه في مبحث أبرز الأحداث في عهده، وكيف أنه قبل الدستور نتيجة الظروف التي حتّمت عليه ذلك.

وليس بغريب على السلطان أن يربط بين عدائه لأوروبا وبين مناصبته العداء للدستوريين ودعاة الإصلاح الذين أرغموه في فترات حرجة لقبول أمور لم يكن ليقبلها إن توفرت له أسباب القوة والمنعة، فثمة العديد من الروابط التي جعلت الدستوريين والإصلاحيين على تباين نزعاتهم على علاقة ما بأوروبا وأفكارها ورجالها، وتمثل ذلك في مناصرتها لمدحت باشا حينما صدر بحقه حكم الإعدام[٢].

هؤلاء الأوروبيون الذين حملوا العداء للدولة قد برهنوا على عدائهم مرات عديدة وإن كانت المساعدات الأوروبية لتركيا تصل تباعاً إنما كان لهدف يضمره الأوروبيون فقد رأوا أن تركيا حاجز ذو قيمة ضد الخطر الروسي، فشددت أوروبا من ضرورة الإصلاح الداخلي، إذ أن كل تقوية لجسد «الرجل المريض» ـ كما كان يسميها الأعداء ـ كانت تزيد من قوة نصوص معاهدة الصلح التي كانت تحمي طريق الهند بإغلاق الدردنيل في وجه السفن الروسية.

وفضلاً عن ذلك، لم يكن الانجليز والفرنسيون يفكرون في الحرب

(١) انظر: الشعوب الإسلامية ٢٠٠.
(٢) انظر: عبرة وذكرى أو الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده، ٤٢ بقلم المحقق.

فحسب، بل أنهم عندما كانوا يقدمون القروض ويرسلون البعثات الاقتصادية والحربية إلى مقاطعات الامبراطورية الشاسعة ويؤسسون المدارس وينشؤون السكك الحديدية والتلغرافات وغير ذلك كانوا يفعلون ذلك وإحدى عينيهم على التجارة، فلم يكن القصد من إنشاء الطرق نقل الجنود لمحاربة روسيا فحسب، بل لتسهيل غزو التجارة الأوروبية لآسيا وأما المدارس الجديدة فكانت لتثقيف النشىء الصغير وإعداده لشراء البضائع الأوروبية الجديدة[1].

لقد أدرك عبدالحميد أن تلك المساعدات التي كانت تقدمها الدول الأوروبية إنما كانت لأهداف يرمي من ورائها الأوروبيون إلى أهداف بعيدة، ولعل الحصول على الامتيازات أول تلك الأهداف، إذ بواسطته تسهل الوصول إلى الغاية المخطط لها ألا وهو الاستعمار بشقيه الفكري ثم العسكري، فكان لا بد عليه وهو سلطان المسلمين أن يضع الحل الأمثل لإنقاذ البلاد من براثن الاستعمار والإصلاح يكمن في إصلاح الجيش، وقد حمل القانون الذي صدر في ٢٧ صفر سنة ١٣٠٤ (٢٥ نوفمبر ١٨٨٦) جانباً مهماً في تقوية الجيش العثماني الذي تمثل بجعل الخدمة العسكرية إجبارية وشخصية على جميع رعايا الدولة المسلمين ومدتها عشرون سنة، ومع ذلك فإن عدة طوائف من المسلمين معفوون من القرعة العسكرية، ومدة الخدمة في الجيش موزعة على الكيفية الآتية: ست سنوات في الجيش العامل أو النظام والاحتياطي، وثماني سنوات في جيش الرديف، وست سنوات في جيش المستحفظين، والقسم الذي يؤخذ كل سنة ينقسم إلى طبقتين، تشمل الأولى الشبان الذين لا يعفون من الخدمة لسبب من الأسباب، والطبقة الثانية تشمل المعفيين بأسباب عائلية أو صناعية أو غيرها.. كالمعفيين بسبب العاهات، ورجال الطبقة الأولى يدخلون في سلك الجيش العامل فترة ثلاث سنوات أوستة شهوراً أو تسعة، وجنود الطبقة الثانية أي المعفوون لأسباب عائلية أوغيرها كما تقدم أي الذين يصلحون منهم للخدمة

(١) انظر: عبدالحميد ظل الله على الأرض ٣٧.

العسكرية تعطى لهم التعليمات العسكرية يوماً في الأسبوع مدة ثمانية شهور ويصبحون احتياطياً للجيش العامل لسد النقص الذي يحدث بين مجموع الجنود الموزعين بالبلاد وقت السلام[1].

ومما يلاحظ على هذا القانون أن غير المسلمين معفوون من الخدمة العسكرية في الدولة العثمانية وذلك عائد لعدة أسباب يطول الشرح فيها، ولكن يمكن أن نطلع على جزء من تلك الأسباب فيما نوّه به السلطان في مذكراته بقوله: (إن فكرة إخضاع غير المسلمين للخدمة العسكرية تعدو كونها خيالاً، إنها عملية انتحارية بالنسبة لنا، فإذا قبلنا نحن المسلمين أن نخدم في الجندية مع أتباع الأديان والمذاهب الأخرى جنباً إلى جنب لأصبحنا في وضع لا نحسد عليه، فساسة الدول الكبرى وهم أسياد هذه الأقوام غير الإسلامية لا تتردد في إحداث المتاعب والمشاكل في وجوهنا، ثم إنهم يخشون على إخواتهم في الدين من أن يتحولوا عن دينهم إلى دين الإسلام. ثم إن هناك محاذير أخرى مثل احتمال طلبهم إنشاء كنائس في الثكنات العسكرية وتعيين قسيسين للصلاة بهم ولتعليمهم أمور دينهم)[2].

وانطلاقاً من الاعتماد على العناصر الإسلامية في الدولة قام عبدالحميد بعدة إصلاحات في النواحي العسكرية تعتبر بلا شك مهمة جداً.

فقد استقدم عدداً من الجنرالات الألمان المختصين، منهم فون دركولج، وفون هوفذ، وكامب هوفز، حيث درّبوا الجيش العثماني حسب متطلبات العصر، وأرسل بعثات عسكرية للتدرب في الجيش الألماني وافتتح الإعداديات العسكرية، وجهز الجيش بالأسلحة الحديثة[3].

(١) انظر: حقائق الأخبار عن دول البحار ٧٦٧.
(٢) انظر: عبدالحميد الثاني، مذكراتي السياسية ١٠٣.
(٣) انظر: أسرار الانقلاب في العثماني ٣١.

واتجه السلطان إلى الألمان وذلك نتيجة ظروف حتمت عليه ذلك لأن أوروبا في ذلك الوقت حالت بينه وبين الوصول إلى القوة، وظلت تصارعه في كل مكان حتى لا تتمكن الدولة العثمانية من التجديد والبناء[1]، فجاء الألمان في بعثة عسكرية ضمت عدداً من كبار الضباط الألمان بقيادة الجنرال فون در عولتز تألفت من خمسة وعشرين ضابطاً يمثلون جميع أسلحة الجيش فوزعهم السلطان على جيوشه حيث بدأوا نهضة عسكرية واسعة النطاق[2].

والذي يبدو والله أعلم أن السلطان عبدالحميد رأى في ألمانيا وقد تألفت من عدة مقاطعات في دولة جديدة بعد سلسلة من الانتصارات على جيرانها خير دعم لسياسته الإصلاحية العسكرية، فيعتمد على تأييدها في مقاومة دول الاستعمار الثلاث الكبرى (انكترا وفرنسا وروسيا) وكانت لا تفتأ تكيد لدولته وتتآمر عليها[3]. فأصبحت تركيا في حاجة ماسة لألمانيا، وألمانيا هى الأخرى في حاجة لتركيا، فإن ألمانيا التي بلغت مرتبة الدولة العظمى كانت في سياق ثورة صناعية، وقد ارتفع عدد سكانها منذ الحرب البروسية ــ الفرنسية من ٣٨ مليوناً إلى ٥٦ مليوناً، وكان استهلاكها من القمح يفوق كثيراً ما كانت تربتها تستطيع إنتاجه، كما أن صناعة النسيج الألمانية كانت مضطرة لاستيراد تسعة أعشار موادها الأولية، ومن الناحية الأخرى فقد كان إنتاجها من الأسلحة والماكينات والمنسوجات يزيد كثيراً على حاجة الاستهلاك المحلي وأخيراً: كان هنالك العدد الفائض من الرجال والنساء ــ كالفائض من الصناعة ــ الذين كان ينبغي أن توجد لهم المنافذ، لكي تستمر قوة الدولة، والوحدة التي تأسست حديثاً في الازدهار المتناسق، لقد مكنت المستعمرات الانجليزية والفرنسية شعوب هاتين الدولتين من العيش في رغد ورفاهية، وأما المانيا ــ التي جاءت متأخرة ــ فلم يكن لها نصيب في هذا النعيم[4]، فوقفت ألمانيا وقيصرها في موقف مغاير لما كانت عليه

(١) انظر: اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار ٣٠.
(٢) انظر: أسرار الثورة العربية الكبرى، أمين سعد ٣٢.
(٣) انظر: نفس المصدر ٣٢.
(٤) انظر: عبدالحميد ظل الله على الأرض ١٤٥.

الدول الاستعمارية، وكان ذلك بلا شك لهدف كانت ألمانيا تسعى إليه، وكانت النتيجة أن وضع الامبراطور عينه على تركيا، وكانت التقارير تأتيه متتالية عن الخيرات الدفينة في باطنها، وثمة مبالغات في التقديرات، ولكن القيصر كان معجباً بالفكرة فاستولت عليه وآلى على نفسه أن يشرف على تنفيذها وكان أول مظهر قوي هو قيامه بزيارة خليفة المسلمين السلطان عبدالحميد[1].

ففي الأول من تشرين الثاني ١٨٨٩ أبحر اليخت الامبراطوري الألماني ــ الهوهترلرن ــ في الدردنيل يحمل على ظهره الامبراطور غليوم (وليم) الثاني وزوجته في زيارتها للسلطان[2] وكانت بداية لتوطيد العلاقات التي ازدادت كلما تأزمت العلاقات بين تركيا والدول الأوروبية الأخرى نراها توثقت مع ألمانيا، ففي سنة ١٨٩٨ دعا السلطان عبدالحميد الثاني الامبراطور غليوم الثاني لزيارته في عاصمته توطيداً للصداقة الجديدة التي نشأت بين البلدين وتأكيداً لها، فاحتفى به الترك حفاوة بالغة، ثم زار بيروت ودمشق وفيها زار مرقد السلطان صلاح الدين الأيوبي، وأهداه قنديلاً أثرياً، وخطب فأعلن أنه يعد نفسه صديقاً للعالم الإسلامي، ثم زار القدس أيضاً[3].

ولم يكن هدف زيارة غليوم للشرق حماية البروتستانت في الأراضي المقدسة، ولم تكن مجرد مجاملة صديقه عبدالحميد، وإنما اتفق وجوده في استانبول مع منح امتياز مرفأ حيدر باشا إلى شركة الخطوط الحديدية الأناضولية الألمانية.. والجدير بالذكر أن الدبلوماسية الألمانية في الشرق الأدنى كانت (دبلوماسية الخطوط الحديدية)[4] حيث أعطيت الشركات الألمانية امتيازات لمد تلك الخطوط داخل الدولة العثمانية.

(١) انظر: الشعوب الإسلامية ٢٠٤.
(٢) انظر: العرب والعثمانيون ٤٢٧.
(٣) انظر: أسرار الثورة العربية الكبرى ٣٢.
(٤) انظر: العرب والعثمانيون ٤٢٨.

كما أن السلطان عبدالحميد منح البنك الألماني حق إنشاء فروع في بلاده[1] وكان الهدف من استقدام هؤلاء الألمان ومنحهم الامتيازات من أجل أن يكون هناك انفتاح اقتصادي وإصلاح لخزانة الدولة التي أفلست نتيجة الديون المرهقة والثورات الداخلية التي أرهقت كاهل الدولة، والحروب التي شنّتها الدول الكبرى ضد مصالح الدولة العثمانية وهي الحروب التي سنتحدث عنها في الصفحات التالية، وموقف الدولة من تلك الحروب وما تلا ذلك.

بداية التدخل الروسي والأوروبي ضد الدولة العثمانية:

تدخلت الدول الأوروبية كثيراً في شؤون الدولة العثمانية مراراً في أثناء فترة ضعف الدولة بحجة حماية الرعايا المسيحيين في أراضي الدولة العثمانية، مما حدا بأهالي تلك المناطق إلى مطالبة الباب العالي بتخفيض الضرائب التي تؤخذ منهم إلى غير ذلك من المطالب، وقد وافقت الدولة على بعض المطالب وذلك حسماً للنزاع وحتى لا يكون للدول سبيل للتدخل بصيغة أشد[2]، بمعنى أن الدولة لم تترك فرصة لتدخل الدول في شؤون تركيا الداخلية وذلك بأن سدّت المنافذ إليها بعمل كل ما من شأنه إسكات الأصوات الداخلية المطالبة بتحسينات داخل الدولة، لكن هناك حادثة حصلت في أوائل حكم عبدالحميد الثاني بمدينة سلانيك نسبها الأوروبيون إلى تعصب الإسلام الديني مع أن منشأها تعصب المسيحيين ضد المسلمين وتعرضهم للحرية الدينية التي يتظاهرون دائماً بالدفاع عنها إيهاماً وتغريراً، لتكون لهم حجة للتدخل في بلاد الشرق وتفريق الكلمة بين الشرقيين فيسهل استيلاؤهم على بلادهم.

وتفصيل هذه الحادثة: أن فتاة بلغارية مسيحية اعتنقت الدين الإسلامي طائعة مختارة وأتت إلى سلانيك في ٥ مايو سنة ١٨٧٦ لإثبات إسلامها شرعاً، فتعرض لها بعض أوباش الأروام في الطريق حين توجهها إلى دار الحكومة

(١) انظر: أسرار الثورة العربية الكبرى ٣٢.

(٢) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية ٦٠٣.

واختطفوها من أيدي المحافظين عليها بالقوة، وأخفوها أولاً في محل القنصل الأميركي ثم في أحد بيوت كبرائهم، ولما اشتهر هذا الخبر بين المسلمين هاجوا وماجوا وتجمعوا في فسحة دار الحكومة طالبين البحث عن البنت وتخليصها من أيدي المخفين لها، فوعدهم الوالي بإجراء شؤون وظيفته، ثم لما رأى المسلمون عدم نجاح بحث الحكومة تجمّعوا ثانياً في اليوم الثاني في أحد الجوامع مشددين النكير على الحكومة وفي أثناء هذا الهياج حضر قنصلا فرنسا وألمانيا ويقال أنهما دخلا الجامع، ولتوتر الإشاعة بأن البنت في بيت قنصل ألمانيا ازداد الهياج وفي أقل من القليل بلغت الحدّة منتهاها من المجتمعين وتعدّوا على القنصلين بالقتل.

ولما وصل خبر هذه الحادثة إلى الدول اضطرب وزارؤها وتبادلوا المخابرات البرقية للاتفاق على اتخاذ سبب للتدخل[1].

ولكنه كان تدخلاً في مطالبة الدولة العثمانية بإجراء إصلاحات جذرية في البلاد وإعطاء حقوق أكثر مرونة للمسيحيين في تلك المناطق، وقد وافقت الدولة على هذه الإصلاحات تحت ضغط الدول الكبرى عليها، ومن تلك المطالب ما تقدم به الأهلون في بلاد الهرسك الداعية إلى الانفصال بمساندة الدول الأوروبية، لكن الدولة اتخذت معهم الشدة وسرعان ما أخمدت ثورتهم على الرغم من دعم الصرب والجبل الأسود عام ١٢٩٢هـ، ثم عادت الدولة العثمانية فمنحتهم في نهاية العام نفسه بعض الحقوق والامتيازات ولكنهم تمادوا في غيهم فسحق تمردهم[2]، وربما كان للنمسا يد في هذه الفتنة إذ كان مطمح أنظارها الاستيلاء على ولايتي البوسنة والهرسك معاً لمجاورتها لبلادها، فقدّم أهالي الهرسك أولاً عريضة للباب العالي يطلبون تخفيض الضرائب الحالية عموماً، وبدلية العسكرية خصوصاً، وأن يعدهم السلطان وعداً صريحاً بعدم ترتيب ضرائب جديدة عليهم في المستقبل إلى غير ذلك من المطالب فلم يجبهم الباب

(١) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية ٦٠٤.

(٢) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون ١٧٠.

العالي لطلباتهم بل عزَّز الحامية، ولما تظاهر الأهالي بالعصيان وأشهروا السلاح ضد عساكر الدولة أصدرت أوامرها بقمعهم فوراً، فأخمدت الثورة رغماً عن مساعدة الصرب والجبليين لهم سراً وعلناً وتعضيد الجمعيات لهم[1] من تلك الجمعيات ما كان يرأسها الجنرال الروسي (أغناتيف) وهي شكلت أساساً من الأعيان الروس لنشر نفوذهم بين الطوائف السلافية وبدعم من السلطات الروسية القيصرية قامت جمعيته بإثارة الاضطرابات في بلاد البوسنة والهرسك[2]، وفعلاً أثيرت الاضطرابات في تلك المنطقة لكن الدولة كانت تقمع ثوراتهم بالقوة، إلى أن لجأ الأهالي إلى الدول الأوروبية التي قامت بدورها بإصدار لائحة تنظم حياة هؤلاء الأهالي في تلك المنطقة، لكن حادثة سلانيك السالف ذكرها قد أنهت كل شيء بعد أن تمكنت الدولة من احتواء الثوار في هذه المناطق رأت النمسا[3] بضرورة إشعال نار الثورة في تلك المناطق، ولعل تلك الحادثة كانت سبباً في الضغط على الباب العالي الذي بدوره رفض تلك المطالب المجحفة.

وأخيراً أعلنت روسيا الحرب على الباب العالي في ٢٤ نيسان سنة ١٨٧٧، وحدثت معارك شديدة في البلقان وفي مقاطعات آسيا الصغرى وخلدت أسماء شبكا وحصن بلغنا بالتاريخ وقد ساعدت رومانيا روسيا على تركيا فنالت بذلك استقلالها[4] وقبل إعلان الحرب على الدولة العثمانية قامت باجتياز الحدود الرومانية باتجاه البلاد العثمانية وعبرت الدانوب الفاصل بينها، ولما لم يجد العثمانيون أذناً صاغية لدى الدول الغربية قاموا بدفع السفن الحربية عبر الدانوب بضرب شاطىء رومانيا معاقبة لها على تواطئها، فقامت رومانيا بإعلان انفصالها وانضمت إلى جانب روسيا في قتال الدولة، ثم عبر الجيش الروسي بأكمله نهر الدانوب

(١) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية ٦٠١ ــ ٦٠٢.
(٢) انظر: العثمانيون والروس، د. علي حسون ١٢٣.
(٣) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية ٦٠٢.
(٤) انظر: سلاطين بني عثمان الخمسة ٩٢.

قاصداً مدينة (ترنوه) واحتلها كما احتل (نيكوبلي)، ومضائق البلقان وأصبح على وشك تهديد الآستانة، فأجرت الدولة العثمانية تبديلات في القيادات العسكرية وقصد أحد القادة اللامعين ــ عثمان باشا ــ مدينة (بلغنة) ذات الموقع الهام عند ملتقى مضائق البلقان وبلغاريا ونهر الطونة وحصنها، فاتجه الروس إليها وهاجموها عدة مرات ولكنهم فشلوا واندحروا بعد أن تكبدوا الخسائر الفادحة بالأرواح والعتاد، فتعقبتهم القوات العثمانية ولكن خائن الدولة العثمانية ــ أمير رومانيا ــ حاصر تلك المدينة في الوقت الذي بدأ فيه وصول الإمداد الروسي وكان ذلك في عام ١٢٩٤هـ ثم حاول مع الروس الاستيلاء على الحصون فاضطر العثمانيون بقيادة عثمان باشا إلى إخلاء جميع القلاع المحيطة بالمدينة.

وأمام العدو المحيط بهم من جميع الجهات خرجت الجموع الإسلامية المقاتلة منها بالتهليل والتكبير والعدو يقذفهم بحممه لا يعبؤون بالموت، وتابعوا سيرهم تحت وابل من النيران الكثيفة نحو خطوط الدفاع الروسية المحيطة بالمدينة كأنهم السيل المنهمر من أعالي الجبال، وجرح عثمان باشا في تلك اللحظة، فظن الجند استشهاده مما أدى إلى خوار عزيمتهم، وأرادوا الرجوع للمدينة التي احتلها الروس فوقعوا بين طرفي كمّاشة وبعد استبسال في الدفاع صدرت الأوامر بالتسليم وإلقاء السلاح وحمل القائد الجريح عثمان باشا[1] إلى داخل المدينة، وتقدم رئيس الأركان اللواء توفيق باشا طالباً مقابلة القائد الروسي، وطلب الروس مقابلة عثمان باشا ودخلوا إلى مقره وهنّؤوه على الأعمال الجريئة التي قام بها ــ والفضل ما شهدت به الأعداء ــ، وفي أثناء نقله إلى بلغنة قابل الغراندوق نيقولا وأمير رومانيا وسلما عليه باحترام وتوجه في صبيحة اليوم التالي متكئاً على طبيبه الخاص إلى مقر القيصر اسكندر الثاني، وعندما دخل على الامبراطور قام إجلالاً له واحتراماً وقال له: (إني أردُّ إليك سيفك علامة على احترامي لك وإكباري بشجاعتك وأجيز لك أن تحمله في بلادي، ثم أنزل في مدينة كركوف حتى انتهاء الحرب)[2].

(١) انظر: تاريخ الدولة العثمانية ١٧٣ ــ ١٧٤.
(٢) انظر: العثمانيون والروس ١٣٦.

ولتبيان الفارق الكبير بين الجيشين المتقاتلين فقد كانت تجهيزات الجيش العثماني مؤلفة من ٧٧ مدفعاً فقط و ٥٠ ألف جندي مقاتل مقابل ٦٠٠ مدفع روسي و١٥٠ ألف جندي، مما يدل على شجاعة العثمانيين وثباتهم في القتال[1] الذي استمر ثمانية أشهر أظهرت فيها الجنود العثمانية من الشجاعة والجلد ما دلّ على قوتها، ولكن قلّة التجهيزات العسكرية وسوء الإدارة وفراغ الخزينة من المال وصدور الأوامر المتناقضة أتاح النصر للروس[2].

أمام هذا الموقف الحرج للدولة العثمانية نرى الصربيين يعلنون التمرد على العثمانيين وتبعهم أهالي الجبل الذين أعلنوا بدورهم الحرب على الدولة وتقدموا نحو مدينة (أنتيبارى) واحتلوها ووصلوا إلى ضواحي اشقودره ودخل الصربيون نيش[3].

وأمام هذا الوضع المتدهور لم تقف الدولة العثمانية في موقف المتفرج للمسرحية الهزيلة التي يقدمها الروس، وحاولت بكل ما أوتيت من قوة منعها، وكان السلطان عبدالحميد مهتماً جداً بهذه النهاية المأسوية التي ستؤول إليها هذه المعارك إن لم يتخذ التدابير اللازمة لوقفها، لقد ذهب به الحد إلى إنشاء خط تلغرافي مستقل بين يلدز وقيادة الجيش في الجبهة الروسية، كان ينقل عبره أوامره الشخصية كان مصمماً على المقاومة بأي ثمن، فأمر جنوده بالثبات في مواقعهم إلى النهاية، وما لبث الضباط أن علموا أنه كان يتحتم عليهم إطاعة كلمة السلطان، فأثارت القوة غير المنظورة الصادرة من يلدز في نفوس الجيش روحاً للتضحية تفوق حدود الطاقة البشرية[4]، لكن كما أسلفنا لم تستطع الصمود أمام الجموع الروسية، وأصبح الطريق أمام الروس مفتوحاً للوصول إلى

(١) انظر: تاريخ الدولة العثمانية ١٧٤.
(٢) انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان ١٤٣.
(٣) انظر: العثمانيون والروس ١٣٨.
نيش: مدينة تقع اليوم في شرقي يوغسلافيا قرب الحدود، نفس المصدر ٦٣٨.
(٤) انظر: عبدالحميد ظل الله على الأرض ٩٧.

القسطنطينية، وعلم الشعب أنه على أبواب الهزيمة وأمام هذا الموقف الحرج ما كان من السلطان عبدالحميد إلا أن بعث برسالة إلى الملكة فكتوريا يطلب منها التوسط لبدء مفاوضات الهدنة، فمنذ بدأت الحرب وهو ينتظر عملاً من جانب انجلترا، بل إنه كان يرجو أن تحمل السلاح ضد روسيا[1].

ولا شك أن قيام عبدالحميد بهذا التصرف عمل لا يلام عليه، فالضرورة لها أحكام واستعانته بالإنجليز إنما كان وقفاً للمد الروسي الجارف الذي وصل مشارف القسطنطينية وبالذات إلى منطقة سان استفانو التي تبعد ١٢ ميلاً عن القسطنطينية فاضطرت الحكومة إلى توقيع الهدنة في ٣١ كانون الثاني ١٨٧٨[2] الموافق ١٠ رجب سنة ١٢٩٥هـ وهي المعاهدة المعروفة بسان استفانوس التي استبدلت بمعاهدة برلين[3].

وأجبر العثمانيون على توقيع شروط معاهدة سان ستيفانوس قبل حلول يوم ٣ آذار ١٨٧٨م الموافق عيد جلوس القيصر على العرش، وإذا لم يتحقق هذا فإن الهدنة تعتبر باطلة، ويدخل الروس الآستانة، وتحت التهديد وقع المندوبان العثمانيان على المعاهدة[4]، وقد نصت بنودها على أمور مجحفة في حق الأتراك العثمانيين وأمور لا يتصورها العقل.

ويمكننا أن نستخلص ملاحظتين هامتين من معاهدة سان ستيفانوس هما:

١ ـ سلخ تركيا الأوروبية عن جسم الدولة العثمانية.

٢ ـ نقمة الدول الأوروبية على روسيا[5].

هذه النقمة التي حدت بالأوروبيين إلى التحرك لحماية مصالحهم ومشاطرة

(١) انظر: عبدالحميد ظل الله على الأرض ٩٨.
(٢) انظر: سلاطين بني عثمان الخمسة ٩٢.
(٣) انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان ١٤٥.
(٤) انظر: العثمانيون والروس ١٤٠.
(٥) انظر: العالم الإسلامي ١/١٤٢.

الروس في المكاسب التي حصلوا عليها في أثناء الحرب، وكان أول المعارضين لهذا الاتفاق الإنكليز خوفاً على ضياع مصالحهم وتبدد أطماعهم، وكادت تنشب الحرب بين الدولتين ـ الإنكليز والروس ـ ولكن عدلت الاتفاقية ووافقت إنكلترا على حدود الإمارة البلغارية الجديدة بعد أن تم تقليص مساحتها، وطبقاً للتعديل الجديد أبقيت سواحل بحر الروم تابعة للدول العثمانية بما فيها مدينة «قوله»، وذلك بدافع من الإنكليز القلقين من احتمال انتقال التغلغل الروسي إلى البحر الأبيض المتوسط وخليج البصرة وبالتالي طريق الهند[1].

ومن النتائج المأسوية للحرب الروسية التركية أن الدولة العثمانية تنازلت عن جزيرة قبرص لإنجلترا طلباً لتأييدها، وتمكيناً لها من اتخاذ خطوات عملية للدفاع عن تركيا في حالة وقوع هجوم جديد، وقد تلقت أوروبا هذا الإجراء ببالغ الدهشة إذ كيف حصلت إنجلترا على قبرص بدون استشارة أية دولة أوروبية أخرى، وكسبت بذلك قاعدة حربية لها قيمتها في طريق الهند المستعمرة، وكسب السلطان برهاناً جديداً على تفكك عرى الدول الأوروبية[2].

وهناك مآسٍ جَرَّتها هذه المعارك المؤلمة من ضمنها إعلان الروس أنفسهم حماة للنصارى بعد المجازر البشرية الرهيبة التي ارتكبوها في حروبهم والتي فاقت في فظاعتها وشرورها جميع حوادث الإرهاب، لقد كانت معاملة الروس للمسلمين من القسوة بحيث دمرت قرى بكاملها، وسمح للسلاف المسيحيين المتمتعين بحماية الروس أن يذبحوا سكانها جملة، كانت النسوة يبكين استدراراً للعطف والرحمة، يتقدمن الجماعات الهاربة وخلفهن الأطفال والعجزة وفي مؤخرتهن الشبان، إلا أن الروس أبوا على أولئك التعساء كل رحمة، وأن قصة نهر ماريتزا الذي قيل أنه غير اتجاهه لأن جثث ألفي طفل كانت تسد طريقه ما هي إلا تعبير عن الحقيقة التي فاقت كل خيال، وما قصة آلاف الأطفال الذين

(١) انظر: تاريخ الدولة العثمانية ١٧٨.

(٢) انظر: عبدالحميد ظل الله على الأرض ١٠٦.

قذفت بهم أمهاتهم إلى النهر لإنقاذهم من مصير أشد فظاعة وهولاً سوى بعض قليل من الحقيقة المؤلمة[1]، تلك الوحشية الروسية ضد المسلمين العزل جعلت المسلمين يتركون منازلهم هرباً من قسوة الروس وطلباً للحماية فلجأوا إلى داخل المدن التركية وقد غصّت باحات العاصمة باللاجئين من الفقراء الذين وجدوا بالمساجد أحسن تعزية لهم عن فقدانهم منازلهم[2]، وقد اعترف السلطان عبدالحميد بالوضع السيء الذي وصلت إليه الدولة وأوضح كيف أنه بذل جهوداً لإعادة الثقة في نفوس الشعب بقوله: (عندما اعتليت كرسي الحكم كان وضع الامبراطورية سيئاً وزادت الحرب الروسية من تدهور الوضع، فقد اختلط الحابل بالنابل وتوترت الأعصاب ولم يعد أحد يجد مبتغاه، ففي هذه الأيام وجدت نفسي وحيداً انفضّ الناس من حولي وانتهت الحرب فازداد الأمر سوءاً) إلى أن يقول: (بعد هذه الحرب المرعبة بذلت ما في وسعي لرفع معنويات رجال الدولة وإنعاش الأمة ودعوتها للقيام بالمهام الملقاة على عاتقها كي تتخلص من المأزق الذي وقعت فيه)[3].

مؤتمر برلين:

بعد معاهدة سان استفانوس الخطيرة ازداد النفوذ الروسي وأصبح يهدد مكانة النمسا في المنطقة، والمصالح الأوروبية بصفة عامة إضافة إلى ازدياد النفوذ البلغاري، وكادت الأمور تتطور لولا أن دعا المستشار الألماني بسمارك إلى عقد مؤتمر لتسوية المشكلات الأوروبية على حساب الدولة العثمانية على أساس أن تتولى الدول الكبرى اقتسامها وتسوية مشكلاتها.

عقد مؤتمر برلين وحضرته الدول العظمى برئاسة بسمارك[4] الألماني في

(١) انظر: نفس المصدر السابق ٩٤. (٢) انظر: سلاطين بني عثمان الخمسة.

(٣) السلطان عبدالحميد الثاني، مذكراتي السياسية ٦٢ ـ ٦٣.

(٤) بسمارك: هو مؤسس امبراطورية ألمانيا ومستشارها الأول، والمسؤول والمخطط الأول عن توطيد السلم في أوروبا لمدة ٢٦ عاماً، وبعد مؤتمر برلين عام ١٢٩٤هـ دخل في خدمة بروسيا بعد دراسة القانون، ثم أصبح إدارياً وقضائياً في مدينة آخن، توفي عام ١٣١٥هـ (العثمانيون والروس، د. علي حسون ١٢٣).

١٠ رجب عام ١٢٩٥ = ١٨٧٨م ولم تربح الدولة العثمانية منه شيئاً، فقد اقتطعت ولاية الروملي الشرقية بأكملها من جسمها وأصبحت حدود إمارة البلغار لا تتجاوز جبال البلقان، وردت سواحل الأرخبيل إلى الباب العالي. . . وأعطى المؤتمر البوسنة والهرسك للنمسا والمجر كما وسّعت حدود اليونان شمالاً مع أنها لم تشترك في الحرب وكذلك الصرب والجبل الأسود، وقضت المعاهدة أيضاً بإجراءات داخلية ادعى أن القصد منها تحسين أحوال النصارى وخاصة الأرمن القاطنين في البلاد العثمانية[١].

وليت الأمر يتوقف على تلك المقررات الخطيرة في هذا المؤتمر بل بلغ التدخل الدولي في مؤتمر برلين أن أصرت الدول الأوروبية في هذا المؤتمر على إقرار بند خاص باليهود والنصارى الموجودين في أراضي الدولة العثمانية ينص على أنه (لا يمنع النصارى واليهود من إجراء رسوم أديانهم واتساع بطارقتهم وكواهنهم فيما يتعلق بمذاهبهم)[٢].

لقد أهملت آراء الأتراك في هذا المؤتمر، بل وكانوا محتقرين خلال انعقاده، وأنهت إلى هذه الصورة المأسوية بالنسبة للدولة العثمانية وانتهت المفاوضات إلى قرارات أعادت رسم خريطة البلقان من جديد[٣]، وكانت كلها موجهة ضد مصالح الدولة العثمانية وسعت كل دولة إلى نهب قطعة منها بوسيلة شريفة أو بوسيلة تآمرية أياً كانت.

والخلاصة: أن مؤتمر برلين نزع من يد الباب العالي جميع الإمارات التي كان له عليها حق السيادة وأخذت منه ما يقرب من نصف أملاكه بأوروبا[٤] بمعنى أن الدولة العثمانية خسرت في مؤتمر برلين ما لم تفقده في أي حرب سبقت[٥].

---

(١) انظر: تاريخ الدولة العثمانية ١٧٨.
(٢) انظر: موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ٢٨٣.
(٣) انظر: الشعوب الإسلامية ٢٠٢.
(٤) انظر: العالم الإسلامي ١/٢٤٢.
(٥) انظر: الشعوب الإسلامية ٢٠٣.

واستغلت فرنسا فرصة ضعف الدولة العثمانية بعد معاهدة برلـين، وحاولت الاستيلاء على تونس، إلا أن السلطان عبدالحميد أيّد إرسال الباخرة الحربية (إعصار التوفيق) والحراقة (مظفر) كما أيد إرسال القادة اللامعين مع فرقتين من قسم البحرية وأمر باتخاذ الإجراءات اللازمة لحماية أمن طرابلس الغرب أيضاً[١].

فرغم مؤتمر برلين المجحف والوضع المتهالك للدولة يصر عبدالحميد على حماية البلاد التي تحت حكم دولته، لكن الظروف حالت دون تحقيق مايصبو إليه عبدالحميد الثاني، لكنه أظهر أن الدولة ما زالت على شيء من القوة وأنه ما زال خليفة للمسلمين وأنه متمسك بحقوقهم، ولن يقف مكتوف الأيدي تجاه التعديات الذي يحاول الأعداء تكرارها، لقد طلب عبدالحميد إرسال ثمانية عشر فيلقاً وعشرة آلاف بندقية على الرغم من معارضة فرنسا إلى طرابلس الغرب لتعزيز الحرب الفدائية ضد الفرنسيين ووصلت التعزيزات فعلاً إلى الحدود التونسية[٢]، وكان لها الأثر الطيب في نفوس أهل تلك البلاد كما كان لها الأثر الطيب في نفوس المسلمين الذين شعروا بقوة الدولة.

إننا نقول وبكل فخر وإنصاف: إن السلطان عبدالحميـد كان آخـر الحصون التي دافع بها الإسلام عن وجوده العالمي وبعد انهياره تمت مؤامرات الغرب وربيبته الصهيونية، ومن الحق أن يقال: إن الحركة التي حمل لواءها السلطان عبدالحميد في تجميع المسلمين تحت لواء الخلافة كانت اتجاهاً سليماً وأملاً يملأ النفوس، ولذلك فقد حققت نجاحاً كبيراً أزعج الاستعمار والصهيونية إزعاجاً شديداً مما استدعى العمل من جانبهم لإجهاضه والقضاء على حامل لواء الدعوة أصلاً كوسيلة للقضاء عليها وتدميرها[٣].

* * *

---

(١) انظر: تاريخ الدولة العثمانية ١٧٩.
(٢) انظر: تاريخ الدولة العثمانية ١٨٠.
(٣) انظر: تصحيح أكبر خطأ في تاريخ الإسلام ١٧.

الفصل الثالث

الشبهـــات التي أثيرت حوله

المبحث الأول

مصادرهــــا ودوافعهــــا

تمهيـــد:

إن الشبهات التي ألصقت بالسلطان عبدالحميد من الكثرة حتى يصعب على المرء إحصاؤها، فقد تجرأ على شخصه رحمه الله ممن في قلبه مرض، فأخذ يكيل عليه التهم ويتهجم على أعماله وتصرفاته، حتى لم يبق منفذ أو هنة إلا واستطالوا عليه، ولا قرار اتخذه إلا وأثير حوله الشبهات، ولا موضوع تبناه إلا وانتقدوه بكل ما أوتوا من سلاطة لسان ووقاحة بيان.

وقد كتب عن السلطان في موضوع الشبهات قسمان: كتاب من بني جنسنا ممن رضعوا من لبان المستشرقين الحاقدين، وتبعهم في عصرنا كتّاب تأثروا بهم وأخذوا يرددون أفكارهم، وكتّاب ليسوا من بني جنسنا ولا جلدتنا، بل نذروا أنفسهم لتشويه صورة الإسلام والمسلمين، مبتدئين بتشويه صورة قادته، وأخيراً أشير إلى الذين كانت لهم اليد الطولى في إثارة الشبهات وتزييفها، وتلك هي صفاتهم وديدنهم على مرّ العصور هو النيل مِنْ كل من وقف في وجههم، ذلكم اليهود وأعوانهم.

وبناء على ما كتب في شخص السلطان عبدالحميد رحمه الله من كتابات وأثيرت حوله من شبهات، فقد رأيت في هذا المبحث تقديم هذه الشبهات بمصادرها ودوافعها ليكون المبحث الذي يليه عرضاً لتلك الشبهات ومناقشة لأهدافها ومراميها.

أولاً ــ اليهــود:

تحدثت في الفصل الأول من هذا البحث في «أبرز الأحـداث» عن اليهود والدور الذي لعبوه على الساحة الدولية والإخفاق الذي منيت به خططهم من قبل السلطان عبدالحميد، وما إلى ذلك من طرد لكبار قادتهم من مجلس السلطان عندما تقدموا بطلبهم «الحصول على وطن قومي لليهود»، إن هذا الإخفاق من قبل اليهود تبعه حقد خطير وغضب مرير صبّوه على من وقف في وجههم، وكان عبدالحميد الثاني أولهم.

هؤلاء اليهود رغم أنهم عاشوا أهنأ أيامهم في عهد عبدالحميد، كانوا السبب في سقوط حكمه لعدم تساهله معهم حول الهجرة إلى فلسطين، ولو قبل عبدالحميد الرشوة التي قدّمها ثيودور هرتزل لما سقط حكمه[١]، تلك الرشوة «الدسمة» والتي قدرت بمبلغ ٥٠ مليوناً من الجنيهات لخزينة الدولة وخمسة ملايين خاصة للسلطان والتي جاء بها مندوب اليهود ورأس الأفعى المدعو (عمانوئيل قره‌صو)[٢]، فكان جزاؤه أن غضب عليه رحمه الله غضباً شديداً وطرده من مجلسه ولعنه ووبّخه، فخرج من عنده حاقداً حانقاً ثائراً، وأرسل إلى السلطان برقية يهدده فيها شخصياً ويتوعده[٣]، لكن السلطان لم يحفل بكلام قره‌صو ولا بتوعده، فأخذ اليهود منذ ذلك التاريخ يخططون وبطريقة جدية للوصول إلى أهدافهم، وإن كانت أعمالهم الخبيثة قد وجدت معهم منذ أقدم العصور، وصدق فيهم قول أوسكار ليفي أحد زعمائهم (نحن اليهود لسنا إلا مفسدي العالم ومحركي الفتن فيه وجلّاديه)[٤].

وقد تجلى نشاط الصهيونية في تشويه صورة الدولة العثمانية الإسلامية ورجالاتها في المحاولات التالية:

---

(١) انظر: أسرار الانقلاب العثماني ٣٩.

(٢) انظر: نفس المصدر ٥٩.

(٣) انظر: مؤامرة فصل الدين عن الدولة ٧٢ ــ ٧٣.

(٤) انظر: المخططات التلمودية اليهودية الصهيونية ١٣.

* **أولاً**: تشويه سمعة رجالات الدولة العثمانية وتصويرهم في صورة الحكام المستبدين المستهترين بمصالح شعوبهم المنغمسين في الفساد والانحلال، ولسنا ننكر أن بعض رجالات الدولة العثمانية وبخاصة في أواخر أيامها كانوا فاسدين، إلا أن اليهود عمموا هجمتهم لتشمل جميع رجالات الدولة العثمانية، ولقد كان السلطان عبدالحميد أحد أبرز رجالات الدولة العثمانية الذين نالهم الأذى الشديد من الدعاية اليهودية التي شوهت صورته وسمعته، وأطلقت عليه ظلماً وبهتاناً لقب «السلطان الأحمر» لترسيخ أكذوبتها الكبرى التي لفّقتها ضده حين لفقت عنه قصصاً كاذبة عن عمليات اغتيال مزعومة أمر بها ضد رجالات المعارضة، ولقد كان هدف هذه الحملة الإعلامية الشرسة ضد رجالات الدولة العثمانية هو التمهيد وتهيئة الرأي العـام التركي لتقبـل فكرة التخلص من رجالات الدولة العثمانية ليسهل على اليهود وحلفائهم النصارى بعدئذ الانتقال إلى الخطوة التالية وهي القضاء على كيان الدولة العثمانية ذاته.

* **ثانياً**: تشويه صورة دولة الخلافة الإسلامية كدولة، وذلك بإطلاق وصف «الرجل المريض» عليها، وهو وصف من ابتكار اليهود، وليس صعباً أن ندرك أنّ هدف وسائل الإعلام اليهودية آنذاك من تصوير الدولة العثمانية بصورة الرجل المريض إنما هو تهيئة الرأي العام التركي والعالمي لتقبّل فكرة استبدال هذا الكيان المريض الذي هو دولة الخلافة بكيان قوي متطور وعصري يكون طبق الأصل عن أية دولة أوروبية.

* **ثالثاً**: بينما كانت الدعاية الإعلامية اليهودية تشوه صـورة الدولـة العثمانية كانت في الوقت نفسه تروج لفكرة الدولة التركية العلمانية الحديثة المرتبطة بأوروبا وذلك كبديل للدولة العثمانية، ولكنها لم تكن تجرؤ على الجهر بذلك بصراحة، وإنما كانت تدسّ هذه الفكرة دسّاً من خلال ما تضيفه من حسنات على النظم الحاكمة الأوروبية وتصويرها بأنها بلغت قمة الكمال[١].

---

(١) انظر: جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ٥٠ ــ ٥١.

والذي يهمنا أن تزييف تاريخ السلطان عبدالحميد كان من أكبر أهداف الصهيونية، ذلك لأن هذا الرجل هو الذي حمل لواء الجامعة الإسلامية التي تجمع المسلمين تحت لواء واحد في مواجهة الزحف الاستعماري وإلى خارج نطاق الدولة العثمانية، فقد كانت هذه الصيحة من أخطر ما واجه الاستعمار والصهيونية الزاحفة التي كانت تطمع في السيطرة على فلسطين، وقد وقف منها موقفاً حاسماً كريماً مشرّفاً وكان يعلم أبعاد الدور الخطير الذي تقوم به الدونمة (اليهود المستسلمون في سالونيك) لحساب الصهيونية العالمية، ويعرف مدى ما تدبر مخططات الماسونية واحتوائها لجماعة الاتحاد والترقي.

ولا شك أن ليهود الدونمة الذين عاشوا في سلانيك اليد الطولى في تقديم المساعدات لبقية اليهود في العالم، وقد ساروا بالدولة شطر الموت وارتدوا أسماء متعددة كالاتحاد والترقي، وأخذوا يصفون عبدالحميد بـ (سكّير، مستبد، ظالم، متوحش. . .) ولا ذنب له إلا وقوفه في وجههم وتجاه أطماعهم، لقد أحال هؤلاء الدونمة تركيا إلى مزرعة تلعب بها الأطماع الغربية، وأثقلوا كاهلها بالديون الذابحة[١].

إضافة إلى تلك الصفات التي ألصقوها بالسلطان اختلقوا أكاذيب تقشعر لها الأبدان كقولهم: إنه أحرق طلاب الطب والبحرية في المراجل أو أنه ربط أرجلهم بسلاسل حديدية وألقاهم في البحر[٢].

ولما ضيق السلطان على هؤلاء اليهود المفسدين عمدوا إلى إنشاء الجمعيات السرية، فكانت الجمعيات الماسونية أقرب تلك الجمعيات إلى اليهود التي وجدت أرضاً خصبة لنشر أفكارها، فجندت قواها لخدمة اليهود وهدم الخلافة الإسلامية واستخدم اليهود محافل الماسون في فرنسا وإيطاليا لنشر الدعاية الكاذبة ضد الخلفاء وبخاصة عبدالحميد الثاني الذي كان عدواً للماسون، ولم تترك

---

(١) انظر: الماسونية في العراء ٣٠١.

(٢) انظر: أسرار الانقلاب العثماني ٢١.

أبواق الماسون عيباً من عيوب الحكم إلا وألصقته بحكم عبدالحميد الثاني، حتى أصبح رمزاً للظلم والاستبداد والقسوة[١]. . . ويذكر جواد رفعت أتلخان[٢] القائد التركي المعاصر للسلطان عبدالحميد أنه في القرار ٧٠ للجمعية الماسونية الفرنسية جاء فيه أنه أسست جمعية سرية باسم «جون ترك» فباشرت نشاطها من سلانيك التي تضم اليهود الأكثر نفوذاً في أوروبا، عدا ذلك كان هناك المحافل الماسونية الكثيرة لقبول الثائرين فيها نظراً لكون تلك المحافل تحت حماية السياسة الأوروبية. . ويمكن القول أن فرقة الاتحاد والترقي ولدت فعلاً في المحفل الماسوني المسمى «ماكدونيا ديزتورا» المؤسس من قبل «قارصوه اليهودي السلانيكي»[٣] والذي يدعونا إلى الاعتقاد أن جمعية الاتحاد والترقي ماسونية المنبت هي تلك التنظيمات التي تدين بها في سريتها وأعضائها وقادتها وأفكارها شبيهة بالماسونية[٤].

وقد شملت خططهم وحركاتهم الحديثة: الماسونية والصهيونية والمادية على قاعدة: هدم الدين والأخلاق بهدف تقويض الحضارة ومحو العقائد وإسقاط الدول والامبراطوريات والقضاء على الأمم[٥]، فكان لهم ما أرادوا حين غفل الناس عن خططهم وانخدعوا بأفكارهم حينما تباكوا أمام الملأ أنهم قوم مضطهدون مشردون.

---

(١) انظر: الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام ٧٨.

(٢) جواد رفعت اتلخان: كان معاصراً لحكم السلطان عبدالحميد الثاني، وكان مديراً لدائرة الأمن العام العثماني أثناء الحرب العالمية الأولى، وقد وعى أهداف الحركة الصهيونية أثناء النشاط الصهيوني قبل وبعد ثورة ١٩٠٨ — ١٩٠٩ ومن مؤلفاته: (الخطر المحيط بالإسلام) (أيها التركي إعرف عدوك) (أسرار الماسونية) (الدولة الخفية) (الإسلام وبنو إسرائيل) (تمزيق القناع الماسوني). . وغيرهم، وكان يصدر جريدة استقبال (المستقبل) وجريدة أخرى باللغة الانجليزية (موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ٣٠١).

(٣) انظر: موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ٢٩٣.

(٤) انظر: مؤامرة فصل الدين عن الدولة ٨٦.

(٥) المخططات التلمودية اليهودية الصهيونية، أنور الجندي ١٣.

ثانياً ــ كُتّاب لهم دور في إثارة الشبهة في شخص السلطان:

١ ــ عبدالرحمن الكواكبي:

ولد عبدالرحمن الكواكبي في حلب حوالي عام ١٨٤٩ وقد بدأ حياته المهنية في الصحافة والقانون، واشترك في عام ١٨٧٨ في تحرير جريدة «الشهباء» وهي أول جريدة عربية صدرت في حلب، ثم أنشأ بعد عام من ذلك جريدة «الاعتدال» وشغل الكواكبي عدة وظائف إدارية قبل تسميته رئيساً لبلدية حلب عام ١٨٩٢ لجأ إلى مصر وتوفي فيها عام ١٩٠٢ بعد أن ثار ضد السلطان عبدالحميد بكتاباته وانتقاداته، من أشهر كتبه كتابان (أم القرى، وطبائع الاستبداد)[1].

ولو ألقينا نظرة على كتابيّ الكواكبي لوجدنا أن:

١ ــ طبائع الاستبداد: عبارة عن مجموعة من المقالات كان قد نشرها في الصحف المصرية عرض أسباب الاستبداد وآثاره، ورغم أنه لم يذكر مستبداً معيناً، إلا أن القارىء يلمح من خلال كتاباته صورة عبدالحميد[2].

٢ ــ أما في كتابه أم القرى: فقد أراد أن يخفي اسمه فتكنّى بالسيد «الفراتي»، وكتب تحت عنوان الكتاب ما يلي: (أي ضبط مفاوضات ومقررات مؤتمر النهضة الإسلامية المنعقد في مكة المكرمة سنة ١٣١٦هـ) وقد ساق المؤلف الكتاب على هيئة مناقشة بين مفكرين تكون نتائج المناقشة الدعوة إلى إقامة خلافة عربية في مكة المكرمة[3].

يقول الدكتور محمد عبدالرحمن برج في عرضه لكتابي الكواكبي: (إن كتابه الذي ألّفه بعنوان طبائع الاستبداد كان موجهاً ضد السلطان عبدالحميد بالذات وإن لم يشر الكواكبي إلى ذلك صراحة.. كذلك جاء كتابه أم القرى

(١) انظر: العرب والعثمانيون ٥٢٥.

(٢) انظر: حركة اليقظة العربية في الشرق الآسيوي ٨٤.

(٣) انظر: البلاد العربية والدولة العثمانية ١٢٦.

يحمل حملة شعواء على الأتراك العثمانيين وعلى تاريخهم، فهو يورد على لسان أحد أمراء المسلمين مناقشة دارت بينه وبين العضو الهندي في جمعية أم القرى ما يؤكد ذلك ويدلُّ عليه دلالة واضحة).

فهو يقول على لسان ذلك الأمير في كتابه أم القرى معدداً ما فعله العثمانيون: (منها أنهم سعوا في انقراض خمس عشرة دولة وحكومة إسلامية وأغروا الروس على التتار وهولاندة على جاوه، وتعاقبوا على تدويخ اليمن، فأهلكوا إلى الآن عشرات المسلمين ثم يأتي على ما أباحه السلطان عبدالحميد من الربا والخمور وإبطال الحدود)، ثم يمضي الكواكبي في حملته ضد الدولة العثمانية فيقول: (أليس الترك قد تركوا الأمة أربعة قرون ولا خليفة، وتركوا الدين تعبث به الأهواء ولا مرجع، وتركوا المسلمين صماً بكماً عمياً ولا مرشد، أليس الترك قد تركوا الأندلس مبادلة وتركوا الهند مساهلة وتركوا الممالك الآسيوية للروسيين وتركوا قارة أفريقيا الإسلامية للطامعين، وتركوا المداخلة في الصين كأنهم الأبعدون).

ويستطرد الدكتور محمد عبدالرحمن برج في عرضه لكتاب أم القرى بقوله: (يحمل الكواكبي على السلطان عبدالحميد إغداقه الألقاب على أناس لا يمتّون للعلم بشيء فيصدر المنشور الرسمي من قبله ليصفهم بل ليصف بعضهم وهم ما زالوا أطفالاً بأنهم أعلم العلماء المحققين، ثم إذا شب بعضهم عن الطوق يخاطب بأنه (أفضل الفضلاء المدققين) (وأقضى قضاة المسلمين معدن الفضل واليقين رافع أعلام الشريعة والدين وارث علوم الأنبياء والمرسلين).

ويرى الكواكبي أن هؤلاء المتعممين قابلوا أنعام السلطان عليهم بهذه الألقاب بوصفهم إياه ومخاطبتهم له (بالمولى المقدس ذي القدرة صاحب العظمة والجلال المنزه عن النظير والمثال واهب الحياة ظل الله خليفة رسول الله، مهبط الإلهامات مصدر الكرامات، سلطان السلاطين، مالك رقاب العالمين، ولي نعمة الثقلين وملجأ أهل الخافقين، وكلها ألقاب شرك بالله وتؤدي إلى غضبه وتدفع بقائلها إلى التهلكة)[1].

(١) انظر: عبدالرحمن الكواكبي، د. محمد عبدالرحمن برج ١٣ ــ ١٤ و١١٧.

إن من يمعن النظر في كتابي الكواكبي: طبائع الاستبداد وأم القرى يتضح له أن فكر الكواكبي له اتجاهان رئيسيان هما:

* **الاتجاه الأول**: محاربة الظلم والظالمين والاستبداد والمستبدين، والفساد والمفسدين وقد كان يمثل كل أولئك ـ عند الكواكبي ـ الطبقة الحاكمة في الدولة العثمانية وعلى رأسها السلطان العثماني.

* **الاتجاه الثاني**: محاربة الضعف والاستكانة وإزهاق روح الفتور والخور، وقد كان يمثل ذلك ـ عند الكواكبي ـ المسلمون بعامة والعرب بخاصة.

وقد اتجه الكواكبي إلى محاربة الأمرين معاً، ورأى أن الإصلاح الإسلامي لا يتم بدون القضاء عليهما، ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟؟[1].

٢ ـ نجيب عزوري:

وإذا كان الكواكبي قد ظهر في الشرق يعارض ما سمي بالاستبداد الحميدي، ففي باريس ظهرت حملة أخرى ضد عبدالحميد يقودها نجيب عزوري[2]، وتعتبر حملته السياسية الوحيدة التي تمت في عهد عبدالحميد بالإضافة إلى حملة الكواكبي، وعزوري عربي نصراني ظهر نشاطه في الأعوام الأخيرة للعهد الحميدي[3].

تولى عزوري منصب نائب متصرف القدس بين عامي ١٨٩٩ ـ ١٩٠٤ ثم اختلف مع رئيسه كاظم بك متصرف القدس بسبب سوء الإدارة العثمانية فاستقال، ثم قام بجولة في مدن الشام لمدة شهرين بعد استقالته، ودعا إلى إنشاء حزب سياسي جديد أسماه رابطة الوطن العربي، إلا أن نشاطه أقلق

---

(١) انظر: بحوث المؤتمر العالمي الثاني لتوجيه الدعوة وإعداد الدعاة، المجموعة الأولى بحث بعنوان (دعوة الكواكبي إلى الوحدة الإسلامية) محمد حسن الدقن ٢٢ ـ ٢٣.
(٢) انظر: العرب والعثمانيون، عبدالكريم رافق ٥٢٩.
(٣) انظر: مؤامرة فصل الدين عن الدولة ٩٩.

السلطات التركية ولذلك سارع بالهجرة من الشام إلى فرنسا ثم إلى القاهرة حيث أقام إلى أن توفي عام ١٩١٦م[1].

وقد شكل عزوري جمعية في باريس سماها «رابطة الوطن العربي» لتحرير بلاد الشام والعراق من سلطة الخلافة، فأصدرت هذه الرابطة كتاباً بعنوان «يقظة الأمة العربية» ومجلة شهرية باسم «الاستقلال العربي»[2].

وقد ذكر ساطع الحصري أن عزوري (كان مطلعاً على أحوال الدولة العثمانية بوجه عام، وملماً بشؤون الطوائف المسيحية بوجه خاص، ولذلك نجده يصف في كتابه هذه أحوال البلاد العربية بشيء من التفصيل ثم يدعو إلى الأمور التالية: (توحيد الكنائس الكاثوليكية تحت اسم «الكنيسة الكاثوليكية العربية»، انفصال الولايات العربية عن الدولة العثمانية، على أن تكون الحجاز مقراً لخلافة إسلامية عربية، وأن تتكون من العراق وسوريا ولبنان وفلسطين دولة عربية موحدة عصرية)[3].

ولقد كان لكتابه الذي نشر في عام ١٩٠٥ بعنوان (يقظة الأمة العربية أمام مصالح ومنافسات الدولة الأجنبية[4]، وكان باللغة الفرنسية[5]، أثر كبير في تغيير مفاهيم الناس عن الدولة العثمانية حيث هاجمها بكل عنف، ومن خلال هذا الكتاب يمكننا الوقوف على أفكار عزوري الذي دعا فيه إلى إنشاء دولتين:

دولة دينية على غرار الفاتيكان على أن تكون دولة عربية إسلامية مستقلة، تقوم في الحجاز وتكون عاصمتها مكة وتحكمها أسرة عربية ويلقب حاكمها بالخليفة، ويباشر سلطة روحية على جميع المسلمين في كافة أنحاء الأرض على أن يكون نفوذه السياسي مقصوراً على بلاد الحجاز.

---

(١) انظر: حركة اليقظة العربية في الشرق الآسيوي ٨٦.
(٢) انظر: مؤامرة فصل الدين عن الدولة ٩٩.
(٣) انظر: البلاد العربية والدولة العثمانية ١٢٦.
(٤) انظر: حركة اليقظة العربية في الشرق الآسيوي ٨٦.
(٥) انظر: العرب والعثمانيون ٥٢٩.

والدولة الثانية دولة عربية علمانية تتمثل في سلطة دستورية تضم سورية ولبنان وفلسطين (أي الشام) ويكون رئيسها أحد أفراد الأسرة الخديوية في مصر حتى يمكن تجنّب ما قد يحدث من نزاع بين الطوائف على اختيار هذا السلطان العربي على أن تسير هذه الدولة على النظم الحضارية العصرية وتقتبس منها.

وقد عدّ (عزوري) هذا حلاً مرضياً للجميع، يرضي المسلمين الذين تهفوا نفوسهم إلى نظام الخلافة الإسلامية الحقة بعد انتزاعها من الترك، لأن العرب أحق بها منهم، كما كان (عزوري) يرى أن هذا الحل من شأنه أن يقضي على مخاوف المسيحيين في الشام على اختلاف مذاهبهم، وكذلك اليهود، وبذلك لا تخضع العناصر المسيحية واليهودية للنظم الإسلامية في الدولة العربية الجديدة التي كان يرى قصرها على الشام فلا تضم العراق أو مصر، لأنه كان يخشى قيام وحدة سياسية أكبر فيتحول مسيحيو الشام فيها إلى أقلية[١].

٣ ــ أحمد رضا:

يعد أحمد رضا أحد «الوطنيين» على رأي كثير من الكتّاب، وقد حمل حملة شعواء من فرنسا على السلطان عبدالحميد، وانتقده بشدة في صحيفته «مشورت» التي كانت بعض أعدادها تعرف طريقها إلى داخل العاصمة التركية نفسها[٢] عن طريق دوائر البريد الأجنبية التي كانت تتمتع بامتيازات خاصة داخل الدولة.

وقد كان أحمد رضا مديراً للتعليم في بروسه وأحد أعضاء جمعية تركيا الفتاة، وعند افتضاح أمرها هرب خارج البلاد[٣].

ورغم فصاحة أحمد في اللغة إلا أنه لم يكن عربياً، إذ كان نصفه شركسياً والنصف الآخر مجرياً[٤].

---

(١) انظر: حركة اليقظة العربية في الشرق الآسيوي ٨٦ ــ ٨٧.
(٢) انظر: الشعوب الإسلامية ٢٠٨.
(٣) انظر: حركة اليقظة العربية في الشرق الآسيوي ١٠٠.
(٤) انظر: حوار في أنقرة ٤٠.

٤ ــ سليمان البستاني:

ولد سليمان البستاني في «بسكنتة» في منطقة الشوف في لبنان عام ١٨٥٦م، في عائلة مسيحية مارونية كان لها نفوذها داخل الكنيسة، كما كانت على احتكاك بالتيارات الفكرية الغربية، ولعل أبرز وجوه العائلة كان المعلم بطرس البستاني الذي أنشأ في بيروت مدرسة وطنية اكتسبت في عصرها شهرة في البلاد انتسب إليها سليمان وعمل مدرساً فور تخرجه منها وباشر الكتابة في الصحافة.

أحب حياة التنقل والسفر، وفي خلال زيارته للعراق وقف على إنجازات الوالي مدحت باشا ويبدو أن إعجابه بشخصية المصلح مدحت باشا بدأت في تلك الفترة هذا الإعجاب الذي سيلازمه طوال حياته، وفي كتابه «عبرة وذكرى» نلحظ مدى الإعجاب الذي يكنّه المؤلف لشخص مدحت باشا.

أقام سليمان البستاني منذ وقت مبكر علاقات مع رجال السياسة في الآستانة، ومع رجال المعارضة في خارجها، وعندما وقع الانقلاب الدستوري أيده بقوة وأخرج كتابه «عبرة وذكرى» مؤيداً إعادة العمل بالدستور، والواقع أنه أصبح نتيجة للعمل بالدستور وإعادة الحياة النيابية نائباً عن بيروت في مجلس المبعوثان، وفي الآستانة لمع في الحياة النيابية فصار الرئيس الثاني لمجلس المبعوثان.

صدر كتاب «عبرة وذكرى» في تشرين الأول ــ اكتوبر ــ من عام ١٩٠٨، أي بعد أشهر قليلة من وقوع الانقلاب الدستوري، وهذا يعني أن سليمان البستاني قد قضى الفترة التي أعقبت الانقلاب في صياغة كتابه خلال وجوده في القاهرة آنذاك.

يبدأ البستاني كتابه بكلمة إهداء يوجهها إلى «مدحت باشا» رائد دستور ١٨٧٦م، ونجد عند البستاني رغبة عارمة بالإصلاح والتحديث تتجلى في أجزاء حديثه، كما يظهر إلحاحه على المطالبة بالحرية واعتقاده بأن الحرية هي مدخل إلى التقدم، وينسجم مع دعوته هذه إلى حرية المرأة وإفساح المجال أمامها حتى تتمكن من تأدية دورها.

عاش البستاني حتى سنة ١٩٢٥م، وهذا يعني أنه شهد كافة التطورات والأحداث التي أدت إلى تلاشي «العثمانية» كواقع وفكرة، تلك الأحداث التي لم يكن لأحد أن يخمّن حدوثها ووقوعها على الشكل التي تمت به ومع النتائج التي أفرزتها[١].

لقد وقف البستاني في وجه السلطان عبدالحميد بكل ما أوتي من فصاحة لسان، وعارضه بقوة لكونه عطل الدستور وقضى على حركة الإصلاح التي نادى بها مدحت باشا واتهم السلطان بنفيه وتدبير قتله، والبستاني كما يقول محقق كتابه «عبرة وذكرى» (والبستاني يذكر فضل عبدالحميد مرتين، المرة الأولى لعمله على إنشاء خط الحجاز الحديدي، والمرة الثانية حين يستعرض أحوال العلم والمدارس فيذكر فضل عبدالحميد الثاني في فتح المدارس والمعاهد في أنحاء السلطنة. . .)[٢]، أما ما عدا ذلك فإنه انتقد السلطان وتهجم عليه بكتاباته وفي كتابه «عبرة وذكرى» انتقادات موجهة لحكم السلطان.

٥ ــ خليل غانم العربي:

خليل هذا نصراني كان أحد أعضاء تركيا الفتاة هرب إلى خارج البلاد وأصدر في جنيف جريدة (الهلال) ثم جريدة (تركيا الفتاة) في باريس، كما هاجم استبداد عبدالحميد في الصحف الفرنسية[٣].

٦ ــ مراد بك:

كان مراد بك مدرساً للتاريخ في الكلية المدنية من «أحرار» الترك الذين تركوا بلادهم، ولجأ أولاً إلى مصر حيث أسس جريدة «الميزان» التي أخذت

---

(١) انظر: عبرة وذكرى، أو الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده، هذا الجزء بقلم المحقق ٤٥ ــ ٦٨.
(٢) انظر: عبرة وذكرى أو الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده ٦١ بقلم المحقق.
(٣) انظر: حركة اليقظة العربية في الشرق الآسيوي ٩٩.

تتسرب خفية إلى الأحرار والمثقفين في الآستانة، وفي عام ١٨٩٦م غادر مراد بك مصر إلى باريس بعد أن ملّ الإنجليز نشاطه[١].

ثالثاً ــ من أقربائه الداماد[٢] محمود باشا صهر السلطان عبدالحميد:

في أوائل القرن العشرين رأت جمعية تركيا الفتاة ضرورة استمالة أقرباء السلطان، مما يقوّي شوكتها ويدعم مطالبها[٣]، ففر محمود باشا زوج شقيقة السلطان عبدالحميد الثاني[٤]، عندما غضب من السلطان مع نجليه البرنس صباح الدين ولطف الله أفندي وذلك في شهر ديسمبر عام ١٨٩٩ واستوطنوا باريس، فالتف حوله الرجال «الأحرار»[٥]، فكان من شأن فراره أن يقوي حزب تركيا الفتاة ويزيده عدداً. . . وتذكر صحيفة «الخلافة» عام ١٩٠٠ بأن محمود باشا صرح في أوروبا بأنه (موافق على حركات تركيا الفتاة، وان في عزمه أن يطبع رسالة يفصل فيها دسائس السلطان وحاشيته في يلدز. . وان نشرياته ستكون واسطة لانضمام كثير من الأهالي مع حزب تركيا الفتاة وتكون نتيجة ذلك إحداث انقلابات أساسية في الآستانة).

ومما يؤكد تعاون الفارّين العثمانيين مع الدول الأجنبية أن صهر السلطان عندما وصل إلى لندن لقي حفاوةً وتأييداً من الحكومة البريطانية وأهل السياسة والمقامات العالية هنا ومضوا يساعدونه على تنفيذ مقاصده وترويج غاياته[٦].

---

(١) انظر: حركة اليقظة العربية في الشرق الآسيوي.
(٢) (داماد) أي صهر، تاريخ الدولة العلية العثمانية، ٧٤٧.
(٣) انظر: موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، ٢٩٧.
(٤) انظر: حركة اليقظة العربية في الشرق الآسيوي، ١٠٠.
(٥) انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان، ١٤٩.
(٦) انظر: موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، ٢٩٧.

وإن محمود باشا انتقل إلى باريس فانضم ولداه إلى الأحرار العثمانيين فيها، إلا أن هؤلاء الأحرار لم يكونوا متفقين إلا على أمر واحد ألا وهو محاربة عبدالحميد والقضاء على حكمه، ولكنهم اختلفوا حول طريقة إدارة الدولة بعد ذلك، فبينما كان أحمد رضا ـ الذي تقدم ذكره ـ وأنصاره يصرون على قيام حكم مركزي في الآستانة تتجمع في يده كل السلطات، كان الفريق الآخر (صباح الدين) يحبّذ اللامركزية وتوسيع صلاحيات الولايات ويدعو إلى تكوين اتحاد عثماني يكون فيه لمختلف قوميات الدولة قسط كبير من الحكم الذاتي، ولذلك فقد انضمّ إلى هذا الفريق كثير من رجال القوميات غير التركية والطوائف غير الإسلامية[1].

رابعاً ـ افتراءات كارل بروكلمان :

من الكتب التاريخية الأكثر انتشاراً في الأسواق كتاب «تاريخ الشعوب الإسلامية» للمستشرق الألماني الشهير كارل بروكلمان، والذي يهمنا في هذا الكتاب ما أورده من افتراءات ألصقها في شخص عبدالحميد الثاني رحمه الله.

(أ) ففي الفصل الخاص بالدولة العثمانية وفي سياق ذكره للسلطان عبدالحميد يذكر أن السلطان لم يتقيد بدستور مدحت باشا، وأن السلطان انصرف إلى تدريب جيشه على أيدي خبراء من الألمان، وأبى القيام بأي إصلاح على النمط الأوروبي ثم يقول: (والواقع أنه سعى لتوطيد سلطانه من طريق الأخذ بأردأ أساليب الطغيان الشرقي فقد قضى على كل حركة فكرية حرة نشأت في الامبراطورية، وهي في المهد، فاضطر ممثلوا فكرة الإصلاح المعروفون برجال تركية الفتاة إلى مغادرة البلاد لينشئوا في باريس وجنيف مراكز جديدة للحياة الفكرية، ليس هذا فحسب، بل إنه استغرق استغراقاً متعاظماً يوماً بعد يوم في جو من أحلام اليقظة الوهمية،

(١) انظر: حركة اليقظة العربية في الشرق الآسيوي ١٠٠.

مؤكداً في المحل الأول على مقامه الديني كخليفة، رجاء أن يبسط سلطانه من هذه الطريق على جميع المسلمين، وإنما كان السلطان عبدالحميد متأثراً في ذلك كله بعصبة البلاط التي ما انفكت تلقي في قلبه خوف المؤامرات، والتي وفقت إلى أن تسيطر عليه فكرياً في شخص أبي الهدى الصيادي[1]، فقيه البلاط السوري الأصل، وليس من شك في أن فكرة عبدالحميد هذه القاضية بتدعيم مركزه كخليفة لقيت هوى في قلوب فئة كبيرة من المثقفين، وعند رجال الدين «العلماء» بخاصة، ذلك أن الإسلام كان يقوم في نظرهم مقام الوعي القومي المفقود، وكانوا يحلمون بأن يثيروا في وجه التفوق الأوروبي ردّ فعل ديني وينتظم ديار الإسلام جميعاً)[2].

(ب) وفي موضع آخر يقول بروكلمان: (وبينما كان عبدالحميد منهمكاً من قصره «يلدز» حيث اعتزل الجمهور اعتزالاً متزايداً يوماً بعد يوم في كبت كل نزعة إلى الحرية في الامبراطورية العثمانية بواسطة جهاز من الجاسوسية معقد واسع التشعب، نقول: بينما كان عبدالحميد منهمكاً في ذلك إذا به يسعى إلى أن يمكّن لسلطانه في الوقت نفسه من طريق إنعاش الحركة التجارية أيضاً)[3].

(ج) وفي موضع آخر يقول بروكلمان عن السلطان عبدالحميد الثاني (ومن الثابت أنه لم يعارض سنة ١٩٠٥ في المذبحة الوحشية التي قام بها الأكراد بالاشتراك مع الأتراك ضد الأرمن في مدن البلاد الكبرى كلها تقريباً، وفي طرابزون والرُّهاء، بل وفي استانبول أيضاً، والحق أن هذه الفظائع التي تكررت في السنة التالية في ولايتي بِتْليس ووان لم تحط من قدر

(١) أبو الهدى الصيادي كان سورياً من حلب وكان له تأثير كبير على السلطان عبدالحميد.
(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية، كارل بروكلمان ٥٨٩.
(٣) نفس المصدر ٥٩٢.

الامبراطورية العثمانية واعتبارها في العالم المتمدن فحسب، بل زعزعت أساس الدولة نفسها أيضاً[1].

خامساً ـ افتراءات ماري ملز باتريك:

ماري ملز باتريك الحاصلة على دكتوراه في الفلسفة، ودكتوراه في الحقوق، ودكتوراه في الآداب. تولت رئاسة كلية استانبول الأميركية للبنات بعد تحويل مدرسة أسكوداري إلى كلية، ويمثل كتابها «سلاطين بني عثمان الخمسة» الذي طبع على نفقة مجلة اللطائف العصرية بمطبعة صادر عام ١٩٣٣ تحاملها ضد الخلافة العثمانية وبخاصة السلاطين الخمسة التي تناولتهم المؤلفة بالتفصيل، وقام بتعريف كتابها ممن تحاملوا أكثر شناعة منها ثلاثة من نصارى لبنان، وقد ذكروا في مقدمة الكتاب (وقد وقع اختيارنا على مؤلف من هذه المؤلفات للكاتبة المبدعة الدكتورة (ماري باتريك) مديرة الكلية الأميركية في استنبول).

(ولقد اختارت هذه المؤلفة موضوعاً لكتابها «السلاطين العثمانيون الخمسة» الذين حكموا تركيا أخيراً وشرحت حياتهم شرحاً دقيقاً «ففضحت» حياتهم الخاصة وعلاقاتهم السرية بالأجانب، وتحدثت عن الذين كانوا يرغبون في «الخروج من هذه الأوحال القذرة»، ولكن الظروف كانت تضعهم في الحضيض كلما حاولوا أن يظهروا وكلما جاهدوا أن يرفعوا رؤوسهم ورؤوس أبناء الوطن معهم.

وذكرت هذه الكاتبة بأسلوب مثير حوادث مدهشة عن تطور حركة الإسلام وكيف تنهض الشعوب وكيف انتقلت هذه الأمة من حالة التأخر والضياع إلى مركز تحسدها الدول عليه...)، ويفهم من العبارة الأخيرة أن ماري سمّت فترة الخلافة الإسلامية فترة تأخر وضياع.

---

(١) انظر: تاريخ الشعوب الإسلامية، كارل بروكلمان ٥٩٦.

وفي الكتاب دعوة صريحة؟(وجلُّ ما نشتهي أن يقبل القراء على تتبع هذه الفصول إقبالهم على مذكرات الغازي مصطفى كمال باشا التي لاقت فوق ما كنا ننتظر من الاهتمام سواء كان من الشعب أو من الهيئات الرسمية التركية...)[1].

والكتاب مشحون بافتراءات ضد السلاطين الخمسة وبخاصة السلطان عبدالحميد، حيث كانت المؤلفة معاصرة للسلطان وقد وصفت كل الأحداث التي وقعت في عهد السلطان عبدالحميد وأكثرت من الافتراءات عليه (إن هذه المؤلفة الأميركية تكاد تكون من أشد المؤلفين النصارى حقداً على العثمانيين بشكل خاص، وعلى الإسلام ذاته بشكل عام)[2].

وبعد تقليب صفحات الكتاب والجزء الخاص بالسلطان عبدالحميد رحمه الله خرجنا بالآتي:

(أ) تقول ماري وهي تتهم السلطان في عدم أخذه بأسباب التقدم: (وفي أوائل عهد السلطان عبدالحميد أخذت روح التقدم تدبّ في جميع أنحاء المملكة لا سيما في بلغاريا وبدأت صوفيا عاصمة البلغار تحتل مركزاً مهماً في العالم السياسي، وهكذا أصبح لجغرافية البلقان الشأن الكبير في رؤوس ساسة الغرب الذين لم يفكروا بعد ذلك بتوقيع المعاهدات العالمية من دون أي إلمام بالمقاطعات المبحوث عنها بالنصوص.

وبدأ السلطان الجديد حكمه وكل شيء يتم عن أمل بالتقدم والنجاح، وبالرغم من خسارة بعض المقاطعات وحالة الجيش والأسطول حسنة جداً وكان الشعب تواقاً إلى التقدم في ميادين التهذيب والتجارة والعلاقات الدولية.

فماذا صنع السلطان؟..

---

(١) انظر: مقدمة «سلاطين بني عثمان الخمسة» ٧ ـ ٨.

(٢) انظر: جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ٢٨٣.

أقفل أبواب القرن الذهبي حاجزاً الأسطول وثبط همم العاملين بالجيش، وأبعد عن العاصمة كل مفكري الأتراك ومصلحيهم ومع أنه عرف فيما بعد بأدهى حكام أوروبا فهو لم يستعمل مواهبه في سبيل بلاده ومملكته.

وكم كان الأتراك يريدون خلعه فلم يتمكنوا من ذلك لأنه استطاع أن يحول دون أي اجتماع سياسي وهذا ما أظهرته طريقة حله البرلمان الأول.

وفي عهده فقدت الثقة داخل القصر وخارجه، فقد استعمل جيشاً من الجواسيس يعاونونه في تنفيذ مآربه وجيشاً آخر من الجواسيس على الجواسيس، وكان الشعب تحت المراقبة الدائمة لا يدري أفراده متى يتاح لهم فرص التحدث بحرية)[1].

وفي موضع آخر تقول: (وكان شديد الاهتمام بالمظاهر الخارجية والتقاليد الدينية إنما من المحقق أن اتساع مملكته والمحافظة عليها لم يشغلا فكره مطلقاً، فلما تسلّم العرش ورث أسطولاً يجعل دولته الثالثة في قوتها البحرية فحجر على قطع الأسطول في داخل ميناء القرن الذهبي، وبدأ يصرف بالتدريج المئتي أخصائي من مهندسي البحرية الانكليزية الذين استعانت بهم الدولة لتقوية بحريتها، وأهمل شأن المعهد الحربي البحري فدبّت إلى أسسه عوامل الفساد، كل هذا يبرهن بجلاء بأن السلطان لم يكن ليهتم حتى بالمحافظة على مملكته البعيدة)[2].

(ب) ومن افتراءاتها: اتهامها السلطان بالجهل، تقول: (ويقف المرء حائراً تجاه سلطان قضى معظم حياته في السجن يحيك المؤامرات لتسنم الأريكة ويجب أن لا ننسى أن عبدالحميد كان جاهلاً تنقصه الخبرة المتعلقة بالشؤون العامة وهذا النقص يشمل التهذيب والتعلم والاختبار والهبة الطبيعية)، وفي موضع آخر تتهمه بالجهل، (وحظر السلطان استعمال الكهرباء في غير قصره

(١) انظر: سلاطين بني عثمان الخمسة ٩٥ ـ ٩٦.
(٢) انظر: نفس المصدر ٨٤.

لأنه كان يخاف من الكهرباء ويعتقد أن هنالك صلة بين (الدينمو) محرك الكهرباء وبين الديناميت)[1].

وتتحدث عن الصحافة فتقول: (أما حرية الصحافة فأمل منشود وحلم جميل وكلمات (نجاح، حرية، مساواة) كان محرماً التلفظ بها حتى أن الشعب اعتقد بأن الكثيرين من مفكري الأتراك أصابهم ما أصاب مدحت باشا، وراقب قلم المطبوعات بشدة جميع المراسلات الخاصة وحظر على الصحف الأوروبية الدخول إلى البلاد وعلى الصغار من الأتراك التعلم في المدارس الأجنبية)[2].

وتورد وصفاً غير لائق عند خلع السلطان في قولها: (ونالت جمعية الاتحاد والترقي الفتوى العادية بخلع السلطان وذهب وفد ليقابل السلطان فاستقبله في قاعة جدرانها من المرايا ما يمكنه رؤية كل سلاح يوجه إليه، وأرسل السلطان صرخة يأس وأغمي عليه وذهب خضاب لحيته وابيض شعر رأسه، وكان أحب أولاده إليه بصحبته في ذلك الوقت فسمع رجال الوفد بكاءه بعد مبارحتهم الغرفة)[3].

(ج) اتهام النساء بتمسكهم بالتقاليد الإسلامية، فتقول عن النساء: (وبقيت النساء في معزل عن البيئة الاجتماعية أثناء حكم السلطان عبدالحميد وحافظن على البراقع البيضاء المثلثة الشكل حتى آخر القرن التاسع عشر، أما الأطباء فلم يسمح لهم بدخول الحرم، وإذا دُعي الطبيب لعيادة مريضة كانت تمدّ يدها من وراء الستار وعلى الحكيم أن يكتفي بذلك)[4].

وحيث إنها رئيسة كلية استانبول الأميركية للبنات تقول: (وكانت كليتنا معملاً لتخريج الزوجات الصالحات للأتراك المثقفين فكانت الطالبة لا تغادر

(١) انظر: سلاطين بني عثمان الخمسة ٨٤ و ١٠٠.
(٢) انظر: نفس المصدر ٩٦.
(٣) انظر: نفس المصدر ١٠٩.
(٤) انظر: نفس المصدر ٩٧.

الكلية حتى يكون قد تنافس طلاب الزواج في طلب يدها)[1]. . . إلى نهاية حديثها عن البنات وكيف كانت تدعوهم إلى التفسخ والحرية ورفع الحجاب بحجة التقدم ونحو ذلك.

سادساً ـ افتراءات مختلفة:

١ ـ اتهامه بزيادة نفقات القصر:

فقد ذُكر أن نفقات القصر ونفقات العاصمة كانت تزداد وتتضخم سنة فسنة بسرعة متزايدة، وتبتلع قسماً كبيراً من موارد الدولة.

فإن جيش العاصمة ـ كان يسمى بالخاصة ـ كان يزداد عدداً وزركشة لضمان أمن القصر والعاصمة من جهة، ولزيادة أبهة العرش في نظر الناس ونظر الأجانب من جهة أخرى، كل هذا فضلاً عن زيادة عدد رجال القصر ومرافقي السلطان، مع ارتفاع مراتبهم ورواتبهم بدون انقطاع[2].

كما اتهم السلطان أنه استولى على أربعة أخماس المبلغ الذي تركه عبدالمجيد وأنفقه في شؤونه الخاصة وأنه لم تجر محاولة إصلاحية واحدة في تركيا[3].

٢ ـ الافتراء على شخصه:

يقول لوثروب ستودارد الأميركي وهو يستعرض منجزات السلطان عبدالحميد الثاني بقوله: (فقد اختط الخطط الكبرى لتحقيق مشروعاته العظمى، ثم طفق يسعى وراء ذلك بمتنوع الوسائل سعياً وإن كان قائماً معظمه مبنياً على شدة الحذق والدهاء، فإنه لم يخلُ في بعض المواضع من ضروب العبث، وكان سلطاناً مستبداً طبعاً وسجيةً، ظنين السوء بعمّاله، مولعاً بأن تكون صغائر الشؤون وعظائمها معلقة على إرادته النافذة، وفوق جميع هذا فقد

(١) انظر: سلاطين بني عثمان الخمسة ٦٠.
(٢) انظر: البلاد العربية والدول العثمانية ١٠٢ ـ ١٠٣.
(٣) انظر: عبدالحميد ظل الله على الأرض ٤٣.

كثر من حوله الوشاة والمداهنون الذين وقفوا على سريرته وعرفوا مشربه، فجعلوا يحسنون له أهواءه ويجارونه)[1].

ويقول الدكتور توفيق علي بروفي أثناء حديثه عن الدستور العثماني الأول الذي كان لمدحت باشا الفضل في وضعه وكيف أن السلطان عبدالحميد جمّد العمل به (بعد أن علّق عبدالحميد أحكام الدستور فرض على شعبه بالتدريج حكماً فردياً مستبداً ليس له مثيل، وكانت جميع العناصر والطوائف سواسية كأسنان المشط في التعرض لاستبداده وطغيانه)[2].

٣ ـ الصحافة ضد عبدالحميد:

وفي غمرة النشاط المعادي لعبدالحميد في سلانيك وباريس كانت الصحافة العالمية منهمكةً في نشر الدعايات التي تحط من قيمة السلطان العثماني[3]، فقد انطلقت الصحافة الأوروبية وتابعتها الصحافة العربية التي ظهرت في مصر والتي قاد حركتها خريجو الإرساليات التبشيرية من أمثال سليم سركيس وفارس نمر ويعقوب صروف، وفرج انطوان. . وغيرهم الذين حملوا لواء التشهير باللواء ومعارضته وإشاعة الاتهامات المختلفة حول شخصيته وتصويره بتلك الصورة الرديئة لحساب الصهيونية العالمية التي انطلقت لإشاعة روح الكراهية والانتقاص للرجل بعد موقفه الحاسم الكريم من مطالبهم، وكان أعظم ما تركز عليه هذه الحملة إثارة عوامل الفتنة بين قيادة الحركة الإسلامية وبين العناصر المختلفة في الدول العثمانية وخارجها)[4].

ما دوافع حملات التشويه؟

إن أي عمل يقدم عليه أي شخص لا بد أن يكون له هدف وغاية من وراء عمله هذا، وإن الشبهات التي أثيرت حول السلطان عبدالحميد بخاصة

(١) انظر: حاضر العالم الإسلامي ٣٠٨/١.
(٢) انظر: العرب والترك في العهد الدستوري العثماني ٣٢.
(٣) انظر: أسرار الانقلاب العثماني ٢٣.
(٤) انظر: تصحيح أكبر خطأ في تاريخ الإسلام ١٦.

والدولة العثمانية بعامة كانت بلا شك نابعة من غايات خبيثة، فلو ألقينا النظر على هذه الشبهات وطرحنا السؤال التالي:

لماذا وجهت إلى العثمانيين الأتراك أشد حملات التشويه شراسة وخبثاً؟؟

وللإجابة على هذا التساؤل نقول: إنه الحقد، الحقد على الإسلام أولاً، والحقد على الأتراك العثمانيين ثانياً.. وقد عبّر عن هذا الحقد أبلغ تعبير وأصدقه المستشرق الألماني نولدكه بقوله: (إن دخول الترك في العالم الإسلامي المتحضر بعد سقوط دولة السامانيين الإيرانية كان نكبة هائلة في تاريخ العالم كله)[1].

وقد عمد الاستعمار الغربي في الوصول إلى هدفه وغاياته بإبراز دعايته على تشويه صورة الحكم العثماني والتاريخ العثماني والإنسان العثماني لكي تبرر عملية تطويق وتمزيق واقتسام الدولة العثمانية، وفعلاً فقد تحولت الدولة العثمانية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر إلى مادة الاستعمار الغربي الذي يقتطع من جسدها[2].

والذي يبدو والله أعلم أن منشأ هذه الشبهات كون الغالبية ممن أرّخ للأتراك العثمانيين من غير المسلمين، وإن كان هناك مؤرخو مسلمون أرّخو للأتراك حين دخولهم للإسلام وأصبح الأتراك محط الأنظار منذ أن دخلوا الإسلام، بَيْدَ أنّ المؤرخين من غير المسلمين أبدوا اهتماماً ملحوظاً بدراسة تاريخ الأتراك العثمانيين المسلمين.

ومن أول وهلة يخيل للمرء أن اندفاع المؤرخين من غير المسلمين في دراسة تاريخ العثمانيين المسلمين كان ينطلق من منطلق علمي سليم هدفه تتبع تاريخ العثمانيين المسلمين بأمانة علمية منصفة، ولكن ما أن يطلع المرء على ما أفرزته جهود المؤرخين من غير المسلمين من دراسات عن تاريخ العثمانيين المسلمين،

---

(١) انظر: جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ٩.
(٢) انظر: حوار في أنقرة ٢١.

حتى يكتشف أن الغالبية العظمى منهم قد تجاهلوا وتناسوا مقتضيات الأمانة العلمية والإنصاف، بل أطلقوا العنان لأحقادهم الظاهرة والباطنة، لتكون هي المنطلق الذي ينطلقون من خلاله في تشويه تاريخ العثمانيين المسلمين وإلصاق عشرات الافتراءات التي لا تسندها أية بينات تاريخية بالأتراك العثمانيين المسلمين[1].

وليس غريباً أن تصدر مثل تلك الإفتراءات عن أقوام فضح الله عز وجلّ نيّاتهم تجاه الإسلام والمسلمين في قوله تعالى جل شأنه ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً، ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم، وما تخفي صدورهم أكبر قد بيّنا لكم الآيات إن كنتم تعقلون﴾[2].

أما إثارة الشبهات في شخص السلطان عبدالحميد رحمه الله فقد علّله في مذكراته إذ ذكر أن الإساءة إليه والافتراء عليه إنما هو بسبب فشل بعض الأشخاص في عصره فقد قال (فإذا فشلوا عمدوا إلى الإساءة والافتراء على شخصه)[3].

* * *

---

(١) انظر: جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ١٠ ــ ١١.
(٢) سورة آل عمران: آية ١١٨.
(٣) انظر: السلطان عبدالحميد، مذكراتي السياسية ٢٢١.

المبحث الثاني

عــرض الشبهات ومناقشتها

بين يدي الشبهات :

لقد عرضنا في المبحث الأول مصادر الشبهات التي أثيرت حول السلطان عبدالحميد الثاني رحمه الله ووقفنا على تلك المصادر يهوداً كانوا أم مؤرخين مسلمين وغير مسلمين أفراداً كانوا أم جماعات، ووقفنا على الأيدي الخفية التي تدفع هؤلاء لكي يسيروا قدماً نحو إثارتهم البلبلة تجاه السلطان.

ووقفنا كذلك على الدوافع التي تدفع بهؤلاء لكي ينالوا من السلطان، متخذين شتى الطرق للوصول إلى أهدافهم وبمختلف الوسائل باستخدام أقبح الأوصاف وأخبث العبارات للحط من قدر السلطان الذي لم يأل جهداً في خدمة الإسلام والمسلمين.

لقد كان لازماً علينا ونحن نقف على الحقائق كما وقفنا على الشبهات، وقبل تفنيد الصالح من الغثّ أن نقول الحق ولا شيء غيره، وأن ننصف هذا السلطان وأن ننزله المكانة التي كان عليها، نقول كلمة الإنصاف ليكون تمهيداً بعد ذلك لتفنيد الشبهات الواحدة تلو الأخرى.

وللباحثين نقول: لقد كان ضرورياً لكل باحث متمهل منصف أن يقف دائماً من تاريخ الدولة العثمانية في العصر الأخير موقف العدل والصدق، وأن يفرق بين عهدين: عهد السلطان عبدالحميد الذي انتهى عام ١٩٠٨ تقريباً، وعهد الاتحاديين الذي بدأ منذ ذلك الوقت وظل مستمراً حتى أسلم أمره إلى الكماليين بعد الحرب العالمية الأولى.

فمرحلة السلطان عبدالحميد التي انتهت عام ١٩٠٨م وهي فترة كان موقف الدولة العثمانية فيها بالنسبة للعرب والمسلمين موقفاً كريماً، وكانت الحركة الإسلامية الواحدة من أعظم الأعمال، أما الفترة التالية التي حكم فيها الذين أسقطوا السلطان فإنها تمثل أسود صفحات الحكم التركي ولاء للصهيونية والاستعمار وضرباً للوحدة الإسلامية وإعلاء للحركة الطورانية، ومحاولة لتتريك العرب في سوريا وتعليق زعمائهم على المشانق، هذه الفترة وحدها هي التي يقف فيها العرب من سوريا موقف الخصومة للترك وهي ليست من حساب الدولة الإسلامية العثمانية في الحقيقة[1].

يقول الدكتور محمود صالح منسي (وعلى الرغم من النقد الشديد الذي يوجه إلى عبدالحميد وعهده من جانب الكثيرين وبخاصة الأحرار، لما شهده عهده من مصارع الحرية، وتعقب الأحرار من أنصار الحكم الدستوري، ففي تصوري أن السلطان عبدالحميد الثاني تعرض لحملة قاسية من النقد أثارها أولاً الكتاب الأوروبيون بدافع الحقد بسبب سياسته الإسلامية، وجاراهم في ذلك الكتاب العرب، الذين كرهوا عبدالحميد مثلما كرهوا فترة الحكم التركي للبلاد العربية، وبخاصة في المشرق، حتى يمكن أن نطلق على عبدالحميد اسم السلطان المفترى عليه)[2].

وذكر أيضاً في معرض دفاعه عن السلطان أن عهد عبدالحميد لم يكن أشد استبداداً وطغياناً من عهد الدستورين الذين جاؤوا بعده في حكم الدولة[3].

ثم يشير إلى أن عهد عبدالحميد يستحق كلمة حق وإنصاف على الأقل بسبب موقفه من مسألتين كان لهما أعمق الأثر على الدولة العثمانية عامة والمشرق العربي بل والعالم العربي كله على وجه الخصوص، وأولهما: أنه على الرغم من

---

(١) انظر: تصحيح أكبر خطأ في تاريخ الإسلام ٢٣.
(٢) حركة اليقظة العربية في الشرق الآسيوي ٩١.
(٣) انظر: نفس المصدر ٩١.

توثق العلاقات بين الدولة العثمانية والامبراطورية الألمانية في عهد عبدالحميد فإن ألمانيا لم تستطع أن تجره إلى إبرام معاهدة كتلك التي أبرمها معها الاتحاديون فيما بعد عام ١٩١٤م، وكان سبباً في تورط الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى تلك الحرب التي كانت فرصة استغلتها الدول الأوروبية للسيطرة على ما تبقى من أقطار الشرق العربي.

وثانيهما: موقف السلطان عبدالحميد من الأطماع الصهيونية في فلسطين، ذلك الموقف الذي تجلى في أكثر من مناسبة في أثناء عهده[1].

قال الدكتور محمود صالح منسي كلمة حق في إنصاف السلطان وإن كان لا يزال متأثراً بكلمة الاستبداد الذي درج عليه المؤرخون الذين ظنوا أن حزمه استبداد وحكمته ودهاءه طغيان وفساد.

ولم تقتصر أعمال عبدالحميد على هاتين المسألتين فهناك مواقف كثيرة مشرقة وقفها عبدالحميد وكان له رأيه الخاص الذي لا يخرج به إلا إلى الطريق الجاد، وإن كانت الظروف التي أحاطت به جعلته يتخذ مواقف مشددة في بعض المسائل، فيخرج به على غير المألوف فيكون عمله هذا طعناً، وكأن الإنسان لا يخطىء وكأن الإنسان لا يسهو فالكمال لله.

وأكرر أن الظروف التي أحاطت بالدولة العثمانية في كل جوانبها كانت سبباً في تزعزع الأمور، ولولا الحزم الذي اتخذه السلطان عبدالحميد لفلت زمام الأمور من يده، ولو لبّى عبدالحميد مطالب خصومه على حساب دولته لما كالوا له تلك التهم وتلك الشبهات، ولما لقّب بالسلطان الأحمر كما عرفنا ذلك أثناء حديثنا عن الشبهات.

وبعد...

فإن من حق السلطان عبدالحميد ومن حق العثمانيين الأتراك على كل مسلم أن يسجل له هذا الموقف الشامخ دفاعاً عن فلسطين وأن يراجع كل

---

(١) حركة اليقظة العربية في الشرق الآسيوي ٩١ ـ ٩٢.

مسلم المعلومات الخاطئة التي جهدت القوى الحاقدة في تلفيقها ضد السلطان عبدالحميد وضد العثمانيين الأتراك، فما كان السلطان عبـدالحميد طـاغية، وما كان ظالماً، ولا مستبداً، ولم يتمرغ في أوحال الملذات، ولا تلطخت يداه بدماء الأبرياء كما تصوره أحقاد الحاقدين، مما لاتزال أجيالنا حتى يومنا هذا تتلقاه مع الأسف الشديد على مقاعد الدراسة في أكثر أنحاء وطننا العربي.

ولئن كان الأسى يشتد ويتعاظم في النفس المسلمة وهي ترى الكثير من الألسن والأيدي المسلمة مستمرة في ترديد الافتراءات الظالمة التي ألصقت بالسلطان عبدالحميد فإن من مقتضيات الأمانة العلمية أن أشير إلى أن بعض الأقلام أنصفت السلطان عبدالحميد حتى وهي تكيل له الاتهامات الباطلة، كتلك الشهادة التي سجلها المحامي سليم صويص في كتابه (أتاتورك منقذ تركيا وباني نهضتها الحديثة) وهو كتاب كرّس أصلاً لتمجيد أتاتورك.

يقول الأستاذ صويص وهو نصراني أردني وهو يعقد مقارنة بين السلطان عبدالحميد ورجالات جمعية الاتحاد والترقي: (وهكذا عادت جمعيـة الاتحاد والترقي إلى الحكم ثانية بشكيمة أقوى وبسيطرة أكبر على مقاليد الأمور، فعزلت السلطان عبدالحميد وعينت أخاه محمد رشاد مكانه، والغريب أن يصبح تعليق المشانق في عهد حكم جمعية الاتحاد والترقي أمراً سائغاً وشائعاً، في حين أن السلطان عبدالحميد بكل ما عرف عنه من قسوة وبطش كان يتورع عن شنق المسلم ويؤثر نفيه عن البلاد على إعدامه)[1].

فبإمكاننا الآن وبعد أن قدّمنا هذه المقدمة أن نبدأ بتفصيل الشبهات مراعين في ذلك الترقيم الذي وضعناه لكل شبهة.

أولاً ـ اليهـود:

* ماذا فعل اليهود مفسدوا العالم بالسلطان عبدالحميد؟؟.
* ماذا فعل اليهود قاتلوا الأنبياء؟؟.
* ماذا فعل اليهود محرّكوا الفتن؟؟.

(١) انظر: جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ٥٨ ـ ٥٩.

إن ما فعله اليهود يعتبر بلا شك ضربة مؤلمة للإسلام والمسلمين، لا زلنا نشرب مرارته، إن هؤلاء اليهود الذين تظاهروا بالشجاعة والإقدام، وقد أثبت القرآن الكريم جبنهم وخبثهم، قال تعالى حكاية عنهم مخاطبين النبي موسى عليه السلام: ﴿فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون﴾[1] فالجبن طبعهم الأصيل، حتى أنهم يظهرون دائماً على حقيقتهم، وحين يحاربون يفضلون معارك الليل التي تحجبهم عن أعدائهم، ويفضلون الاحتماء بالجدر والمنازل والقلاع[2]، قال تعالى: ﴿لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر﴾[3].

وفعلاً فقد حاربوا الإسلام والمسلمين والدولة العثمانية خاصة، لأنها وقفت في وجه أطماعهم وتقدمهم، وقد كانت معاداتها للدولة العثمانية ومحاربتها بدعاياتهم الفاجرة التي صورت الحكم في عاصمة الخلافة أبشع تصوير.

ودعاية اليهود ماهرة في قلب الحقائق وإبراز المساوىء وطمس المحاسن، نجحت تلك الدعاية في أوروبا وفي العالم بأسره حين غدا من الأمور المسلّم بها، أن المسلمين الأتراك متوحشون قساة، يرتعون في الفساد والانحلال، وحين أبرزت قسوة الأتراك وطمست وحشية البلغار واليونان والفرنسيين والإنجليز والروس، ونجحت الدعاية اليهودية في تحريك غرائز الطمع الاستعماري الغربي لابتلاع أجزاء غنية من تركة الرجل المريض كما كانوا يسمون سلطان تركيا منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى سقوط الخلافة[4].

وحينما أدرك اليهود ثبات السلطان عبدالحميد في وجه أطماعهم زادوا من تآمرهم لإسقاطه، واستعانوا بالقوى الشريرة التي نذرت نفسها لتمزيق الإسلام وأهمُّها الماسونية والدونمة والجمعيات السرية (الاتحاد والترقي)، وحركة القومية العربية وحركة القومية التركية (الطورانية)[5]، وعملوا بكل جهد لنشرمبادىء

(١) سورة المائدة: ٢٤.
(٢) انظر: جذور البلاء ١٠١.
(٣) سورة الحشر: ١٤.
(٤) انظر: الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام ٧٧.
(٥) انظر: نفس المصدر ٨٥.

هذه الجمعيات واستغلوا أخطر وسائل الإعلام وهي الدعاية من خلال الصحف التي كانت تسيطر عليها في أوروبا وفي تركيا نفسها، وكانت الجمعيات الماسونية التي فَرَّخَتْها الصهيونية كان لها نشاط ملحوظ إذ لعبت دوراً كبيراً في تنفيذ مؤامرة الردة الكافرة في تركيا وأدى إلى إبطال مفعول الخلافة الإسلامية والقضاء على الكيان الإسلامي لتركيا[١].

ولا شك أن جمعية الاتحاد والترقي ما هي إلا من عمل الماسونية، كما أثبتنا ذلك من خلال البحث، وقد استطاع يهود الدونمة أن يجعلوا من هذه الجمعية أداة سياسية لها ثقلها في تركيا نفسها، واستطاع رأس الأفعى عمانوئيل قره صو أن ينفذ إلى جمعية الاتحاد والترقي وبدأ يسيّر سياسة الدولة إلى الوجهة التي يريدها هذا اليهودي الماسوني[٢]، وغيره من اليهود ومن تابعهم من ضعاف النفوس سواء كانوا داخل تركيا أم خارجها.

وقد تنبه السلطان عبدالحميد إلى الجمعيات الماسونية وإلى خطرها منذ أن بدأت نشاطها فهو يقول: (للفارماسون[٣] عندنا تصرفات مزعجة، يحاولون بحماس زائد نشر أفكار تجديدية لا يفهمها الناس، إذ الأغلبية عندنا لا تأبه بالأفكار التحررية والذين يميلون إلى التعاون مع هؤلاء حفنة من الناس بقيت خارج البلاد ردحاً من الزمن فانقطعت عن جذورها، وتثقفت ثقافة أوروبية سطحية براقة، هذا الصنف من الناس عندما يعود إلى بلده يجهل ما ينتظره منه شعبه، فيعمل على نشر الأفكار الغربية «في سبيل جعل تركيا دولة حضارية» إنهم عمي في بصائرهم)[٤].

وكان لافتضاح أمر هذه الجمعيات الأثر الكبير إذ رحل كبار قادتها إلى خارج البلاد فحملوا لواء المعارضة من الخارج، والتف حولهم كل حاقد على

---

(١) انظر: جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ٤٩.
(٢) انظر: أسرار الانقلاب العثماني ٥٨.
(٣) أي الماسونيون أو «العشيرة الحرة».
(٤) السلطان عبدالحميد، مذكراتي السياسية ٧٣.

الدولة العثمانية وعلى السلطان عبدالحميد، وكان للاستعمار اليد الطولى في تقديم المساعدات لهم وتسهيل مهمتهم، فرموا السلطان بكل ما أوتوا من خبيث الصفات، حتى خيّل لكل سامع لأقوالهم أنهم على حق، ولكن الحقيقة ظهرت فشهد لهذا السلطان الأعداء قبل الأصدقاء ــ والفضل ما شهدت به الأعداء ــ فقد ذكر هرتزل في مذكراته التي طبعت بالألمانية في تل أبيب عام ١٩٢٤م قصة محاولاته مع السلطان عبدالحميد وقد ذكر بعد فشل المحاولة الأخيرة: أن السلطان عبدالحميد الشريف الفذ أُخْفِيَ أمرُه عن المسلمين والعرب منذ عام ١٩٠٩ حتى سنوات قريبة عندما تُرْجمت مذكرات هرتزل، وكان أول من أشار إلى هذا النص الأستاذ أحمد الشقيري في دروسه في معهد الدراسات العربية بالقاهرة، وقد ظل المسلمون والعرب خلال فترة لا تقل خمسين عاماً يرمون الرجل عن قوس واحدة، لأن الاستعمار والصهيونية والصحف العربية التي أصدرها تلاميذ مدارس الإرساليات وبخاصة في مصر (المقطم والأهرام، الهلال، المقتطف، مجلة سركيس) وعشرات من هذه الصحف كانت تصف عبدالحميد بالسلطان الأحمر المستبد، وقد انتقلت هذه العبارات من الصحف إلى كتب التاريخ وكتب تاريخ الأدب العربي، وما من كتاب أرّخ هذه الفترة إلا احتوى على هذه العبارات التي أصبحت مسلمات[١].

ويكفي السلطان فخراً أنه كان قوياً ثابت الجنان قوي الحجة والبيان، وتجلى هذا في رده الحاسم وموقفه مع هرتزل الذي قابله وكان مما قاله السلطان (لا أقدر أن أبيع ولو قدماً واحداً من البلاد، لأنها ليست لي بل لشعبي، ولقد حصل شعبي على هذه الامبراطورية بإراقة الدماء، وقد غذوها بدمائهم، وسوف نغطيها بدمائنا قبل أن يسمح لأحد باغتصابها منا، الامبراطورية العثمانية ليست لي وإنما للشعب، لا أستطيع أبداً أن أعطي أحداً أي جزء منها، ليحتفظ اليهود بملايينهم فإذا ما قسمت الامبراطورية فقد يحصل اليهود على فلسطين

---

(١) انظر: تصحيح أكبر خطأ في تاريخ الإسلام ٢١.

بدون مقابل، إننا لن نقسم جثتنا ولن أقبل بتشريح أجسادنا لأي غرض)[١].

فكان على اليهود وبكل ما أوتوا من خبث ودهاء العمل على إسقاط الخليفة وتدمير الخلافة وتحطيم الدولة العثمانية من أجل تحقيق مطلبهم، ثم كانت تلك الحملة الضارية على السلطان عبدالحميد الذي عرفتها كتب التاريخ الحديث واتهامه بالتسلط والتعصب والعنف في سبيل تبرير إسقاطه على النحو الذي حدث بالنسبة له.

ثانياً ـ تفنيد لشبهات بعض الكتاب:

١ ـ شبهات عبدالرحمن الكواكبي:

لقد نظر الباحثون إلى الكواكبي من زاويتين مختلفتين، ويرجع اختلافهم حول الاتجاه الفكري للكواكبي إلى أنّ كلاً منهم قد نظر إلى فكر الكواكبي من زاوية خاصة، فمن رأى الكواكبي داعية دولة دينية وضع نصب عينيه مؤتمر أم القرى الذي تخيّل الكواكبي عقده في مكة المكرمة ودعا إليه الأعضاء من مختلف أنحاء العالم الإسلامي حيث تباحثوا في أمور المسلمين (وأسباب فتورهم) واتخذوا القرارات الكفيلة بنهضة المسلمين وتوحيد كلمتهم بالإضافة لترديد الكواكبي لعبارات مثل (الجامعة الإسلامية) (الرابطة الإسلامية) (أهل القبلة)، وكذلك وصف صديقه رشيد رضا لكتابه «أم القرى» بأنه لم يكتب مثله في الاصلاح الإسلامي وقوله في رثائه بأنه (رجل عظيم من رجالات الإصلاح الإسلامي)[٢].

وأما من ذهب إلى أن الكواكبي مفكر قومي عربي فقد وضع نصب عينيه انتقاداته. للدولة العثمانية، وتنديده لمساوىء الحكم التركي وهجومه السافر على السلطان عبدالحميد لدرجة تخصيصه كتابه «طبائع الاستبداد»

(١) انظر: المخططات التلمودية اليهودية الصهيونية ١٢٥.
(٢) انظر: بحوث المؤتمر العالمي الثاني لتوجيه الدعوة وإعداد الدعاة، المجموعة الأولى ٢٠.

لذلك، وتوصله في النهاية إلى عدم صلاح أحوال المسلمين على يد العثمانيين، مع إشادته بالعرب وبيان فضلهم وتأكيده على أن أحوال المسلمين لن تصلح إلا بعودة زمام الأمور إلى العرب وتصدرهم لقيادة الدولة الإسلامية ودعوته الصريحة إلى قيام خلافة عربية قرشية[١].

والذي يهمنا في هذا المقام هو الأثر الذي تركه كتابه «طبائع الاستبداد» الذي قاد فيه هجوماً سافراً على الدولة العثمانية التي تعتبر بحق آخر وأقوى دولة شرقية صدت غزو أوروبا، بل ونقلت المعركة إلى أرض أوروبا لأكثر من ثلاثة قرون عاشتها أوروبا في رعب دائم[٢]، ثم يأتي الكواكبي ويكيل الاتهامات والانتقادات إلى أن الدولة العثمانية غير صالحة لقيادة العالم الإسلامي إلى النهضة والتقدم، والبديل الوحيد الذي وافقت عليه جمعية أم القرى هو قيام خلافة إسلامية بقيادة عربية لتعيد للإسلام والمسلمين أمجادهم السالفة، لأن العرب هم الجديرون بهذه المكانة والمؤهلون للقيام بهذا الدور لما لهم من مزايا وصفات تؤهلهم لذلك[٣].

لقد أغفل الكواكبي الدور الذي لعبه العثمانيون وكيف أن الجيوش التركية رابطت على الجبهة الأوروبية مدة خمسة قرون تدافع عن الإسلام أخطار الغرب المتعصب الحاقد، لقد وقعت أحداث كثيرة ليست من الإسلام ولا يقرُّها دستور الجهاد الإسلامي، واستغلت تلك الأحداث لإلصاق الوحشية والهمجية بالإسلام والمسلمين.

ولم يصغ الغرب الحاقد إلى وجه نظر الأتراك المسلمين الذين كانوا يدافعون عن أنفسهم وعن الخلافة الإسلامية، ولم يستمع إليهم أحد في تبريرهم لكثير من الأعمال التي صاحبتها القسوة والشدة والعنف[٤].

(١) انظر: بحوث المؤتمر العالمي الثاني لتوجيه الدعوة وإعداد الدعاة، المجموعة الأولى ٢١.
(٢) انظر: حوار في أنقرة ٢٠.
(٣) انظر: بحوث المؤتمر العالمي الثاني لتوجيه الدعوة وإعداد الدعاة، المجموعة الأولى ٤٢.
(٤) انظر: جذور البلاء ٢٦٤.

أبعد الجهاد العثماني الطويل ووقوف عبدالحميد في وجه أطماع اليهود وهو يصون دولته من طمع الطامعين يقول (ولا شك أن في إعانة الظالم تبدأ من مجرد الإقامة في أرضه) (ما أليق بالأسير في أرض أن يتحول عنها إلى حيث يملك حريته فإن الكلب الطليق خير حياة من الأسد المربوط)[١]، فكأنه يستحث قومه على الهجرة فراراً من الاستبداد وهو استبداد عبدالحميد ــ على حد تعبيره.

وجدير بالذكر أن الكواكبي رغم هجومه السافر والشديد على الاستبداد والدعوة للثورة عليه كان على جانب كبير من النضج الفكري حين رأى أن الاستبداد لا يقاوم بالشدة إنما يقاوم باللين والتدرج (وأنه) يجب قبل مقاومة الاستبداد تهيئة ماذا يستبدل به الاستبداد (هكذا)[٢].

وبعـد:

فمهما قيل عن الكواكبي، ومهما قاله تجاه الدولة العثمانية وإبراز مساوىء نظام الحكم فيها إلا أننا لا يمكن أن نغفل نشاطه الملحوظ في بعث حركة الفكر الإسلامي (يكاد الكواكبي ــ وهو معاصر للشيخ محمد عبده ــ أن يلتقي معه في كثير من المفاهيم خاصة حول عوامل الضعف التي حلّت بالفكر الإسلامي وعوامل التخلف التي أصابت المجتمع الإسلامي، ويطلق عليها الكواكبي «أسباب الفتور» غير أن الكواكبي يعني بالجانب السياسي ويعلق عليه أهمية كبرى ويشغل فكره بأمر الاستبداد السياسي وأثره في الدولة والأمة والمجتمع، ويربطه بالجبرية وبعوامل الضعف المختلفة)[٣].

ولعل للكواكبي عذراً فيما مضى إليه من آراء وجملة الانتقادات التي وجهها على الدولة العثمانية عامة والسلطان بخاصة، وكأن السبب هو ما واجهه الكواكبي من ظلم الولاة ووشاياتهم ودسائسهم ضده، واضطهادهم له، وعدم

(١) انظر: عبدالرحمن الكواكبي ١٤١.
(٢) انظر: بحوث المؤتمر العالمي الثاني لتوجيه الدعوة وإعداد الدعاة، المجموعة الأولى ٢٨.
(٣) انظر: اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار ١٤١.

تمكينه من تنفيذ الإصلاح في (حلب) بيده بعد أن عجز عن تنفيذه أثناء عمله في الصحافة[١]، أثر كبير في البوح مما عاناه فصب غضبه على الدولة جملة والسلطان عبدالحميد خاصة حيث وجد في مصر أرضاً خصبة لنشر أفكاره دون مضايقة تذكر.

٢ ــ نجيب عزوري:

عرفنا أثناء ترجمتنا لنجيب عزوري أن حملته كانت سياسية بحتة، كما عرفنا أنه عربي نصراني ظهر نشاطه في الأعوام الأخيرة للعهد الحميدي، قال تعالى: ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملّتهم﴾[٢].

وقد كان لكتابه «يقظة الأمة العربية أمام مصالح ومنافسات الدولة الأجنبية» الأثر الواضح في نبذ السلطة العثمانية على اعتبارها سلطة مركزية لأنه دعا إلى إنشاء دولتين:

دولة دينية على غرار الفاتيكان ودولة عربية علمانية في سلطة دستورية، فكأن عزوري يدعو إلى فصل الدين عن الدولة، إذ ما معنى إقامة دولة دينية على غرار الفاتيكان لا شأن لها في السياسة وإقامة دولة علمانية في سلطة دستورية؟؟

لقد أراد عزوري دولة تتولى الشؤون الدينية ودولة تتولى السلطة السياسية، كأن السياسة لها رجالها المختصون والدين له رجاله المختصون به كذلك، أما في قوله (إقامة دولة عربية علمانية)، وعلمانية مرادفة للكلمة الانجليزية التي معناها لا ديني، أو غير عقيدي، ومن ثم كانت العلمانية تعني اللادينية)[٣]، ومن هنا نستطيع أن نتصور الفارق الكبير بين إعلان دولة علمانية أو الإعلان عن دولة لا دينية ومن هنا نحس خبث ترجمة الكلمة إلى لفظ

(١) انظر: بحوث المؤتمر العالمي الثاني لتوجيه الدعوة.. المجموعة الأولى ١٨.
(٢) سورة البقرة: آية ١٢.
(٣) انظر: أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي، د. علي محمد جريشة، محمد شريف الزيبق ٥٩.

العلمانية، ونحس خبث الذين يستعملون هذا اللفظ دون اللفظ الكاشف عن المعنى المقصود.

لم يكن غريباً في الغرب أن تجد العلمانية مكانها، فقد فرضت ذلك ظروف الغرب، حيث التسلط الكنسي وتحالفها مع الظالمين على شعوب الغرب المختلفة ووقوفها في وجه كل تفتح فكري أو كشف علمي.

وحين أريد نقل العلمانية إلى الشرق الإسلامي غفل المسخرون عن علم أو عن جهل غفلوا عن هذه الظروف جميعاً، غفلوا عن أنه ليس في ظروف الشرق الإسلامي التاريخي ما يبرر فصل الدين عن الدولة، فلم يكن ثمة اضطهاد من رجال الدين الإسلامي ـ إذا صح التعبير للمقابلة مع رجال الكنيسة ـ لم يقع اضطهاد من علماء المسلمين للعلم أو للعلماء.. ولم يكن في تاريخنا الإسلامي محاكم تفتيش ولا صكوك غفران وقرارات حرمان، فلم تكن الديانة الإسلامية لتسمح بالفصل بين الدين والدولة، لأن الدولة في فقه الإسلام قسم للدين لا قسيم. فلا دين بغير دولة ولا دولة بغير دين..[1].

ولا يستبعد أن يكون عزوري قد دعا إلى دولة مثلما دعا إليه الغرب، فعزوري كما يراه الدكتور توفيق برو فيما ينقل عنه محمد جلال كشك (إن كتاباته كانت محل شك وشبهة لأنه كان داعية للدول الغربية)[2].

ويقول ألبرت حوراني كما ينقل عنه محمد جلال كشك (... إن عزوري حذر من خطر التوسع الروسي والألماني وأكد أنه لا صديق للعرب إلّا الانكليز والفرنسيين)[3].

فماذا نرجو من مفكر مثل عزوري وهو يدعو إلى الارتماء في أحضان الغرب الحاقد في براثن الاستعمار ولا نستغرب افتراءاته على الدولة العثمانية،

---

(١) انظر: أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي ٦٠ ـ ٦١.
(٢) انظر: حوار في أنقرة ٤٣.
(٣) انظر: نفس المصدر ٤٣.

وعلى السلطان عبدالحميد الذي وقف في وجه كل ما هو مخالف للشريعة ووقف في وجه الجمعيات السرية التي لا همّ لها إلا تقويض بنيان الدولة العثمانية موضحاً لهؤلاء الساسة خطأهم في قوله: (إن الأمة تنسى بسرعة، أقولها مستميحاً العذر الذين يجادلونني سياسياً دون تبصر بما يدور من وراء الستار من ألاعيب، وما تهيئه الدول الكبرى من مؤامرات عدوانية)[1].

فعزوري كان سالكاً مسلك السياسة في انتقاداته ضد السلطان كاشفاً في حدّ زعمه أخطاء السلطان، فلم يكن يأتي عزوري في كتاباته بجديد سوى أنه أول من لفت الانتباه إلى مطامع الصهيونية في فلسطين[2]، وما عدا ذلك فقد كال الاتهامات وطعن في الدولة والسلطان عبدالحميد رحمه الله.

٣ ـ أحمد رضا:

لا نستطيع أن نوجه الانتقادات ونرد على شبهات أحمد رضا إلا إذا وقفنا على مقالاته في جريدته (مشورت) التي كان يكيل الاتهامات من خلالها على السلطان عبدالحميد.

ولعلّ تلك الاتهامات نابعة من كون أحمد أحد أعضاء جمعية تركيا الفتاة التي طاردها السلطان عبدالحميد نتيجة للأفكار التي كانت تبنّها، وجمعية تركيا الفتاة ليست بعيدة عن الجمعيات الماسونية كما أثبتنا ذلك أثناء حديثنا عن جمعية الاتحاد والترقي، هذا الاسم الذي عرف به أعضاء جمعية تركيا الفتاة فيما بعد.

وقد طارد السلطان عبدالحميد الجمعيات السرية كما فعل أسلافه الذين كانوا ينفرون من الجمعيات السرية ويسارعون إلى إلغائها وتشتيت شمل أصحابها، والسلطان عبدالحميد الثاني الذي أثرت حوادث عام ١٨٧٦ بسيرته وسياسته كان يشك دائماً بالمحافل الماسونية ونشاطاتها، وإن كراهيته لها يعود إلى يوم كان شقيقه مراد قد قبل كرئيس للماسونيين الأتراك.

---

(١) السلطان عبدالحميد الثاني، مذكراتي السياسية ٢٥.
(٢) انظر: العرب والعثمانيون ٥٢٩.

وقد استطاع السلطان عبدالحميد في عام ١٨٩٤ إغلاق جميع المحافل الماسونية ما عدا محافل سلانيك لارتباطاتها الدولية مع دول ومحافل أوروبا مثل: انجلترا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا والنمسا[١]، وقد هرب أعضاء الجمعيات التي أغلقها عبدالحميد إلى خارج البلاد فكوّنوا هناك قوى المعارضة ضد سياسة عبدالحميد الإسلامية، وأحمد رضا كان ممن فرّ إلى باريس وأسّس جريدته التي كانت بعض أعدادها تصل إلى تركيا خفية حاملة السم القاتل والنقد اللاذع لشخص السلطان عبدالحميد رحمه الله.

٤ ـ سليمان البستاني:

لقد أطلق البستاني العنان في كتاباته وبخاصة فترة حكم عبدالحميد، فالبستاني وإن كان يدافع عن الدولة العثمانية جملة إلا أنه وقف موقفاً مغايراً من السلطان عبدالحميد لوقوفه ضد الدستور، وسمى فترة السلطان بفترة الظلم والاستبداد في قوله (الحكومة الغابرة) أكثر من مرة في ثنايا كتابه الذي ألّفه خصيصاً للدفاع عن الدستور، ويبدأ كتابه بكلمة إهداء يوجهها إلى «مدحت باشا» رائد دستور ١٨٧٦م.

ورغم انتقاداته الشديدة للسلطان عبدالحميد إلا أن البستاني اعتقد بأن الدولة العثمانية هي الإطار الصالح والذي يضمن مصالح جميع الرعايا من مسلمين وغير مسلمين ودوام الدولة يضمن مصالحهم ورفاهيتهم.

من هنا فإنه وقف ضد كافة أشكال التقسيم والانفصال مؤيداً للعثمنة الكاملة بما في ذلك اعتماد اللغة التركية كلغة أولى ورسمية في كافة المناطق والولايات[٢].

يقول خالد زيادة محقق كتاب عبرة وذكرى (والبستاني يذكر فضل عهد عبدالحميد مرتين، المرة الأولى لعمله على إنشاء خط الحجاز الحديدي، والمرة

---

(١) انظر: موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ٢٨٩ ـ ٢٩٠.

(٢) انظر: عبرة وذكرى، بقلم المحقق ٥١.

الثانية حين يستعرض أحوال العلم والمدارس فيذكر فضل عبدالحميد الثاني في فتح المدارس والمعاهد في أنحاء السلطنة..)[١].

ويفهم من هذه العبارة أنه فيما عدا هذين المنقبتين للسلطان فإن البستاني يكيل الاتهامات ضد السلطان ويلومه كثيراً في ثنايا كتابه وذنبه في ذلك هو وقوفه في وجه الدستور، وتحت عنوان «حرية التعليم» يقول البستاني:

(فإذا ذكر العلم والتعليم فلا يسعنا إلا أن نقول الحق فنعترف أنهما رقيا فوق ما كانا عليه درجات، وإن معظم العثمانيين أصبحوا ولهم نصيب من العلم، ولقد أربى عدد القارئين الكاتبين على عدد الأميين في كثير من الولايات، ولكن المراقب الخبير يعلم أن هذا الترقي هو دون ما كان يجب أن يكون، لأن تيار العلم سيل جارف يبدد كل ما اعترض سبيله من عقبات الجهل والخمول، ولقد أحاط بنا هذا السيل من كل جوانبنا فما كان في الوسع حدّه مهما بذل من الجهد)[٢].

لقد انخدع البستاني كما انخدع غيره في قبولهم للدستور للمرة الثانية ولاموا السلطان على إلغائه في المرة الأولى، وظن أولئك أن في الدستور الإصلاح والتحديث كما ذكر ذلك البستاني في كتابه في إلحاحه على المطالبة بالحرية واعتقاده بأن الحرية هي مدخل إلى التقدم، لقد انخدع البستاني بالشعارات البرّاقة التي أطلقها الأحرار (الحرية والإخاء والمساواة والعدالة)، وأخذ يرددها هو وغيره ممن دافع عن الدستور، والنتيجة سيل جارف من الاتهامات وجهت ضد السلطان عبدالحميد رحمه الله.

٥ ـ بقية الكتّاب:

هناك بعض الكتّاب ممن ساهموا من قريب أو بعيد في إثارة البلبلة والشبهات في شخص السلطان عبدالحميد، وقد كانت لكتاباتهم في الصحف

---

(١) انظر: عبرة وذكرى، بقلم المحقق ٦١.

(٢) انظر: نفس المصدر: ١٠٤.

الأثر الواضح في نشر أفكارهم المعادية للسلطان، وكان معظم من كتب أو ساهم في إطلاق أخبث الصفات هم ممن وصفهم السلطان عبدالحميد في مذكراته هم ممن فشلوا في أعماله أو لم يصيبوا شيئاً من مناصب الدنيا الفانية فرأوا أن يصبوا غضبهم في شخص السلطان فقد قال فيهم (فإذا فشلوا عمدوا إلى الإساءة والافتراء على خليفة المسلمين)[١].

لقد جارى هؤلاء وعدد كبير من كتاب العرب والمسلمين الدعاية اليهودية الماسونية التي شوّهت تاريخ السلطان عبدالحميد، وكم من الكتب نشرت مؤيدة أكاذيب اليهود التي صورت السلطان المظلوم سكيراً ظالماً فاسقاً فاجراً متوحشاً[٢] وكان هدف اليهود من هذه الدعاية الباطلة هي زوال حكم عبدالحميد بأي شكل من الأشكال، لأن في زوال حكمه وصولاً إلى مأربهم كما ورد ذلك على لسان نبي الصهيونية هرتـزل في تقريره الذي رفعه إلى لجنة الأعمال الصهيونية في اكتوبر ١٩٠٢ على أثر زيارته للسلطان، فقد قال في تقريره: (أقرر على ضوء حديثي مع السلطان أنه لا يمكن الاستفادة من تركيا إلا إذا تغيرت حالتها السياسية بدخولها في حرب أو وقوعها في مشاكل دولية وأعتقد أنه لا بد من كسب عطف الحكومة الانجليزية على المسألة الصهيونية...)[٣].

ثالثاً ـ الدامادا محمود باشا:

إن انتقاد الدامادا صهر السلطان عبدالحميد كان له أثر كبير، إذ أن خروجه كان ضربة قاسية بلا شك تلقّاها حكم السلطان عبدالحميد، فلو كان الخروج من غير أقاربه لكانت المسألة أسهل من خروج ممن عاش في قصره واستظل بحمايته واطلع على خفايا حياته واستطلع على أسرار سياسته، وقد تجلّى ذلك عندما صرح محمود باشا في عزمه على طبع رسالة يفصل فيها دسائس السلطان وحاشيته في يلديز...

(١) السلطان عبدالحميد الثاني، مذكراتي السياسية ٢٢١.
(٢) انظر: الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام ٨٩.
(٣) انظر: نفس المصدر ٨٩.

لقد كان لخروجه أثر كبير في التفاف الناس في الجمعيات التي نادت بزوال حكم السلطان عبدالحميد ولاقت شعبية كبيرة خارج البلاد وأصبح لها مكانة بين الدول الأوروبية، فلقيت التأييد والصفة الشرعية حيث أن الداماد قد برهن في نظر تلك الجمعيات جور السلطان الذي امتد إلى أقربائه وجور الدولة وظلم حكامها كما برهن أن السلطان يقف حجر عثرة أمام الإصلاحات التي اقترحتها تلك الجمعيات.

وجمعية تركيا الفتاة التي تسلمت فيما بعد مقاليد السياسة في الدولة رأت نفسها الوريثة الوحيدة في تسلم زمام الأمور للمضي قدماً نحو الإصلاحات التي وقف في وجهها السلطان وكان لوجود صهر السلطان أثر كبير في أن تقطع شوطاً وتسير قدماً في الوصول إلى أهدافها ومراميها.

لقد انخدع الداماد محمود كما انخدع نجلاه البرنس صباح الدين ولطف الله أفندي بجمعية تركية الفتاة التي عرفت فيما بعد بجمعية الاتحاد والترقي والتي تسلمت مقاليد الحكم في تركيا والتي توالت في عهدها النكبات على الامبراطورية الإسلامية وبدلاً من أن يرى الناس تطبيقاً صادقاً لشعارات (الحرية والإخاء والمساواة والعدالة) أخذوا يواجهون ظلماً وعبودية واستبداداً وأضعاف ما كان يؤخذ على العهد الحميدي...

ولم تحرك الجمعية الحاكمة ساكناً، وكأنها قد جاءت لتمزيق الامبراطورية والقضاء على معقل الإسلام معقلاً معقلاً. بعد أن كانت تملأ الدنيا صراخاً عن الحريات الضائعة في الامبراطورية العثمانية، وعن الاستبداد الحميدي والظلم والقسوة. حتى لقد صوَّرت أبواق الدعاية اليهودية الماسونية قصر السلطان عبدالحميد بؤرة فساد وفجور، وجعلته وكراً للدسائس والمؤامرات ولم تترك صفة قذرة إلا وألصقتها بالسلطان الشجاع الذي حفظ الامبراطورية ثلاثة قرون[١].

(١) انظر: الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام، ص ٨٨.

رابعاً ــ رد افتراءات كارل بروكلمان:

لقد دس كارل بروكلمان السم في الدسم، في ثنايا كتابه (تاريخ الشعوب الإسلامية) أمثلة هي بعيدة عن الواقع والحقيقة.

والذي يهمنا من افتراءات هذا المستشرق ما وصف به السلطان عبدالحميد الثاني واتهمه بعدة اتهامات أتناول تفنيدها حسب ما أوردتها في المبحث الأول من هذا الفصل.

(أ) أما قوله أن السلطان أبى القيام بأي إصلاح على النمط الأوروبي . . . كيف للسلطان عبدالحميد أن يأخذ بالحضارة الأوروبية وهو يعلم علم اليقين مساوئها، وهو يعلم أن ثمة فرقاً بين أسس حضارتنا وحضارتهم، ورد على المنادين بالأخذ بالحضارة الغربية (دون أن يشعروا بأن هناك تضاداً بين الحضارة الإسلامية والحضارة النصرانية بحيث لا يمكن أبداً التوفيق بينهما)[١]، وهو ما لّمح به في مذكراته.

وكذلك اتهامه (أنه سعى لتوطيد سلطانه عن طريق الأخذ برد أساليب الطغيان الشرقي)، وهو يشير بذلك إلى انتهاج السلطان لفكرة الجامعة الإسلامية والسير قدماً نحو الأخذ بمبادىء الإسلام ونشره وتطبيقه بكل دقة، وقد ردّ السلطان على هذا النقد وما شابهه من انتقادات في قوله: (بأي حق يتهجم جهلة أوروبا على ديننا؟ هناك بعض من النصوص في الإسلام شديدة في ظاهرها، أما في حقيقتها فهي مرنة وسهلة التطبيق، وفي الديانتين اليهودية والنصرانية نصوص كثيرة من هذا القبيل.

إن القرآن يأمرنا بالفضيلة دائماً، والإسلام ليس بأدنى في مبادئه من اليهودية والنصرانية، بل هو دين القوة في كل زمان ومكان، وهو أكمل الأديان قاطبة وأقواها)[٢].

---

(١) السلطان عبدالحميد، مذكراتي السياسية ١٣٣.
(٢) نفس المصدر ١٦٧.

(ب) أما قوله في أن السلطان اعتزل الجمهور اعتزالاً متزايداً . . . وإنشاء شبكة جاسوسية معقدة واسعة التشعب . . . فإننا نستطيع أن نرد على هذا الافتراء بما ذكرته الدكتورة ألما وتلن وهي كاتبة ليست من جنسنا ولا على ديانتنا تقول (ولقد اختار السلطان عبدالحميد أن يؤدي واجبه، فلم يأنف من الجلوس مع الضباط والموظفين العظام على طاولة واحدة، الأمر الذي لم يفعله سلطان تركي قبل الآن، وكان يذهب بنفسه لزيارة دواوين الحكومة وثكنات الجنود، فقد كانت به رغبة شديدة في معرفة كل شيء عما يجري في ملكه الواسع)[١].

لا شك أنَّه افتراء في غير محله، لقد سمى بروكلمان الحيطة والحذر والدهاء من السلطان (انطواءً)، وعبدالحميد معذور في أخذه الحيطة والحذر وإنشاء شبكة تجسس لمعرفة أخبار المنحرفين الذين تشربت أفكارهم بمبادىء إصلاح جوفاء ردّدها الأوروبيون وأخذوا يرددونها، وقد علّل السلطان عبدالحميد كثرة اعتزاله في قوله (من المعلوم أنني تعرضت للاغتيال، وأوشك المحاولون مرات عدة على النجاح في قتلي، فلا غرابة في مثل هذه الأحوال أن أحذر كل الناس وأبتعد حتى عن أقرب المقربين، إنها طبيعة بشرية وحس يمكن تفهمه.

يقال إن انزوائي أدى إلى انقطاعي عما يجري من الأحداث الداخلية في البلاد، ويشكو المعارضون من أنني أخضع لتأثيرات مستشارٍ حيناً ومستشار حيناً آخر، إنه خطأ فادح . . .

والحقيقة أنني أستمع إلى كل المستشارين وأقيس آراءهم بأعصاب باردة، ثم أتخذ قراري على بصيرة دون أي ارتباك، فلا أرجع عنه وأضعه قيد التنفيذ)[٢].

---

(١) عبدالحميد ظل الله على الأرض ٧٥.
(٢) السلطان عبدالحميد الثاني، مذكراتي السياسية ٧٩.

(ج) أما القول في أن عبدالحميد لم يعارض في المذبحة الوحشية التي قام بها الأكراد ضد الأرمن:

لقد شكل الأرمن مشكلة لطالما أزعجت الدولة العثمانية، وقد تحدثت عن مشكلة الأرمن في الفصل الأول من هذا البحث، وقد أوضحَ السلطان عبدالحميد مزاعم الأرمن الباطلة في مذكراته ومنها قوله (لا مجال لإنكار أن الأرمن في ولاياتنا الشرقية محقون في شكاواهم، ولكن لا بد لنا أن نشير إلى مبالغتهم فيها، وكأنهم يتباكون من ألم لم يحسّوا به، إنهم أمة جبانة تتدلل كالنساء تحتمي بالدول الكبرى وتصرخ لأتفه الأسباب، أما الأكراد فهم على النقيض من ذلك، أقوياء جبابرة، غلاظ شداد، رعاة يعيشون في هذه الولايات منذ أقدم العصور، لذا فهم ينظرون إلى الأرمن نظرتهم إلى الأجانب، فالأكراد هنا هم السادة والأرمن عبيد)[1].

فمشكلة الأمن وما لا قوة من ظلم واضطهاد على يد الأتراك المسلمين، لم تبرز صورة الأحداث كاملة، ولم يعرف العالم شيئاً عن أسباب القسوة التي عومل بها الأرمن، لم يعرف العالم الغربي، ولعلّه لا يريد أن يعرف بأن الأرمن التابعين للدولة العليّة كانوا يتعاونون مع الروس ويقومون بأعمال التخريب خلف الخطوط التركية وأنهم بهذه الأعمال قد تسببوا في مقتل ثلاثمائة ألف تركي مسلم.. وأنهم كانوا يستخدمون كنائسهم لتخزين الأسلحة والذخائر، للفتك بمؤخرة القوات التركية، المشتبكة مع الروس، ومثل أحداث الأرمن أحداث كثيرة وقعت في أوروبا وكانت الصليبية فيها تستفز الأتراك المسلمين وتجبرهم على استخدام العنف والقسوة، ثم تهب دعاية اليهود والإكليروس لتوجيه المطاعن للإسلام نفسه حتى انطبعت في أذهان الغرب الصليبي اليهودي صورة الإسلام المتوحش الذي يمثّله بعض قادة الأتراك في أوروبا[2].

(1) انظر: عبدالحميد الثاني، مذكراتي السياسية ٤٧.
(2) انظر جذور البلاء ٢٦٤.

وقد وقعت عدة مذابح ضد المسلمين تناسى الأوروبيون قسوتها وأغفل مؤرخيهم ذكرها، فمن أشهر هذه المذابح ما حدث في اليونان عام ١٨٢١، حيث أوقع الثوار المسيحيون بالمسلمين مذبحة رهيبة، وكذلك ما حدث في بلغار بعد أن تسلّل عملاء روس في أوائل شهر أبريل ــ نيسان ــ عام ١٨٧٦ إلى هذه الولاية وخططوا لثورة يقوم بها السكان المسيحيون الصقالبة الأرثوذكس، وتجمعهم وحدة الجنس والعقيدة والمذهب الديني، وقام هذا التخطيط على تحريك ثورة تبدأ بمذابح عامة يقوم بها الثوار ضد المسلمين، وفي ذات الوقت ينشط الثوار في إشعال الحرائق في عدة مدن، وذكر العملاء أنّ روسيا قد صحت عزيمتها على شد أزر الثوار وعلى تدخل قواتها لتأييدهم إذا تعرضوا لهزيمة وتعويض خسائرهم، وتدفقت الأسلحة والأموال سراً إلى الثوار عن طريق ولاية الأفلاق، وهي جزء من رومانيا الحالية وتجاوز بلغاريا وكانت الاتصالات للتخطيط للثورة قائمة على قدم وساق بين عملاء روسيا والبلغاريين[1]، وعندما قامت الحرب الروسية التركية قام البلغاريون النصارى بجرائم ضد المسلمين تقشعر له الأبدان، واضطر أكثرهم بعد ذلك أن يتجهوا إلى استانبول مشياً على الأقدام بمجرد سماعهم اقتراب الروس منهم خوفاً من فظاعة العدو وشراسته، فنهبت وسلبت ديارهم حينما غادروها وأثناء سيرهم حيث غصت بهم شوارع العاصمة في ذلك الشتاء، وفتك بهم داء (التيفوس) فمات الكثير منهم، ولولا إسراع الدولة في إبرام الصلح وتوزيعهم على ولايات الأناضول لهلكوا عن بكرة أبيهم، وتلك هي خطة روسيا وأملها في تهجير المسلمين من تلك البلاد[2]، إلا أن مسلمي بلغاريا لم يسكتوا على هذا الاضطهاد وردوا بالمثل وكان عملهم هذا مدخلاً للتشهير بالدولة وبالمسلمين وعدّوه مأخذاً عليهم، متغافلين مذابح المسيحيين ضد المسلمين.

(1) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ٢/٨٤٢.
(2) انظر: تاريخ الدولة العثمانية ١٧٧.

وقد استطاعت الدولة العثمانية في فترات قوتها باستخدام العنف في إخماد ثورات البلغار، فلما رأت الدول الأوروبية هذه النكسة التي أصابت ثورة بلغاريا عند تدخل القوات النظامية من الجيش العثماني أذاع المرجفون في أوروبا طولاً وعرضاً أنباءً مبالغاً فيها عن المذابح التي تعرض لها البلغاريون، وذهبوا إلى أن الدولة العثمانية بإقدامها على هذه المذابح قد ارتكبت وحشية لم ير لها القرن التاسع عشر من قبل مثيلاً[١].

لقد تناسى مؤرخو أوروبا ومن ضمنهم بروكلمان وحشية المسيحيين، وتذكروا عنف المسلمين وقوتهم في إخماد أطماعهم فأخذوا يلوكون أفواههم بما لا يصدقه العقل.

خامساً ـ رد افتراءات ماري ملز باتريك:

نستفتح في ردّنا لافتراءات ماري ملز بما قاله عنها الأستاذ زياد أبو غنيمة (أن هذه المؤلفة الأميركية تكاد تكون من أشد المؤلفين النصارى حقداً على العثمانيين بشكل خاص وعلى الإسلام بشكل عام)[٢].

لقد دسّت ماري في كتابها من الافتراءات على الدولة العثمانية وعلى السلاطين الخمسة التي تناولتهم الكثير، وكان نصيب السلطان عبدالحميد نصيباً كبيراً من هذه الافتراءات، ولا غرابة في كاتبة مثل ماري وهي تكيل الاتهامات على سلاطين بني عثمان الذين رفعوا راية الإسلام وحكموا بشرعه، لكنه الحقد والعداوة للإسلام وأهله، قال تعالى: ﴿إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودّوا لو تكفرون﴾[٣].

(أ) تقول: (إن السلطان عبدالحميد لم يأخذ بروح التقدم الذي كان يأمله شعبه).

---

(١) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ٢/٨٤٦.
(٢) انظر: جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ٢٨٣.
(٣) سورة الممتحنة: ٢.

ونقول: إنه من الخطأ الاعتقاد بأن عبدالحميد الثاني لم تكن تدفعه أي رغبة إلى الإصلاح، فلم يكن السلطان بالرجل المغفّل، إلا أنه تسلم دفة الحكم في أسوأ ظروف الدولة إطلاقاً، وفي وقت صارت فيه قوة أوروبا لا تبارى، فحاول أن يقبض على زمام الأمور بقوة، مشدداً على الرابطة الإسلامية معززاً سلطة الآستانة كمركز للخلافة، وقد قام بإنجاز ضخم تعددت مراميه من ورائه[١] في شتى ميادين الإصلاح فكيف إذن أهمل الإصلاحات وهو من أبرز السلاطين الذين نادوا بالإصلاح شريطة ألا يعارض شريعتنا السمحاء، وقد نوّه على ذلك في قوله (علينا أن نترك الحضارة الغربية وألا نحسدهم على هذه الحضارة)[٢].

أما قولها أنه أبعد عن العاصمة كل مفكري الأتراك ومصلحيهم... فهذا بهتان عظيم، إذ كيف يبعد السلطان كل مفكر وهو في حاجة إلى كل مثقف، لأن دولته وقعت في أزمة في عدد المثقفين المدنيين الذين يصلحون لتولي الوظائف الفنية غير العسكرية[٣] حيث أهمل أسلافه التعليم المدني، فرأى بثاقب نظره هذه الناحية فكانت له جهود في غير شؤون المال تستحق التسجيل من الناحية التعليمية بتشجيع العلم وأهله[٤]، وأوجد توازناً بين التعليم العسكري والتعليم المدني فأنشأ كلياتٍ ومدارس عليا ومعاهد فنية لتخريج رصيد بشري مدني من ذوي الخبرة يسهمون في النهوض واستقدام بعثات عسكرية من الدول الأوروبية وخاصة ألمانيا، لتطوير القوات المسلّحة[٥]، فكيف تتهم ماري بإهمال السلطان للنواحي العسكرية وترك مملكته والمحافظة عليها ولم يشغل فكره مطلقاً بذلك؟؟.

---

(١) انظر: عبرة وذكرى بقلم المحقق ٤١.
(٢) السلطان عبدالحميد، مذكراتي السياسية ٥٥.
(٣) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ٣/١١٥٧.
(٤) انظر: عبدالحميد ظل الله على الأرض ١١٥.
(٥) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ٣/١١٥٨.

ولعلّ ماري تقصد بهؤلاء المفكرين المعارضين الذين خرجوا من الدولة بعد أن أخفقوا في الوصول إلى مآربهم من فرض الدستور ونحوه من الإصلاحات على النمط الأوروبي، فوقف عبدالحميد منهم موقف المتشدد فخرجوا بعد فشلهم وهم يرددون كل غث وخبيث ضد السلطان.

ويكفي السلطان أنه لجأ إلى الديون حيث خصص جانباً كبيراً منها لإعادة تنظيم جيشه[1] لإنفاقه على إصلاحاته المختلفة.

(ب) وتقول: (ويجب ألا ننسى أن عبدالحميد كان جاهلاً تنقصه الخبرة المتعلقة بالشؤون العامة...).

ونقول لماري، فلو كان السلطان جاهلاً لما استطاع أن يصون دولته ثلث قرن، فكان فخراً له أن يصون الامبراطورية الإسلامية طوال مدة حكمه، وأن عملية التمزيق لم تبدأ إلا بعد أن سيطر اليهود والماسون على الأستانة في آذار ١٩٠٩[2] فكيف تصفه بالجهل؟؟ وهو الذي وقف في وجه التحديات بكل حزم فلم يستطع الأعداء أن ينالوا من دولته إلا ما أملتها الظروف الحرجة التي وقع فيها أسلافه.

كيف يوصف عبدالحميد بالجهل وهو يملك ذاكرة عجيبة من القوة بحيث كانت دائماً موضع استغراب كل من اتصلوا به، كان باستطاعته أن يعيد تلاوة الأحاديث التي يسمعها بعد سنوات بنفس الدقة التي قيلت بها، وكان ذهنه يسجل كل شخصية سياسية مهما يكن لقاؤه بها قصيراً، وكل كلمة تقال كأنما كان يسجل على الورق[3].

أما قولها: إن حرية الصحافة كانت مقيدة... فهذا مما لا نصدقه، وقد

(١) انظر: حركة اليقظة العربية في الشرق الأسيوي ٦٣.
(٢) انظر: الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام ٨٨.
(٣) انظر: عبدالحميد ظل الله على الأرض ٥٠.

تحدثت عن الصحافة والمطبوعات في الفصل الثاني من المبحث الثاني وأثره في التقدم الفكري في عصر السلطان مما يدفع بهذه الافتراءات ويمحوها.

أما وصفها للسلطان عند خلعه فتلك فرية لا يقبلها كل واع، فالذي عليه المؤرخون أن السلطان عندما اتخذ قرار عزله وجاء الوفد ليبلغه قرار العزل وجدوه واقفاً على قدميه هادئاً متين الأعصاب، فلما قرأ عارف حكمت باشا الفتوى التي أصدرها شيخ الإسلام ضياءالدين أفندي أجاب السلطان عبدالحميد جواب المؤمن الواثق بربه (ذلك تقدير العزيز العليم)، عندئذ تقدّم أسعد طوبطاني الأرناؤوطي قائلاً: لقد عزلتكم الأمة، فغضب عبدالحميد وقال: تقصد أن الأمة خلعتني، لا بأس، ولكن لماذا جئتم بهذا اليهودي ــ قصد بذلك اليهودي عمانوئيل قره صو ــ إلى مقام الخلافة؟؟[1].

فمن نصدق؟ فرية ماري أم كلام المؤرخ المسلم مصطفى طوران صاحب كتاب «أسرار الانقلاب العثماني».

(ج) أما تهجمها على النساء المسلمات لتمسكهن بالتقاليد الإسلامية، فيمكننا أن نرد عليها بما ورد في مذكرات السلطان عبدالحميد حيث يقول: (فيم يتهجم الأوروبيون على نسائنا؟ هل هناك مجال لمقارنة أخلاق نسائهم بأخلاق نسائنا؟ أليست المرأة الشرقية أوفى وأصدق وأجمل من المرأة الأوروبية؟ المرأة عندنا تهب نفسها لبيتها وترتبط بزوجها، أما الأوروبية فحريتها الزائدة تحرمها كثيراً من صفات الأنوثة.

إذا فرضنا أنّ نصف ما يكتب في أوروبا وينشر في صحفها صحيح فما علينا إلا أن نشفق على الرجال الأوروبيين)[2].

(١) انظر: أسرار الانقلاب العثماني ٩٢.
(٢) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، مذكراتي السياسية ٩٩.

سادساً ـ افتراءات متنوعة:

١ ـ اتهامه بزيادة نفقات القصر:

لم يكن عبدالحميد بذلك المسرف حتى يدخل نفقات لا حاجة لها في قصره، والدليل على ذلك أن عبدالحميد أدخل تعديلات على ميزانية القصر منذ الأيام الأولى من خلافته أدى ذلك إلى اقتصاد كميات ضخمة من الأطعمة كانت تذهب هدراً، وكان ملبسه يميل إلى البساطة، ولذلك اتهمه خصومه بالبخل وكان رده: (إن ديننا يأمرنا بمطلق المساواة فعلينا أن نكون بسطاء في مأكلنا وملبسنا)[١].

تلك التعديلات التي أجراها على النفقات جعلت بعض المغرضين ينعتونه بالبخل والشح، وكان ردُّه (أليس الإسراف هو الذي أوصل امبراطوريتنا إلى ما وراء الإفلاس؟ لم يحدث أن صرفت أموالاً على لهو أو على أمور يمكن أن تجر البلاد إلى ضائقة مالية، كما حدث عند كثير من الحكام، إنني مدين بحالتي المادية الجيدة للمحاسبة الدقيقة والاستثمار المعقول)[٢].

أما اتهامه بأنه استولى على أربعة أخماس المبلغ وأنفقه في شؤونه الخاصة فهذا افتراء كان رده (أمرت بتخفيض مخصصاتي الشخصية كي أكون قدوة حسنة ومثلاً للتضحية عند وزرائي، وكانت الصحافة الأوروبية توجه الانتقادات على هذه المخصصات وتراها أكثر من اللازم، لكن هناك أموراً لا تدركها هذه الصحافة أو تتجاهلها، إنني أصرف من هذه المخصصات على مدينة بأسرها وعلى كتيبة الحرس السلطاني، وعلى رجال القصر وعلى ثلث موظفي الدولة، ثم إنني الخليفة وإمام جميع المسلمين فمالي هو مال المسلمين جميعاً، ويشهد الله أنني لم أصرف على نفسي سوى القليل والقليل جداً من هذه المخصصات)[٣].

---

(١) السلطان عبدالحميد الثاني، مذكراتي السياسية ٥٢ و٢١٦ و٩٧.

(٢) نفس المصدر السابق ٢١٦.

(٣) نفس المصدر السابق ٩٧.

أما اتهامه بجمع أموال طائلة وإيداعها خارج البلاد فكان رده (يتهمني أعدائي بجمع ثروة طائلة والحقيقة أنني جمعت مبلغاً كبيراً بفضل الاستثمار الجيد ووضعته في الخارج في مكان أمين جداً، وأعتقد أن هذا التصرف صحيح إذ ليس في استانبول مصرف يمكن الاعتماد عليه حالياً، ولا داعي للاستغراب، فكل حاكم يعمل ما عملته، فإذا احتاجت خزينة الدولة إلى دعم ـ كما حدث أيام الحرب مع اليونان ـ سحبت هذه الأموال من الخارج ودعمت به الخزينة)[١]

ومعلوم أن السلطان عبدالحميد قد وصل إلى السلطة والدولة في ضائقة مالية نتيجة للإسراف الذي تركه أسلافه ابتداءاً من السلطان عبدالمجيد الذي اقترض قروضاً لتغطية نفقات حرب القرم الباهظة..

ثم كان عهد السلطان عبدالعزيز المبذر حيث تضاعفت الديون حتى عجزت الخزينة عن دفع ما عليها للدائنين، وجاء السلطان عبدالحميد الثاني ليواجه هذه المشكلة التي أدت بمصر إلى الاحتلال البريطاني، ووجد السلطان عبدالحميد أن من الخير لدولته أن تضع حداً بأية وسيلة للوقوف أمام التدهور المالي عن طريق التوصل إلى اتفاق واضح المعالم من الدائنين على طريقة ممكنة لدفع الديون المستحقة.

ودارت مفاوضات معقدة بين المسؤولين الأتراك والدائنين، كان هؤلاء أكثر رغبة في التوصل إلى اتفاق يحفظ لهم حقوقهم، وفعلاً خفّضوا من غلواء مطالبهم وفوائدهم ووافقوا على دكريتو (مرسوم) ١٨٨١م الذي نظّم عملية التسديد بكفالة بعض موارد الدولة الثابتة الدخل.

وفعلاً كانت هذه التسوية عاملاً هاماً في دعوة الاستقرار المالي إلى الدولة العثمانية رغم الأزمات السياسية والعسكرية التي تعرضت لها بعد ذلك[٢].

---

(١) السلطان عبدالحميد الثاني، مذكراتي السياسية ٢١٨.

(٢) انظر: الشعوب الإسلامية ٢٦.

٢ ـ الافتراء على شخصه:

ليست هناك شخصية في تاريخ الإسلام الحديث هوجمت بمثل ذلك العنف والتعسف الذي هوجم به السلطان عبدالحميد حتى كشفت الوثائق في السنوات الأخيرة ليس عن براءته بل عن بطولته، ومن عجب أن أبرز النصوص التي أحقّتَ الحق جاءت في مذكرات هرتزل التي نشرت باللغة العربية[١]، كما أوردته أثناء رد افتراء اليهود.

فاتهامه بأنه سلطان مستبد طبعاً وسجية... الخ، السلطان بريء منه كل البراءة وإن استخدم القوة في مواقف كثيرة فالسلطان معذور لأن الحوادث التي جرت لأسلافه تأثر بها تأثراً نفسياً، فوقع في بعض الأخطاء التي لا تبرر إلصاق هذه التهم المبالغ فيها، بل تشعر بالجهد الذي كان يبذله السلطان عبدالحميد ابتداء من مئات التقارير التي تأتيه عن كل شيء بدءاً من الشخصيات الكبيرة إلى أصغر فرد في البلاد كافية لأن تقلب أحاسيس الإنسان رأساً على عقب.

وعلى الرغم من هذه المشاغل والهزات التي تعرضت لها دولته فقد كان يملك من الذكاء والذاكرة وقوة التأثير ما يحيّر العدو والصديق.

وقد كان أيضاً متديناً عصامياً بكل ما في الكلمة من معنى[٢]، فلم يكن ذلك السلطان المستبد المتفرد في اتخاذ قراراته، ولم يكن بالسلطان السيء الذي تكال له الاتهامات الواحدة تلو الأخرى، وقد نوّه السلطان عبدالحميد إلى فرية الاستبداد فضرب أمثلة للبطش في بعض الدول بقوله (ها هم الإسبان وقد نشروا الرعب وفجروا حمامات الدم في كافة أنحاء إسبانيا، وها هم الفرنسيون وقد ارتكبوا الفظائع في الجزائر، وها هم الإنكليز وقد قضوا على ثورة الهند، وها هي بلجيكا في الكونغو وروسيا وقد أعملت السيف في رقاب السيبيريين، أفلا يرون إلا العثمانيين وقد عيل صبرهم عن جرائم الأرمن جزاء على

(١) انظر: تصحيح أكبر خطأ في تاريخ الإسلام الحديث ١١.
(٢) انظر: أسرار الانقلاب العثماني ٣٢.

الإحسان الذي لقوه من الأتراك في بلاد الأتراك، أفي الأمر عجب إذا قام المسلمون للدفاع عن أنفسهم؟؟)[١].

لقد كان جزاء من اتخذ الحيطة والحذر وضرب على يد العابثين بأن يسمى مستبداً.

٣ ـ دور الصحافة في إثارة الشبهة ضد عبدالحميد:

تحدثت في المبحث الخاص عن الناحية الفكرية التي حظيت بها الدولة العثمانية أثناء حكم عبدالحميد، ثم تحدثت عن الصحافة في الدولة عامة والبلاد العربية خاصة، وأوضحت مدى سيطرة المسيحيين على الصحافة في البلاد العربية وكان معظم رؤسائها من خرّيجي الإرساليات التبشيرية، وقد عمل هؤلاء لحساب الصهيونية العالمية التي موّلت تلك الصحف ودعمتها داخل البلاد، وشجّعت تلك الصحف على نشر كل غث ورديء تجاه الدولة والسلطان عبدالحميد، ومن خلال الصحافة قامت الصهيونية بنبش موضوع الفتنة التي أثارها البلغاريون عندما قاموا بالثورة ضد الدولة العثمانية إلى إخماد الثورة بالقوة، ولقد استغلت الدعاية الإعلامية اليهودية هذا الموقف لتشويه الحقائق وإظهار الأتراك المسلمين بمظهر المعتدين الذين يحبون سفك دماء النصارى بدون رحمة، وظلت الدعاية الإعلامية اليهودية تنفث الحقد في قلوب النصارى في جميع أوروبا وتدعوهم إلى الثأر لإخوانهم النصارى البلغار...[٢].

لقد لعبت الدعاية الإعلامية اليهودية أخطر دور من خلال الصحف التي كانت تسيطر عليها في أوروبا وفي تركيا نفسها وتبعهم أصحاب النفوس الضعيفة طلاب المناصب والجاه.

* * *

(١) السلطان عبدالحميد الثاني، مذكراتي السياسية ١١٧.
(٢) جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ٤٨ ـ ٤٩.

بسم الله الرحمن الرحيم

الخاتمة

نحمد الله على توفيقه وإحسانه، ونصلي ونسلم على أشرف الخلق محمد صلى الله عليه وسلم وبعد:

تم بحمد الله هذا الجهد المتواضع عن آخر خليفة للمسلمين السلطان عبدالحميد الثاني رحمه الله، الذي عشت معه من خلال المراجع المتنوعة التي كشفت لي عن جوانب مهمة في تاريخ الإسلام والمسلمين لم أكن أعرفها من قبل، وأحسست بعد تصفحي لها أن هناك أموراً قد أهملها كتّابنا، ولم يلقوا لها بالاً، بل سردوها سرداً دون توقف أو تأمل لمغزى تلك الأحداث التاريخية التي كان لها بلا شك أثر في تغيير مجرى التاريخ، فبتوفيق من الله العلي القدير استطعت جمع شتات هذه المعارف وصغتها بإمكاناتي المحدودة في هذا البحث الذي لا أشك أني خرجت منه بمعارف ونتائج استفدت منها كدروس وعبر وعظات، فرأيت من واجبي أن لا أكتم ما توصلت إليه وأسرد تلك النتائج على هيئة نقاط هي خلاصة هذا البحث، وذلك الجهد المتواضع وللقارىء الحكم بعد ذلك وقد رأيت أن أقسم بتلك النتائج إلى نتائج عامة فيما يخص الدولة العثمانية ونتائج خاصة فيما يخص السلطان عبدالحميد رحمه الله.

النتائج العامة:

١ ــ إن الدولة العثمانية لمدة خمسة قرون ظلّت الخلافة الإسلامية التي تؤدي دورها في حماية المسلمين.

٢ ـ إن الأتراك العثمانيين لم يعتدوا على البلاد العربية، وإنما هرعوا لإنقاذها من أخطار الأطماع الصليبية التي كانت توشك أن تنقضّ عليها والتي وصلت جيوشها البرتغالية إلى البصرة بعد أن سيطرت على عمان ومسقط ومضيق هرمز لتتخذ منها نقطة انطلاق نحو الحجاز ومصر والشام، بينما هددت الأساطيل الاسبانية شمال أفريقيا العربي المسلم.

٣ ـ إن الدولة العثمانية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تحولت إلى مادة الاستعمار الغربي يقتطع من جسدها، ويتصارع على اقتسامها، لذلك حرصت الدعاية الاستعمارية على تشويه صورة الحكم العثماني والتاريخ العثماني، والإنسان العثماني، لكي تبرر عملية تطويق الدولة العثمانية وتمزيقها واقتسامها.

٤ ـ إن الدولة العثمانية هي آخر وأقوى دولة شرقية صدّت غزو أوروبا، بل ونقلت المعركة إلى أرض أوروبا لأكثر من ثلاثة قرون عاشتها أوروبا في رعب دائم من الخطر «التركي» ولم تبخل مصادرها الدعائية والتعبوية في كيل الاتهامات للأتراك لإثارة روح المقاومة في أوروبا التي كانت تجثو عاجزة تحت قدم الجيش التركي.

٥ ـ وطوال حكم العثمانيين الذي استمر زهاء خمسة قرون لا ننفي أن يكون في تاريخ بني عثمان وبخاصة في عصورهم المتأخرة بعض الأمور التي لا تنسجم مع الإسلام وتتعارض مع أحكامه وهي أقرب إلى البدع، وليس الذنب في ذلك ذنب الإسلام وإنما ذنب المسيء نفسه.

٦ ـ إن جمعية الاتحاد والترقي في الدولة العثمانية لم تكن قوة تقدمية على حد زعم أعضائها، وإن بقية القوى الأخرى قوى رجعية متخلفة كما تدعي جمعية الاتحاد والترقي، إن جمعية الاتحاد والترقي كانت صنيعة لأعداء الإسلام ومنذ أن تسلمت مقاليد الحكم في تركيا أخذت النكبات تتوالى على الامبراطورية الإسلامية العظيمة وبدلاً من أن يرى الناس تطبيقاً صادقاً لشعارات (الحرية والإخاء والمساواة والعدالة) أخذوا يواجهون ظلماً

وعبودية واستبداداً أضعاف ما كان يؤخذ على العهد الحميدي، وكأن جمعية الاتحاد والترقي جاءت لتمزيق الامبراطورية والقضاء على معاقل الإسلام معقلاً معقلاً.

٧ ـ إن إخفاق اليهود خلال حكم الدولة العثمانية في الحصول على امتيازات ليمارسوا ألاعيبهم كان سبباً مباشراً في صب جام غضبهم على الدولة العثمانية ومن وقف في وجههم.

* * *

وبعد أن استعرضنا النتائج العامة الذي أمكننا استخلاصها من خلال هذا البحث يمكننا أن نقول إن الدولة العثمانية دولة تجاهلها كثير من مؤرخينا، وألصقت فيها من الشبه حتى ظن كل قارىء أنها دولة مستعمرة لا أقل ولا أكثر، وإذا كان هذا حال الدولة فما بال الحكام فيها، وما بال السلطان عبدالحميد الذي لا شك أنه قد لقي من الشبهات ما لا يمكن حصره، ولنا أن نخرج من خلال هذه الشبهات بالتساؤل التالي: هل السلطان عبدالحميد متهم ومظلوم إلى درجة وصفه بتلك الصفات التي لا تليق بكل إنسان؟ فما بالها تطلق على سلطان المسلمين؟.

لا شك أن المواقف التي وقفها السلطان تجاه الخارجين والناقمين عليه لتدل وبكل فخر أنه سلطان لم تهزه الحوادث ولم يعتره الضعف، بل وقف منها موقفاً صلباً شامخاً، ولو كان في مكانه أي حاكم آخر لم يسعه أن يعمل أكثر مما عمله السلطان الذي لو ترك الأمور تسير على طبيعتها لما استطاع أن يحفظ امبراطوريته التي ائتمن عليها خلال فترة حكمه، وإن كل ما ألصق به من شبهة إنما كان مرده أساساً الحقد، الحقد على الإسلام أولاً، والحقد على الأتراك العثمانيين ثانياً.

أما الإساءة إلى شخص السلطان والافتراء عليه فإنما هو فشل بعض الأشخاص في عصره، فإذا فشلوا عمدوا إلى الإساءة والافتراء على خليفة المسلمين.

وبعد أن قدّمنا هذه المقدمة عن السلطان يمكننا أن نقول بعد استقراء البحث عن عبدالحميد الثاني رحمه الله:

١ ــ إن السلطان عبدالحميد لم يكن رجلاً مستبداً ظالماً، ولم يكن يلقي بخصومه بالعشرات في الدردنيل، ولم تكن له تلك القوى التي تشتغل بالجاسوسية وتصادر الحريات.

٢ ــ يكفي السلطان عبدالحميد أنه حفظ الامبراطورية العثمانية ثلث قرن.

٣ ــ إن دعوة السلطان عبدالحميد إلى الوحدة الإسلامية لم يتجاوزها الزمن كما ادعى ذلك المغرضون، ولم يفت أوانها ولم تكن الدعوات القومية هي أسلوب العصر كما صوّر ذلك الاتحاديون، ومن الحق أن يقال: إن الحركة التي حمل لواءها السلطان عبدالحميد في تجميع المسلمين تحت لواء الخلافة كانت اتجاهاً طبيعياً وأملاً يملأ كل النفوس، ولذلك فقد حققت نجاحاً كبيراً، أزعج الاستعمار والصهيونية إزعاجاً شديداً مما استدعى العمل من جانبهم لإجهاضه والقضاء على حامل لواء الدعوة أصلاً كوسيلة للقضاء عليها وتدميرها.

٤ ــ إن السلطان عبدالحميد كما أكّد كثير من المؤرخين والباحثين كان آخر الحصون التي دافع بها الإسلام عن وجوده العالمي وبعد انهياره تمت مؤامرات الغرب وربيبته الصهيونية.

٥ ــ ومهما قيل عن مساوىء العهد الحميدي يكفي السلطان عبدالحميد الثاني فخراً أن يثبت بأن القوى التي تآمرت على إسقاطه كانت معادية للإسلام، ويكفيه فخراً كذلك أنه صان الامبراطورية الإسلامية طوال مدة حكمه، وإن عملية التمزيق لم تبدأ إلا بعد أن سيطر اليهود والماسون على الآستانة آذار ١٩٠٩م.

وبعد أن اطلعنا على ما كتب تجاه الدولة العثمانية بعامة والسلطان عبدالحميد بخاصة والتقصير الذي لاحظناه في تاريخ الإسلام الحديث الذي

كتبه ــ وللأسف الشديد ــ كتّاب من غير المسلمين، نجد لزاماً علينا أن نوصي أنفسنا أولاً والمؤرخين الكرام ثانياً أن ينظروا إلى تاريخ العثمانيين وسلاطينهم نظرة تأمل وإنصاف، ويعطوا كل ذي حق حقه، وأن ينظروا إلى هذه الفجوة وإلى هذا الجزء من تاريخنا الذي شوّهت حقيقته، وتلك الفترة التي أهملت والتي لا شك أنها تعتبر فترة إسلامية لا غبار عليها حمل لواءها سلاطين مسلمون، وكان آخرهم من وقف صامداً أمام كل التحديات رافعاً لواء الجامعة الإسلامية ووقف بكل إصرار وحزم في وجه الأطماع التوسعية للاستعمار الغربي، السلطان عبدالحميد الذي لم يعط حقه من الدراسة، وإن هم ذكروه ألحقوه ضمناً بسلاطين آل عثمان، وإن توسعوا في دراسته ذكروه ضمن من وقف أمام تحديات اليهود وأهملوا جوانب مهمة في عصر السلطان هي جديرة بالدراسة، ولعل أهم تلك الجوانب (أثر السلطان عبدالحميد في الثبات أمام التحديات الخارجية ونشر الدعوة في الخارج) وهو جزء مهم لم يتطرق إليه الباحثون إلا قليلاً، ولم تسعفني المراجع في أثناء كتابتي عن هذا المبحث، فلم أعط الموضوع حقه، فاكتفيت بجزء لم يغط الموضوع بأكمله، وحري بمؤرخي الإسلام أن ينظروا إلى هذه الناحية ويثروا مكتباتنا بتلك الموضوعات التي تجعل القارىء يقف على حقيقة هذا السلطان الذي خدم أمته ثلث قرن، دون ملل أو ضجر، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أوصي وزارات التربية والتعليم في عالمنا الإسلامي أن ينظروا إلى ما دسّ في الكتب المدرسية المقررة وبخاصة كتب التاريخ التي انفردت بسرد الحوادث دون النظر إلى استخلاص العبر والعظات منها كدروس يستفيد منها الطالب في حياته، كما أوصيهم بأن يعطوا الدولة العثمانية حقها من الإنصاف ويعرفوا للسلطان عبدالحميد مواقفه المشرفة وبخاصة عند ذكر قضية فلسطين، ويزيلوا كل ما هو طعن في الإسلام وقادته وكل كلمة ومصطلح أصبح بمنزلة المسلمات التي رددتها كتب المدارس وأبحاث الجامعات ومقالات الصحف خصوصاً ما شاع منها على أنها التصور الحقيقي للأمور مثل: السلطان الأحمر، والاستعمار التركي، والاستبداد العثماني، والصراع بين العرب والترك، والقومية الطورانية... إلى غير ذلك من العبارات

التي تبرأ منها الدولة العثمانية كل البراء، والسلطان عبدالحميد بعيد عنها كل البعد، والذي يبدو والله أعلم أن كثيراً من المؤرخين يخلطون بين حكم الأحرار الذي جاء متأخراً ممثلاً في جمعية الاتحاد والترقي الذين أساؤوا للإسلام والمسلمين ولتاريخ العثمانيين المشرّف وقادته الأفاضل، وبين فترة حكم السلاطين الأقوياء الذين كان آخرهم السلطان عبدالحميد الثاني رحمه الله رحمة واسعة.

والحمد لله رب العالمين ؟

المدينة المنورة ١٤٠٨هـ.

* * *

الفهارس

* فهرس الأعلام.
* كشّاف المصادر.
* فهرس الموضوعات.

فهرس الأعلام

* * *

كشاف المصادر

١ ـ آثار المدينة المنورة، عبدالقدوس الأنصاري ١٣٩٣هـ = ١٩٧٣م، الطبعة الثالثة، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة.

٢ ـ أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي، الدكتور علي محمد جريشة ومحمد شريف الزيبق، دار الاعتصام، مصر.

٣ ـ أسرار الانقلاب العثماني، كتبه بالتركية مصطفى طوران، ترجمة كمال خوجة ١٣٩٧هـ = ١٩٧٧م، الطبعة الأولى، دار السلام، بيروت.

٤ ـ أسرار الثورة العربية الكبرى ومأساة الشريف حسين، أمين سعيد، دار الكتاب العربي، بيروت.

٥ ـ الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام، عبدالله التل، الطبعة الثانية، المكتب الإسلامي.

٦ ـ بحوث حول التضامن والوحدة في ضوء القرآن والسنة، المجموعة الأولى، عنوان البحث (دعوة الكواكبي إلى الوحدة الإسلامية أو الوحدة الإسلامية في فكر الكواكبي)، إعداد الدكتور السيد محمد حسن الدقن، المؤتمر العالمي الثاني لتوجيه الدعوة وإعداد الدعاة ١٤٠٣ ـ ١٤٠٤هـ، مطبوعات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

٧ ـ بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت ١٥١٦هـ = ١٨٩٨م، الدكتور عبدالكريم رافق، ١٩٦٨م، الطبعة الثانية، دمشق.

٨ ـ البلاد العربية والدولة العثمانية، ساطع الحصري ١٩٦٥م، الطبعة الثالثة، دار العلم للملايين، بيروت.

٩ ـ تاريخ الإسلام، أنور الجندي، الجزء الثاني، مصر.

١٠ ـ تاريخ الدول الإسلامية بآسيا وحضارتها، الدكتور أحمد محمود الساداتي، دار نافع للطباعة.

١١ ـ تاريخ الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية، الدكتور علي حسين ١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م، الطبعة الأولى، المكتب الإسلامي، دمشق.

١٢ ـ تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد بك المحامي، تحقيق الدكتور إحسان حقي ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م، الطبعة الثانية، دار النفائس، بيروت.

١٣ ـ تاريخ سلاطين آل عثمان من أول نشأتهم حتى الآن، حضرة عزتلو يوسف آصاف طبع بالمطبعة العمومية، مصر.

١٤ ـ تاريخ الشعوب الإسلامية، كارل بروكلمان، نقله إلى العربية: نبيه أمين فارس، ومنير البعلبكي ١٩٨١م، الطبعة التاسعة، دار العلم للملايين، بيروت.

١٥ ـ تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه، الدكتور عبدالحليم منتصر، ١٩٨٠م، دار المعارف، مصر.

١٦ ـ تاريخ عمارة المسجد الحرام بما احتوى من مقام إبراهيم وبئر زمزم وغير ذلك، الشيخ حسين عبدالله باسلامة ١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م، الطبعة الثالثة، دار البلاد بجده، إصدارات تهامة (سلسلة الكتاب السعودي ١٦).

١٧ ـ التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية، إبراهيم بك حليم ١٣٢٣هـ = ١٩٠٥م، الطبعة الأولى، مطبعة ديوان عموم الأوقاف، مصر.

١٨ ـ تصحيح أكبر خطأ في تاريخ الإسلام الحديث، السلطان عبدالحميد والدولة العثمانية، أنور الجندي، سلسلة في دائرة الضوء، دار الاعتصام، مصر.

١٩ ـ ثلاثة من أعلام الحريم (جمال الدين الأفغاني، محمد عبده، سعد زغلول)، قدري قلعجي، دار الكتاب العربي، بيروت.

٢٠ ـ جذور البلاء، عبدالله التل ١٣٩٠هـ = ١٩٧١م، الطبعة الأولى، دار الإرشاد، بيروت.

٢١ ـ جمال الدين الأفغاني باعث النهضة الفكرية في الشرق، محمد سلام مدكور ١٣٥٦هـ = ١٩٣٧م، الطبعة الأولى.

٢٢ ـ جمال الدين الأفغاني المصلح المفترى عليه، الدكتور محسن عبدالحميد ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٢٣ ـ جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك، زياد أبو غنيمة ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م، الطبعة الأولى، دار الفرقان، عمان، الأردن.

٢٤ ـ حاضر العالم الإسلامي، لوثرون ستودارد الأميركي، نقله إلى العربية الأستاذ عجاج نويهض، علق على حواشيه وقدم فصوله الأمير شكيب أرسلان، المجلد الأول ١٣٥٢، مطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر.

٢٥ ـ حركة اليقظة العربية في الشرق الآسيوي، الدكتور محمود صالح منسي ١٣٩٥هـ = ١٩٧٥م، الطبعة الثانية، دار الفكر العربي.

٢٦ ـ حقائق الأخبار عن دول البحار، إسماعيل سرهنك، الجزء الأول ١٣١٤هـ، الطبعة الأولى، المطبعة الزاهية الزاهرة ببولاق مصر، القاهرة.

٢٧ ـ حوار في أنقرة، محمد جلال كشك ١٣٩٥هـ = ١٩٧٥م، الطبعة الأولى، المختار الإسلامي، مصر.

٢٨ ـ الدرر البهية في فضل العرب ومآثر الدولة العثمانية، الشيخ عبدالحميد الشافعي ١٩٠٢م، المطبعة التجارية بالإسكندرية، مصر.

٢٩ ـ دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية، الدكتور عبدالحليم عويس ١٤٠٢هـ = ١٩٨٢م، الطبعة الثانية، دار الشروق، جدة.

٣٠ ـ الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، أستاذ دكتور عبدالعزيز محمد الشناوي، الجزء الأول والثاني ١٩٨٠م، والجزء الثالث ١٩٨٣، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر.

٣١ ـ سلاطين بني عثمان الخمسة، ماري ملز باتريك، تعريب حنا غصن، كامل مروه، كامل صموئيل مسيحة، ١٩٣٣م، طبع على نفقة مجلة اللطائف العصرية بمطبعة صادر.

٣٢ ـ السلطان عبدالحميد الثاني، مذكراتي السياسية ١٣٩٧هـ = ١٩٧٧م، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٣٣ ـ شبهات في الفكر الإسلامي، أنور الجندي، دار الاعتصام، مصر.

٣٤ ـ الشعوب الإسلامية (الأتراك العثمانيون، الفرس، مسلمو الهند)، دكتور عبدالعزيز سليمان نور، ١٩٧٣م، دار النهضة العربية، بيروت.

٣٥ ـ صفحات مضيئة من تراث الإسلام، أنور الجندي، دار الاعتصام، مصر.

٣٦ ـ العالم الإسلامي، عمر رضا كحالة، الجزء الأول ١٣٧٧هـ = ١٩٥٨م، الطبعة الثانية، المطبعة الهاشمية، دمشق.

٣٧ ـ عبدالحميد ظل الله على الأرض، دكتورة ألما وتلن، ترجمة راسم رشدي، ١٩٥٠م، القاهرة.

٣٨ ـ عبدالرحمن الكواكبي، دكتور محمد عبدالرحمن برج، ١٩٧٢م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دار التأليف والنشر.

٣٩ ـ عبرة وذكرى أو الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده، سليمان البستاني، تحقيق خالد زيادة، ١٩٧٨م، الطبعة الأولى، دار الطليعة، بيروت، لبنان.

٤٠ ـ العثمانيون والروس، دكتور علي حسون ١٤٠٢هـ= ١٩٨٢م، الطبعة الأولى، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق.

٤١ ــ العرب والترك في العهد الدستوري (١٩٠٨هـ = ١٩١٤م، توفيق علي برو، ١٩٦٠م، دار الهنا للطباعة.

٤٢ ــ العرب والعثمانيون، دكتور عبدالكريم رافق، ١٩٧٤م، الطبعة الأولى، مطابع ألف باء، الأديب، دمشق.

٤٣ ــ فصول من تاريخ المدينة المنورة، علي حافظ، شركة المدينة للطباعة والنشر، جدة.

٤٤ ــ الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار، الدكتور محمد البهي، ١٩٧٠م، الطبعة الخامسة، دار الفكر، بيروت.

٤٥ ــ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي ١٩٦٥م = ١٣٨٥هـ، الطبعة السادسة، دار الكتاب العربي، بيروت.

٤٦ ــ الماسونية بين الحقيقة والشعارات، محمد زكي الدين ١٤٠٤هـ =١٩٨٣م، الطبعة الأولى، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة.

٤٧ ــ الماسونية في العراء، دكتور محمد علي الزعبي ١٣٩٧هـ = ١٩٧٧م، الطبعة الثانية، مؤسسة الزعبي للتأليف.

٤٨ ــ المخططات التلمودية اليهودية الصهيونية، أنور الجندي ١٣٩٧هـ = ١٩٧٧م، الطبعة الثانية، دار الاعتصام، مصر.

٤٩ ــ مكايد يهودية عبر التاريخ، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني ١٣٩٨هـ = ١٩٧٨م، الطبعة الثانية، دار القلم، دمشق.

٥٠ ــ مؤامرة فصل الدين عن الدولة، محمد كاظم حبيب ١٣٩٤هـ = ١٩٧٤م، الطبعة الأولى، دار الإيمان، بيروت.

٥١ ــ موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، حسان علي حلاق ١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م، الطبعة الثانية، الدار الجامعية، بيروت.

٥٢ ــ ندوة المحاضرات موسم حج عام ١٣٩٠هـ، مقالة (الصهيونية والغزو الفكري)، الأستاذ محسن باروم، إصدار رابطة العالم الإسلامي، طبع بمطابع شعاركو بيروت، لبنان.

٥٣ ــ اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار (منذ ظهورها إلى أوائل الحرب العالمية الأولى)، أنور الجندي ١٣٩٨هـ = ١٩٧٨م، الطبعة الأولى، دار الاعتصام، مصر.

٥٤ ــ يهود الدونمة، دكتور محمد عمر، مؤسسة الدراسات التاريخية.

٥٥ ــ يهود الدونمة، كتبه بالتركية مصطفى طوران، ترجمة كمال خوجة ١٣٩٧هـ = ١٩٧٧م، الطبعة الأولى، دار السلام، بيروت.

٥٦ ــ اليهودية، دكتور أحمد شلبي، الجزء الأول ١٩٧٨م، الطبعة الخامسة، النهضة المصرية.

الدوريــات :

١ ــ **صحيفة الجزيرة**: الإثنين ١٣ جمادى الآخرة ــ ١٤٠٥هـ الموافق ٤ آذار «مارس» ١٩٨٥ ــ العدد «٤٥٤٠».

٢ ــ مجلة «العربي» الكويتية :

(أ) مقالة بعنوان: سبب خلع السلطان عبدالحميد وثيقة بتوقيعه فريدة مجهولة تصرح بالسبب.

(*) العدد ١٦٩ شهر شوال ١٣٩٢، الموافق لكانون الأول ١٩٧٢، بقلم سعيد الأفغاني.

(ب) مقالة بعنوان: بين هرتزل والسلطان عبدالحميد.

(*) العدد ٢٢٣ جمادي الثانية ١٣٩٧هـ، يونيو ١٩٧٧م، بقلم الدكتور محمد أحمد خلف الله.

(ج) عرض لكتاب بعنوان: سكة حديد الحجاز القصة والمغامرة والنهاية.

(*) تأليف: د. وليم أولسنوالد، تقديم: سليمان موسى.

العدد ٢٧٦، محرم ١٤٠٢هـ، نوفمبر ١٩٨١م.

٣ ــ مجلة «الفيصل» :

مقالة بعنوان: الخط الحديدي الحجازي ماضيه.. وحاضره ومستقبله، بقلم: وجيه الخيمي.

العدد ٣٢ صفر ١٤٠٠هـ، يناير ١٩٨٠ (السنة الثالثة).

* * *

فهرس الموضوعات

الفصل الثاني

أثره في نشر الدعوة الإسلامية

الفصل الثالث

الشبهات التي أثيرت حوله

* * *